

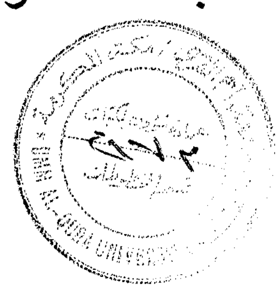
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
مكة المكرمة

مكـــــة والمـــديـــنـــة

من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الهجري
دراسة تاريخية حضارية

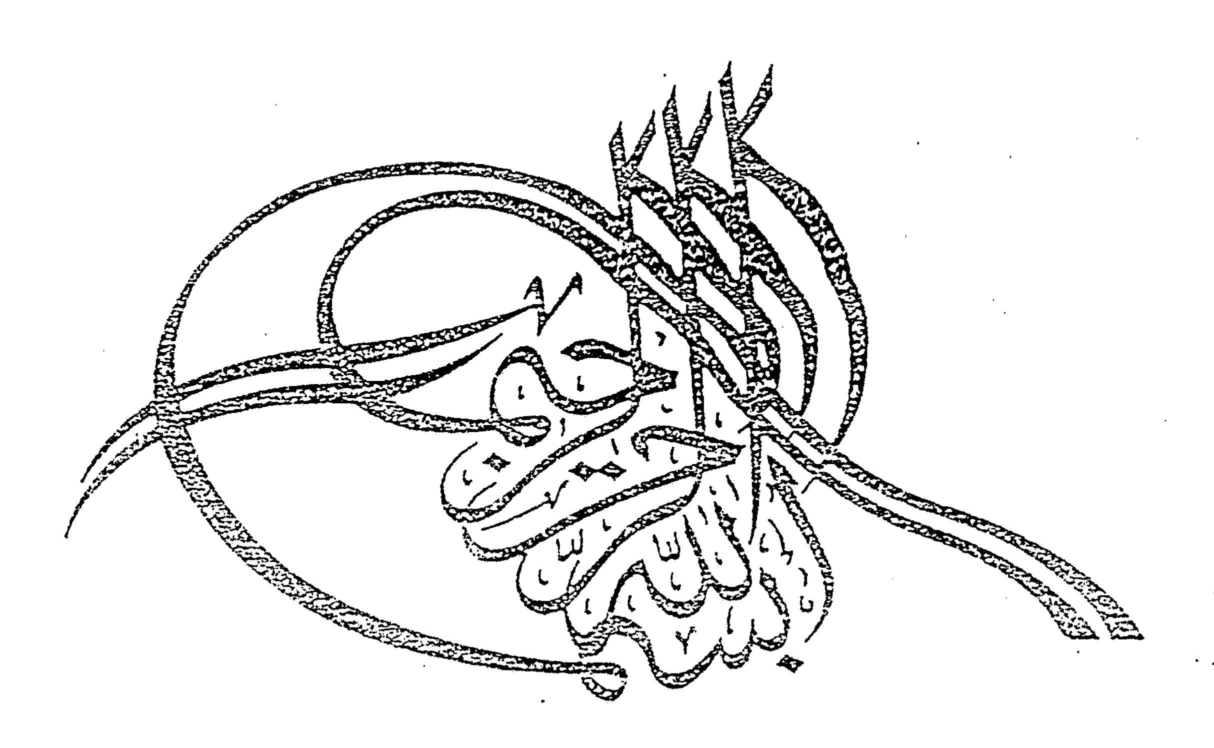
رسالة مقدمه لنيل درجة الدكتوراه

من الطالبة
عائشة عبد الله عمر باقاسي



اشراف الاستاذ الدكتور
محمد الحبيب الهيله

١٤١٣/ ١٤١٤هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

تقدمت عائشة بنت عبدالله عمر باقاسي برسالة عنوانها :
مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الهجري
دراسة تاريخية حضارية
لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

وتحتوي الرسالة على مقدمه وتمهيد، وستة فصول ، وخاتمة وملاحق وقائمة بالمصادر والمراجع. تكلمت الباحثة فى المقدمة عن أهمية موضوع البحث ، وأهم المشكلات العلمية التى واجهتها ومنها قلة المعلومات التاريخية عن الأحوال الإقتصادية والحياة الإجتماعية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين ، كما أحتوت المقدمة على عرض لأهم مصادر البحث ، وعرض التمهيد لتاريخ مكة والمدينة وواقعها السياسي فيما بين سنتي ٣٠٠-٣٥٨هـ/٩١٢- ٩٦٨م أي حتى إستيلاء الفاطميين على مصر ٠

وتتبع الفصل الأول من الرساله موضوع حكم الأسرة الموسوية بمكة المكرمة منذ قيام محمد بن جعفر بولاية مكة سنه ٣٥٨هـ/٩٦٨م حتى نهاية حكم هذه الأسرة سنه ٤٥٤هـ/١٠٦٢م عندما تولى ولاية مكة عبد من عبيد شكر بن أبى الفتوح ثم إنتقال الولاية من بعده إلى الهواشم ، ويبحث الفصل الثاني موضوع حكم الهواشم بمكة المكرمة منذ سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م إلى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م عندما ادى النزاع الأسري إلى إضعاف حكم الهواشم ٠

أما الفصل الثالث من الرسالة فقد خصصته الباحثة لدراسة تاريخ بني مهنا من الحسينيين فى المدينة المنورة منذ سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وألقى الفصل أضواء جديدة على ولاية طاهر بن مسلم للمدينة ودور خلفائه فى تاريخ المدينة المنورة حتى نهاية النفوذ الفاطمى لبلاد الحجاز سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ٠

ويحتوى الفصل الرابع على دراسة للأحوال الإقتصادية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع البحث ، وبعد عرض العوامل المؤثرة فى الأحوال الإقتصادية ، تحدثت الباحثة عن الزراعة والرعى فى مكة والمدينة ثم إنتقلت إلى دراسة النشاط التجاري لمدن وموانئ الحجاز وأهم الحرف والصناعات ، وخصصت الباحثة الفصل الخامس لدراسة الحياة الإجتماعية فى مكة والمدينة وقدمت معلومات قيمة عن فئات المجتمع وبعض مظاهر الحياة الإجتماعية والعناية بالمساجد والمنشآت الإجتماعية ٠

أما الفصل السادس والأخير فهو يبحث فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين ، وألقى هذا الفصل الأضواء على دور الحرمين الشريفين فى إزدهار الحياة العلمية والثقافية ودور أئمة الحرمين ومشاهير العلماء والفقهاء والمجاورين فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة ٠

وتحتوى الخاتمة على أهم النتائج التى توصلت إليها الباحثة مذيلة بخمسة ملاحق تفسر بعض المعلومات الواردة فى بعض صفحات الرسالة ، وقائمة بالمصادر والمراجع لموضوع البحث

عميد كلية الشريعه والدراسات الإسلامية	اسم المشرف	اسم الطالبه
د٠ عابد بن محمد السفياني	د٠ محمد الحبيب الهيله	عائشة عبدالله عمر باقاسي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً. فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً.

صدق الله العظيم

سورة طه آية ١١٣-١١٤

فهــرس المحتويات

فهـــرس المحتويـــــات

رقم الصفحة

المقدمـــــــة

المقدمـــــة

الحمد لله حمداً يوافى نعمه، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين، هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار، ومن أتبع هديهم، واقتفى اثرهم إلى يوم الدين ... وبعد

فأقول: وبالله العون والتوفيق، ومنه الهداية والرشاد.

لما كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة تحظيان منذ القدم بنصيب وافر من التقدير والاحترام والاهتمام. ومكة المكرمة البلد الأمين التى شرفها الله تعالى بأن ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله: [إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً[١]. وهى مهبط الوحى حيث نزل جبريل الأمين على خاتم الأنبياء والمرسلين بأعظم معجزة بهرت الأنظار، وأدهشت العقول، وجعلتها تقف عاجزة أمامها لا تقوى على الإتيان بمثلها، وذلك هو الكتاب الخالد الباقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو القرآن الكريم، وكذلك حيث توجد الكعبة المشرفه التى جعلها الله قبلة للمسلمين.

أما المدينة المنورة فهى طيبة الطيبة الطاهرة التى هاجر إليها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأقام بها الدولة الإسلامية التى غيرت مجرى التاريخ العام. لذا إحتلت مكة المكرمة أهمية كبيرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية منذ عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها. فقد لعبت المدينتان المقدستان دوراً هاماً فى تاريخ صدر الإسلام وأصبحتا مجالا للمنافسة والصراع بين القوى السياسية طوال الفترة التالية رغم نقل حاضرة الدولة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ثم إلى بغداد فالقاهرة.

[١] القرآن الكريم: سورة آل عمران، آية [٩٦-٩٧].

وحظيت مكة والمدينة أيضاً - خلال الفترة موضوع الدراسة باهتمام كبير من جانب المؤرخين خاصة وإنهما أمستا محوراً للصراع بين خلافتين عريقتين العباسية فى بغداد والفاطميه فى القاهرة.

لذا فإن الباحث المدقق والمحب لهذه الأرض الطيبة الطاهرة، التى تهفو إليها القلوب والأبصار، يجد نفسه مدفوعاً إلى البحث، والإستقراء، والاستنتاج، وإستنباط المعلومات التاريخية الخاصة بهذه البلاد، التى شرفت بولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم على تربتها، ومبعثه منها إلى البشرية جمعاء، فأشعت من نورها على الإنسانية الهداية والخير والسعادة.

ويرجع سبب قلة المعلومات التاريخية عن مكة المكرمة والمدينة المنورة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين / العاشر والثانى عشر الميلاديين، إلى عدم إهتمام المؤرخين المعاصرين للفترة موضوع الدراسة بالكتابة عنها. وإقتصر إهتمام المؤرخين بالدرجة الأولى على ذكر الأحوال السياسية لكل من الخلافتين المتنافستين على بلاد الحجاز، وهما الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الفاطمية فى القاهرة، ولا نجد فى كتاباتهم عن مكة والمدينة إلا بعض النصوص المتفرقة، التى لا تشفى غليل الباحث، يضاف إلى ذلك أن المؤرخين المعاصرين إهتموا بالكتابة عن الأحوال السياسية والمذهبية للخلافتين المتنافستين، بما يتلاءم مع ميولهم ومذاهبهم مما يجعل الباحث يلقى صعوبة كبيرة حتى يصل إلى الحقيقة التاريخية.

ونظراً لإهتمام المؤرخين المعاصرين - للفترة موضوع الرسالة - بالأمور السياسية والمذهبية دون غيرها، فإن الباحث يجد صعوبة أخرى تتمثل فى كيفية إستخراج ما حوته كتابات هؤلاء المؤرخين من معلومات عن الأحوال الإقتصادية وعن الحياة الإجتماعية كذلك.

لهذا كان لابد من الرجوع إلى أمهات المصادر العربية المطبوعة والمخطوطة، التى تعرضت لتاريخ الدولة الإسلامية بصفة عامة، ومكة والمدينة بصفة خاصة، فى الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى حتى منتصف القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى، للتعرف على ما تحتويه من معلومات تاريخية عن المدينتين المقدستين. لهذا ارتحلت لجمع المادة العلمية من المخطوطات المحفوظة بمكتبات استانبول بتركيا، ودار الكتب المصرية بالقاهرة والمخطوطات المصورة على مايكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة. وجمعت ما استطعت الوصول إليه من معلومات تاريخية عن موضوع البحث من تلك المخطوطات، ومن أمهات المصادر العربية المطبوعة، التى تيسر لى الإطلاع عليها من مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والقاهرة.

وكان لابد بعد وأثناء جمع المادة العلمية من المصادر التاريخية، من القيام بعمليات النقد، والتحليل، والتفسير، والشرح، والاستنتاج، حتى يمكن إلقاء أضواء جديدة على هذا الموضوع الصعب عن مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى.

وأجد من الواجب على أن أقدم دراسة تحليلية لأهم المصادر التاريخية وغيرها، التى إعتمدت عليها فى كتابة الرسالة. وقد تميزت هذه المصادر بأن معظمها كتبها مؤرخون معاصرون، وبعضها قام بكتابتها مؤرخون عاشوا بعد القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، إلا أنهم نقلوا من مصادر أصلية معاصرة. وأهم هذه المصادر ما كتبه ناصر خسرو، وابن الجوزى، وابن جبير، وابن الأثير، وابن خلكان، والقلقشندى، والفاسى، وابن فهد، والسخاوى والسمهودى، وغيرهم.

والرحالة ناصر خسرو[١] صاحب سفرنامه ولد سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م، من أسرة متوسطة الحال، وتثقف ثقافة واسعة والتحق بخدمة السلطانين

---

[١] ناصر خسرو: سفرنامه، ص٩-٢٤.

الغزنويين محمود ثم ابنه مسعود، وهكذا نشأ نشأة سنية، وبدأ حياته فى بلاط حماة السنة وقتذاك. وعندما تبدلت الأحوال السياسية، ونجح السلاجقة فى القضاء على دولة الغزنويين، التحق ناصر خسرو بخدمة جغرى بيك السلجوقى حاكم خراسان، وتولى أمر خزانته فى مرو مدة طويلة.

وأفادت الدراسة من كتاب سفرنامه لناصر خسرو، إذ أمدنا ببعض المعلومات الهامة الخاصة بالكسوة، التى كانت ترسل إلى أمراء مكة والمدينة. كذلك وصف ناصر خسرو كلا من جدة ومكة وصفاً مستفيضاً فى هذه الفترة التاريخية. ورغم أن ناصر خسرو زار مكة والمدينة فى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، إلا إنه لم يذكر معلومات كثيرة عن الأحوال الإقتصادية والحياة الإجتماعية عنهما، كذلك كانت معلوماته قليلة جداً بالنسبة لتاريخ المدينة المنورة فى الفترة التاريخية لموضوع الرسالة.

وأمد كتاب المنتظم لصاحبه المؤرخ والعالم والفقيه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م الدراسة بمعلومات قيمة عن الأوضاع السياسية فى مكة والمدينة دون النواحى الإقتصادية والاجتماعية والعلمية.

وأفادت الدراسة أيضاً من كتابات الرحالة ابن جبير الذى زار مكة والمدينة[١] سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وتعتبر رحلته [تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأمصار] من الرحلات الهامة لموضوع الدراسة، فقد أشار ابن جبير إلى الحوادث التاريخية وغيرها فى المدينتين المقدستين فى العصر الفاطمى وكانت معلومات ابن جبير معلومات قيمة، حيث وصف المدن التى مر بها. وتمتاز رحلة ابن جبير بوصفها الدقيق لما شاهده فى مكة والمدينة، كما وصف طرق الحج، والصعوبات التى كانت تواجه الحجاج إلى بيت الله الحرام. واهتم ابن جبير فى رحلته بالجانب السياسى لمكة المكرمة والمدينة المنورة، وكذلك مظاهر الحياة الإجتماعية وغيرها. ولكنه لم يذكر معلومات كثيرة عن الحياة العلمية والثقافية فى المدينتين فى ايامه.

[١] ابن جبير: الرحلة، طبعة بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص٥.

ومن أهم كتب التاريخ العام التى ساهمت فى مد هذه الرسالة بالمعلومات كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى، المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م[١] وابن الأثير هو عز الدين على بن محمد الشيبانى، ولد بجزيرة ابن عمر، ونشأ بها، وسكن الموصل مع والديه[٢]. وكتابه من كتب الحوليات التى سردت فيها الأحداث التاريخية على اساس الترتيب الزمنى. وقد أفاض ابن الأثير فى حديثه عن التاريخ السياسى للدولة الاسلامية، وحاول فى كتابه التوازن بين الأقاليم، فلم يدع أخبار إقليم، تطغى على حوادث إقليم آخر.

ومن كتب التراجم التى أفادت البحث كتاب [وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان] لابن خلكان[٣]. وابن خلكان ولد بإربل سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وسمع بها عن صحيح البخارى، وكان فاضلا بارعاً متفنناً عارفاً بالمذهب، حسن الفتاوى، جيد القريحة بصيراً بالعربية، علامة فى الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الإطلاع، حلو المذاكرة، وافر الحرمه، فيه رياسة كبيرة، قدم الشام، ثم دخل مصر وسكنها مدة، ثم قدم الشام وظل بها حتى وفاته فى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م[٤]. وكتاب وفيات الأعيان من المصادر الهامة، التى أفادت البحث عند التعريف بمشاهير الرجال، الذين ورد ذكرهم فى فصول الرسالة.

أما المصادر الخاصة بتاريخ الحرمين الشريفين فيأتى فى مقدمتها كتب مؤرخ مكة تقى الدين الفاسى، المتوفى سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م. واعتمد البحث بصفة أساسية على كتابى الفاسى [العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين] و[شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام]، فضلا عن كتابه [تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام].

---

[١] أنظر ابن الأثير،الكامل فى التاريخ،١٣ جزء،طبعة بيروت سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م
[٢] أنظر ابن الأثير: أسد الغابة، م١، ص٧-٨.
[٣] ابن خلكان، وفيات الأعيان، جزءان، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٢م.
[٤] أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، المقدمة، ص ٥-٨.

أما كتاب العقد الثمين الذى يتكون من ثمانية أجزاء، فيحتوى على تراجم لمشاهير الولاة والقضاة والعلماء والفقهاء من أهل مكة المكرمة. وقدم الفاسى ترجمة وافية لكل منهم، وتحدث عن حياتهم، وأهم أعمالهم، وأهم الأحداث التى جرت فى عهدهم. ورتب أسماء الأعلام حسب الحروف الأبجدية، كما اعتاد كتاب التراجم أمثال ابن خلكان والكتبى وغيرهما.

أما كتابه الثانى [شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام] فى جزئين، فقد تحدث فيه الفاسى عن أهم أخبار مكة، منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عصره تبعاً للسنوات. وهو يعتبر مكملا لكتابه العقد الثمين.

أما كتابه الثالث الذى لا يزال محفوظاً، فهو [تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام]. ويحتوى على أخبار مكة المكرمة ومعلومات هامة عن العاصمة المقدسة اتصفت كلها بالدقة وعدم التحيز. وقد أمدت كتب الفاسى الدراسة بمعلومات تاريخية قيمة عن الحياة السياسية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة.

ومن المصادر التاريخية الهامة لموضوع البحث كتاب [اتحاف الورى فى أخبار أم القرى] لابن فهد. وهو نجم الدين عمر بن محمد بن أبى المنبر بن فهد القرشى الهاشمى[١] المكى. ولد سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م بمكة المكرمة. وهو من بيت علم، رحل إلى الكثير من البلاد الإسلامية لطلب العلم، ومنها إلى مصر والشام. وكتب كثيراً من المؤلفات أهمها كتابه [اتحاف الورى فى أخبار أم القرى]. الذى يعتبر من أهم المصادر التاريخية لمكة المكرمة، وأورد فيه ابن فهد أخبار مكة منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى منتصف القرن الثامن الهجرى. وقد تم تحقيقه ونشره فى خمسة أجزاء. وقد أفاد الجزء الثانى من إتحاف الورى بمعلومات تاريخية قيمة عن مكة المكرمة منذ القرن الأول الهجرى حتى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٢م. وسلك ابن فهد عند تاريخه لمكة

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ١، ص ٨-٢٠.

المكرمة منهج مؤرخى الحوليات أمثال ابن الأثير والمقريزى والعينى[١] وغيره فكان يؤرخ لحوادث كل سنة ثم ينتقل بعدها إلى السنة التالية، ولا يخرج عن أحداث مكة، إلا فيما كان له صلة بها، مع الإهتمام ببيت الله الحرام، وكل ما يحدث بشأنه، وكل ما يتجدد فى المسجد الحرام، وما يطرأ على مكة من سلم أو حرب، وغلاء أو رخص، وما ينزل بها من أمطار وسيول، وما تصاب به من أوبئة وأمراض، ومن يموت بها من الأعيان، وما يقع من الحوادث. ويتابع ابن فهد فى اتحاف الورى مواسم الحج، وأحوال ضيوف الرحمن، وما يلقونه فى الطريق من أمن وسلامة، أو نهب وإهانة ويصف حج الخلفاء والسلاطين والملوك وعليه القوم من علماء وصلحاء وأثرياء، ويتابع ذكر أمراء مكة وقضاتها وأئمتها، وما يجرى منهم وعليهم. وفى الحقيقة فإن النجم ابن فهد قدم صورة تاريخية واضحة المعالم عن مكة المكرمة. ومن هنا تأتى قيمة كتاب ابن فهد [اتحاف الورى بأخبار أم القرى] لموضوع الرسالة وقد توفى ابن فهد سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م.

أما بالنسبة للمصادر المعاصرة لتاريخ المدينة المنورة فى الفترة موضوع الدراسة فقد ضاع معظمها أو فقدت مثل غيرها من كتب التراث غير أن هناك مجموعة من المصادر التاريخية المتأخرة نقلت عن كتابات بعض المؤرخين المعاصرين الذين أوردوا فى مصنفاتهم معلومات تاريخية هامة عن المدينة المنورة.

ومن أهم هذه المصادر لتاريخ المدينة المنورة كتاب [التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة] لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى. ولد السخاوى بمصر سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧م وتوفى بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م. وهذا الكتاب يؤرخ للمدينة المنورة، منذ أن هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى عصر السخاوى. وأورد السخاوى فى كتابه

---

[١] المقريزى صاحب كتاب السلوك لمعرفة دولة المماليك، ٦ أجزاء فى ١٢ مجلد تحقيق كل من محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، أما العينى فصاحب عقد الجمان فى تواريخ أهل الزمان، وحقق منه أربع مجلدات.

معلومات تاريخية هامة عن الحوادث السياسية، التى جرت فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال تلك الفترة التاريخية الطويلة. وأثناء عرضه لهذه الحوادث ذكر السخاوى فى كتابه كثيراً من المعلومات التاريخية عن بعض مظاهر الأحوال الإقتصادية، والحياة الإجتماعية، والثقافية التى أفادت البحث كثيراً.

أما كتاب [وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى] للسمهودى المتوفى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م. فهو من المصادر الهامة لموضوع الرسالة. عالج فيه أيضاً السمهودى تاريخ المدينة المنورة منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها حتى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م. ورغم أن السمهودى من مؤرخى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا ان كتابه يعتبر من الكتب الهامة فى تاريخ المدينة قبل ذلك القرن. واستفاد البحث منه كثيراً عند دراسة النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية.

وأفاد البحث أيضاً من بعض الدراسات الحديثة وتأتى على رأس هذه الدراسات، وأهمها تلك الدراسة الممتازة التى قام بها الدكتور أحمد عمر الزيلعى ونشرها فى كتابه [مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١-٤٨٧هـ][١]. وتعتبر هذه الدراسة من أهم مراجع الرسالة، إذ ساعدت فى إلقاء أضواء جديدة على كثير من الموضوعات، التى تصديت لها بالبحث والدراسة.

ويلى ذلك فى الأهمية دراسة جادة قام بها الدكتور سليمان عبد الغنى مالكى، عنوانها [بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد من منتصف القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى[٢]. وقد تعرضت هذه الدراسة للحياة السياسية، والاقتصادية، والإجتماعية، والعلمية فى بلاد الحجاز لمدة ثلاثة قرون من الزمان.

---

[١] نشر عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
[٢] مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ومن الدراسات الحديثة المهمة التى إستفاد منها البحث، رغم إنها تتعرض لتاريخ مكة بصفة خاصة، والحجاز بصفة عامة فى عصر سلاطين المماليك كتاب الدكتور ريتشارد مورتيل وعنوانه [الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة فى العصر المملوكى][١]، وكتاب الدكتور على بن حسين السليمان، وعنوانه [العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك][٢]. فالكتاب الأول أمد الرسالة بمعلومات هامة عن الأحوال السياسية بمكة من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس الهجريين، كما كان الكتاب الثانى مفيداً عند دراسة الأحوال الإقتصادية والحياة الإجتماعية والعلمية فى مكة والمدينة.

ويحتوى موضوع الدراسة على مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة ملاحق شرحت فى المقدمة أهمية موضوع البحث، وأهم المشكلات التى واجهتنى، واستلزم المقام كتابة تمهيد للموضوع، وفيه تناولت تاريخ مكة والمدينة وواقعهما السياسى قبل قيام الخلافة الفاطمية فى مصر، من سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م إلى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م. وعرضت أهم الحوادث السياسية التى كان لها تأثير على المدينتين خلال الفترة التاريخية موضوع البحث، بما فيها ضعف الخلافة العباسية، مما كان له الأثر الكبير فى قيام بعض الحركات الإنفصالية مثل حركة القرامطة وغيرهم. وبينت فى التمهيد أحوال مكة والمدينة عندما نقل الفاطميون عاصمتهم من المغرب إلى مصر.

والفصل الأول عنوانه [حكم الأسرة الموسوية فى مكة ٣٥٨هـ-٤٥٤هـ/ ٩٦٨م -١٠٦٢م] ويحتوى على خمسة موضوعات، شرحت فى الموضوع الأول الطريقة التى استطاع بها محمد بن جعفر، أن يستقل بولاية مكة المكرمة. وبخاصة إتصاله بقائد المعز لدين الله الفاطمى بمصر، وإعلان الخطبة للخليفة المعز لدين الله على منابر مكة. ثم تناولت ولاية عيسى على مكة، ثم ولاية أبى الفتوح. كما قمت بدراسة موضوع عصيان أبى الفتوح للخلافة الفاطمية، واستقلاله بمكة وإعلانه الخلافة لنفسه، معتقداً أنه أحق بها دون غيره، مستنداً إلى مساعدة بعض القبائل العربية ببلاد الشام، ثم عودته بعد ذلك إلى

---

[١] نشر عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود بالرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
[٢] طبعة القاهرة، ١٩٧٣م.

حظيرة الخلافة الفاطميه وأسباب ذلك. ثم ألقيت أضواء جديدة على ولاية شكر بن أبى الفتوح الذى لم ينجب خلفاً له. وأوضحت أيضاً فى هذا الفصل كيفية إنتهاء حكم الأسرة الموسوية بمكة، عندما تولى ولاية مكة عبد من عبيد شكر بن أبى الفتوح، ثم إنتقال الولاية من بعده إلى الأشراف، وهم الهواشم سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م. وبينت أن حكام مكة من الموسويين خضعوا خضوعاً اسمياً للفاطميين، لا يتعدى الخطبة على منابر الحرمين الشريفين.

وشرحت فى الفصل الثانى وعنوانه [حكم الهواشم بمكة من سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م إلى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م]. الكيفية التى تم بها محمد بن جعفر الاستيلاء على أمارة مكة. ثم أوضحت كيفية دخول على بن محمد الصليحى صاحب اليمن إلى مكة المكرمة، وإقامته الخطبة للدولة الفاطمية، ثم عودته مرة أخرى إلى اليمن، وإنابته محمد بن جعفر فى ولاية مكة. وفى نهاية الفصل الثانى تناولت بالدراسة موضوع النزاع الأسرى بين الهواشم وأثر هذا النزاع فى إضعاف حكم الأشراف الهواشم.

أما الفصل الثالث فقد خصصته لدراسة [تاريخ بنى مهنا من الحسينيين فى المدينة المنورة من سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م إلى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م]. وأوضحت أن المدينة المنورة خضعت أيضاً للفاطميين خضوعاً لا يتعدى إقامة الخطبة على المنابر، بالاضافة إلى ذلك شرحت موضوع استقلال طاهر بن محمد الحسينى بحكم المدينة، وعلاقته بأمراء مكة، ثم أتبعت هذا بدراسة تاريخ خلفاء طاهر بن محمد، الذين تولوا حكم المدينة المنورة، وكذلك علاقتهم بأمراء مكة. وذلك حتى نهاية النفوذ الفاطمى لبلاد الحجاز سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م.

وخصصت الفصل الرابع لدراسة الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/العاشر والثانى عشر الميلاديين. بدأت هذا الفصل بدراسة العوامل التى أثرت فى الأحوال الإقتصادية فى مكة والمدينة وبخاصة العوامل المناخية والفتن والمنازعات، وكثرة وقلة أعداد



الحجاج، ومساعدات الفاطميين والعباسيين. ثم تكلمت عن الزراعة والرعى فى مكة والمدينة، ثم إنتقلت بعد ذلك إلى دراسة النشاط التجارى لمدن الحجاز، وبينت أن التجارة كانت من الحرف المفضلة لسكان مدن وموانىء الحجاز مما جعلهم يلعبون دوراً هاماً فى هذا المجال. وتحدثت عن أهم السلع والمتاجر الصادرة والواردة، وتطرقت بعد ذلك إلى اسواق مكة والمدينة والسلع الواردة إليها والصادرة منها، والنقود والمعاملات المالية، والمكوس والموارد المالية الأخرى. كذلك تطرقت فى هذا الفصل إلى إلقاء أضواء جديدة على أهم الموانىء الحجازية المرتبطة بمكة والمدينة فى تلك الفترة الزمنية، وأهم الحرف والصناعات.

أما الفصل الخامس فقد خصصته لدراسة [الحياة الإجتماعية فى مكة والمدينة]. وشرحت فى هذا الفصل أهم طبقات المجتمع الحجازى، ثم تكلمت عن العادات الإجتماعية والتقاليد التى كانت سائدة وقتذاك فى مكة والمدينة. كما ألقيت بعض الضوء على الجوانب العمرانية التى قام ببنائها بعض السلاطين والخلفاء والأغنياء فى تلك الفترة التاريخية موضوع البحث، والتى تمثلت فى إقامة مصانع المياة وحفر الآبار وبناء الأربطة وما إلى ذلك.

أما الفصل السادس والأخير من الرسالة فهو يبحث فى [الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين]. وألقى هذا الفصل الكثير من الأضواء على دور الحرمين الشريفين فى إزدهار الحياة العلمية والثقافية، والدور التعليمى والثقافى الذى قامت به حلقات التدريس فى المسجد الحرام فى مكة، والمسجد النبوى فى المدينة. ويبحث هذا الفصل أيضاً فى دور أئمة الحرم المكى ودور القضاة فى مكة والمدينة، ومشاهير العلماء والفقهاء والمجاورين فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة، وكان من الطبيعى الإشارة إلى مشاهير علماء وأدباء مكة والمدينة ونشاطهم العلمى والثقافى.

وتحتوى الخاتمة على [أهم النتائج التى توصل إليها البحث] وألحقت الرسالة ببعض الملاحق الخاصة بالمراسيم الصادرة عن الدولة الفاطمية بشأن الحرمين الشريفين، وقصيدة عمارة اليمنى المشهورة، وشجرة نسب أشراف مكة المكرمة، ثم ألحقت الرسالة بقائمة المصادر والمراجع.

وفى الختام لا يسعنى إلا أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى إلى المشرف على هذه الرسالة أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور محمد حمدى المناوى لما بذله معى من جهود مضنية طيلة مراحل البحث، ولما أبداه من توجيهات وإرشادات علمية، فلسعادته خالص الشكر وعظيم التقدير. كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى أساتذتى الأجلاء الذين أخذوا على عاتقهم فحص الرسالة، ومناقشتى فيها فجزاهم الله عنى خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر إلى كل من قدم لى يد المساعدة، وبخاصة المسؤولين عن مكتبة الحرم الشريف بمكة المكرمة، ومكتبات المدينة المنورة، واستنابول ودار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ومكتبة جامعة القاهرة، ومكتبة جامعة الاسكندرية، مكتبة جامعة عين شمس.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، فإن كنت قد وفقت فالحمد لله وحده، وإن كنت قد قصرت فالكمال لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والله ولى التوفيق ...

التمهيـــــــد

مكة والمدينة منذ سنة

٣٠٠-٣٥٨ هـ / ٩١٢-٩٦٨ م

وحتى إستيلاء الفاطميين على مصر

أتاحت الظروف السياسية للدولة العباسية منذ قيامها سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م بسط سيادتها على العالم الإسلامى وخاصة بلاد الحجاز، غير أن العلويين فى بلاد الحجاز كثيراً ما كانوا يثيرون الإضطرابات ضد العباسيين، فتصدى لهم خلفاء العصر العباسى الأول وقضوا على حركاتهم فضعف العلويون واستكانوا، وظل ولاة بنى العباس يتولون الحكم فى بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التى اثارها الأتراك فى أواخر القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى، عندئذ استغل العلويون هذه الفرصة ونجح محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن على بن ابى طالب وهو أحد أفراد الأسرة العلوية من طبقة الاشراف فى الاستقلال بإمارة مكة.[١]

وسرعان ما تغلب السليمانيون على إمارة مكة وأسسوا بها دولة لهم وخلع أميرهم محمد بن سليمان طاعة العباسيين، ودعا لنفسه بالإمامة فى عام ٣٠١هـ/٩١٤م أثناء خلافة المقتدر وذلك فى خطبة ألقاها على المسلمين فى موسم الحج من هذا العام وجاء فيها: "الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الايمان من المامه، وكمل دعوة خير الرسل باسباطه لابنى اعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وكف عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين".[٢]

وخلال حكم دولة السليمانيين أو بنى سليمان لمكة المكرمة تعرضت الأخيرة لأخطار من بينها خطر القرامطة[٣] فى بلاد البحرين فقد أرسل أبو

---

[١] أنظر ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص١١ وسرور سياسة الفاطميين الخارجية ص١٩.

[٢] الفاسى: العقد، ج٣، ص٤٢٩-٤٣٠، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٥، السباعى: تاريخ مكة، جـ١،ص١٦٧-١٦٨، سرور: سياسة الفاطميين، ص١٩-٢٠، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص٢١٩-٢٢٠.

[٣] القرامطة طائفة سياسية أتخذت الدعوة إلى امامه اسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحاً للوصول إلى ما تصبو إليه، وقد عرفت بهذا الإسم نسبة إلى أحد دعاتها وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال انه سمى قرمط لقصور قامته ورجليه. لمزيد من التفاصيل أنظر النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٥، ص١٨٧ وما يليها، سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٤١، هامش١.

طاهر القرمطى[١]. أحد جواسيسه إلى مكة المكرمة فى عام ٣١١هـ/٩٢٣م ليخبره بخروج القوافل من مكة وعودتها إلى بلادها. وعندما علم أبو طاهر القرمطى بخروج القوافل من مكة، أرسل من قام بعملية نهبها وسلبها[٢]. ولم يقف الأمر عند عملية النهب، بل تعداه إلى قتل بعض الحجاج العائدين إلى بلادهم رجالا ونساء، ثم استولوا على السبايا[٣]. وانقطع نتيجة لهذا حجاج العراق بسبب القرامطة[٤].

ثم توالت الأحداث فزحف أبو طاهر القرمطى أمير قرامطة البحرين على البصرة والكوفة، وتغلب على أهل هذه المدن ثم نهبهم[٥]. وكانت هذه الحادثة فى سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م فى عهد الخليفة المقتدر بالله العباسى[٦]. ثم اعترض القرمطى حجاج بيت الله الحرام وهم فى طريقهم إلى مكة المكرمة. وتبعاً لهذه الأعمال المنافية لقيم الإسلام، فقد عاد الحجاج إلى بلادهم، ولم يؤدوا فريضة الحج ذلك العام ٣١٣هـ/ ٩٢٥م[٧]. وفزع أهل مكة، وانتابهم الخوف، ورحل الكثير منهم إلى الطائف وما جاورها، حين بلغهم نبأ قدوم القرامطة إلى مكة. وفى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م هجم القرامطة على مكة المكرمة بقيادة زعيمهم أبى طاهر القرمطى. وكان الأمر فى مكة المكرمة بيد العلويين[٨].

---

[١] أبو طاهر سليمان الجنابى بن أبى سعيد الجنابى، وجنابه من ساحل فارس نشأ بها أبو سعيد، وكان رقاقاً فنفى عن جنابه، فخرج إلى البحرين، فأقام بها تاجراً، وجعل يستميل العرب إلى نحلته. فاستجاب له أهل البحرين وما والاها. وكذلك فعل بالقطيف ثم سار الجنابى إلى هجر. أنظر محمد طاهر كردى: التاريخ القويم، جـ٣، ص٣١٩-٣٢٠.

[٢] النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٥، ص٢٧٩-٢٨٠.

[٣] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٢، ص ٢٦٣، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٣٣-٢٣٥.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٧-٢٦٨.

[٥] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ١، ص٢٦٦.

[٦] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣١٣هـ: السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٨٣.

[٧] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣١٣هـ.

[٨] ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص١٤٧، ابن كثير: البداية، جـ١١، ص١٥٣، الديار بكرى: تاريخ الخميس، جـ٢، ص٢٤٩، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٣٣-٢٣٥.

دخل أبو طاهر القرمطى وجنوده مكة المكرمة يوم التروية سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م. وعدد جنده حوالى ستمائة فارس وتسعمائة راجل، واقتحموا المسجد الحرام بخيلهم وسلاحهم على غفلة. ولما كان العلويون فى ذلك الوقت يفتقرون إلى القوة لمواجهة هؤلاء الكفرة، فقد استباح القرامطة فى المسجد الحرام دماء المسلمين، ووضعوا السيوف على رقاب الطائفين بالبيت الحرام. ولم ينج من بطشهم المصلين والعاكفين والركع السجود، حيث قاموا بحصدهم حصداً، وتطايرت الرؤوس عن أجسادها، وبعضهم متعلق بالبيت الحرام[١].

وقتل هؤلاء الزنادقة فى المسجد الحرام وفى مكة وشعابها أعداداً كبيرة من الرجال والنساء والأولاد وخرج أمير مكة ابن مجلب فى جماعة من الاشراف إلى ابى طاهر وسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم وقتلهم جميعاً وطرح القتلى فى بئر زمزم[٢]. وقام الزنديق أبو طاهر بقلع باب الكعبة وقبة زمزم والحجر الأسود، وخلع كسوة الكعبة المشرفة، وقسمها بين أصحابه، ونهب دور مكة. وأقام الخطبة لعبيد الله المهدى الفاطمى بالمغرب، بدلا من الخليفة العباسى المقتدر، ثم عاد إلى الإحساء ومعه الحجر الأسود[٣]. ولم يكتف أبو طاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمى بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م إتاوة على حجاج بيت الله الحرام خمسة دنانير على كل جمل وسبعة دنانير على كل رجل، وهذه الأتاوة فى مقابل حماية الحاج والمحافظة على أرواحهم وكانت هذه أول مرة يفرض فيها المكس على الحجيج[٤]. وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الأعمال التى قام بها القرامطة، كانت دليلا قاطعاً على ضعف الدولة العباسية، وعدم قيامها بحماية رعاياها من الحجاج، وتأمين طريقهم إلى مكة المكرمة. لقد أصيبت الدولة العباسية بضعف أفقدها القدرة على حماية أقاليمها، وأظهر عدم قدرتها على درء خطر القرامطة على اقتصادياتها وتجارتها مع غيرها[٥].

---

[١] السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٨٣.

[٢] لمزيد من التفاصيل أنظر: النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٥،ص٢٩٧.

[٣] ابن إيبك الدوادارى، كنز الدرر، جـ٦، ص٩٣، السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٣، العصامى، سمط النجوم، جـ٤، ص ١٩٣-١٩٤.

[٤] الذهبى، تاريخ الاسلام، جـ١، ورقة ١١٠، السنجارى، منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٢-٢٥٣، العصامى، سمط النجوم، جـ٤، ص١٩٤. والمكوس هى الضرائب غير الشرعية.

[٥] أنظر القوصى: تجارة مصر، ص ٢٩-٣٠.

وحاول العباسيون استرداد الحجر الأسود من القرامطة، وعرضوا عليهم أن يدفعوا لهم ما يزيد عن خمسين ألف دينار ذهباً[١]. وقد تقدم بهذا العرض الخليفة المطيع بالله، الذى تولى الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م. ولكن القرامطة رفضوا هذا العرض، إذ كانوا يهدفون إلى إضعاف هيبة الخلافة العباسية أمام العالم الاسلامى ليمهدوا السبيل أمام أنصارهم الفاطميين.

كما أن ذلك الرفض يقدم دليلا واضحا على مدى خضوع القرامطة فى بلاد البحرين لسلطان الفاطميين[٢].

ولابد هنا من أن نذكر أن القرامطة أغاروا على مكة المكرمة وعملوا فيها السلب والنهب والقتل بدافع التقرب إلى أنصارهم من الفاطميين بدليل انهم أقاموا الخطبة لهم ورفضوا عرض العباسيين من أجل رد الحجر الأسود. ولا عجب فى ذلك فقد كان القرامطة شيعة اسماعيلية، وكانوا ينفذون أوامر المدعى العبيدى ويتبعون توجيهاته[٣]. وذلك يعكس حذر عبيد الله المهدى وإدراكه لردود الفعل الغاضبة فى العالم الاسلامى، كما يعكس محاولته استنكار هذا العمل، بل وأظهر استيائه من الأحداث التى إرتكبها أبو طاهر فى هذا البلد المقدس، وأرسل إلى أبو طاهر يعاتبه على هذه الفعلة الشنعاء ويلعنه لما أرتكبه من جرم فى حق الإسلام والمسلمين وبيت الله الحرام ويطلب منه إعادة الحجر الأسود[٤].

---

[١] السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣٨٣.

[٢] أنظر النويرى، نهاية الأرب، جـ٢٥، ص١٩١ وما يليها.

[٣] أنظر: العصامى: سمط النجوم العوالى، جـ٤، ص١٩٣-١٩٤. ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ١، ص ٢٠١، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٢١٧هـ: السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٤٧-٢٤٨، الذهبى: تاريخ الإسلام، ج١، ورقة ١٩١، ١٩٢، الفاسى تحفة الكرام، ورقة ٤٢، ابن إيبك الدوادارى: كنز الدرر، جـ٦،ص٩٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص ٣٠٤-٣٠٥، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٣٧٤-٣٧٥.

[٤] المنتظم، جـ٦، ص ٣٦٧.

وقد أورد ابن الجوزى فى المنتظم[١] أيضاً كتاب القرامطة ورد فيه "أنهم ردوا الحجر الأسود بأمر من اختروه بأمره"، كذلك أكد ابن خلدون أنهم قد حملوه بأمر عبيد الله المهدى "وانهم قد ردوه بأمره أو بأمر خليفة"[٢] وذلك برغم محاولات الخليفة الفاطمى ابعاد التهمة عن نفسه وقد لبى القرامطة طلب الخليفة الفاطمى وقاموا برد الحجر الأسود.

ففى يوم النحر من سنة ٣٣٩هـ/٩٥١م أتى سنبر بن حسن القرمطى إلى مكة حاملا معه الحجر الأسود، فلما سار إلى فناء الكعبة ومعه أمير مكة أظهر الحجر الأسود، ومعه جص ليشد به الحجر الأسود. ثم قام سنبر بوضع الحجر الأسود فى مكانه قائلا: "أخذناه بقدرة الله تعالى ورددناه بمشيئته سبحانه وتعالى وقد ظل الحجر الأسود فى حوزة القرامطة اثنتين وعشرين سنة[٣].

وسرعان ما عادت سيادة العباسيين مرة أخرى على مكة فقد استغل العباسيون فرصة إنشغال القرامطة عنها بالعمل على تحقيق اطماعهم فى بلاد الشرق وأعادوا نفوذهم اليها مرة اخرى، واقيمت الخطبة فيها للخليفة الراضى بن المقتدر سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، وأسند هذا الخليفة ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طفج الأخشيد والى مصر من قبله[٤].

---

[١] ابن خلدون: العبر، جـ٧، ص١٩١-١٩٣.

[٢] سرور، سياسة الفاطميين، ص٤٦-٤٧.

[٣] العصامى: سمط النجوم العوالى، جـ٤، ص١٩٤، القطبى: أعلام العلماء، جـ١، ص٨٩، محمد طاهر الكردى: التاريخ القويم، جـ٣، ص ٣١٤.

[٤] لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص١٠٠، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٢٣، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٧، ص١٠-١٤، سرور، سياسة الفاطميين ص٢٠-٢١.

وتنافس الإخشيديون فى مصر، والبويهيون[١] فى العراق للحصول على شرف السيادة على الحجاز، خاصة بعد أن استولى بنو بويه على بغداد فى عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٩م وشاركوا العباسيين بالتالى السيادة على العالم الاسلامى وخاصة بلاد الحجاز فقد خطب على منابرها للخليفة العباسى المطيع مع معز الدولة ابن بويه، ولذلك سعى بنو بويه من أجل ألا يكون للأخشيديين أى نفوذ فى بلاد الحجاز[٢].

وذكر المؤرخون بعض الوقائع التى تؤكد هذه الحقيقة. فحين خرج الحجاج لأداء فريضة الحج سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م. أشعلت نار الفتنة بين الركب العراقى الذى يخضع للبويهيين، والركب المصرى الذى قدم من الإخشيديين.

ونتيجة لهذه الفتنة دار القتال بين الفريقين، وانتهى بإنتصار الركب العراقى على المصرى، وأقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه. وقد وقعت هذه الحادثة قبل أن يبدأ الحجاج فى أداء الفريضة. وبعد إنتهاء الفريضة وقع إختلاف بين الفريقين على من تقام الخطبة له فى المسجد الحرام وبقية المساجد، وأدى هذا الإختلاف إلى نشوب معركة إنتهت بإنتصار بنى بويه مرة أخرى [٣].

---

[١] ينسب البويهيون إلى أبى شجاع بويه الذى يدعى أنه من سلالة آل ساسان ملوك الفرس وكان رئيساً لقبيلة من الديلم تسكن فى جنوب بحر قزوين وتحترف الجندية. وقد عمل البويهيون فى جيش الدولة السامانية، وكان بنو بويه يدينون بمذهب الشيعة لذلك كانوا يعتقدون أن العباسيين قد إغتصبوا الخلافة من العلويين. أنظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص١٦٢.

[٢] أنظر ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص٢٣، وسرور، سياسة الفاطميين، ص٢٠-٢١.

[٣] الفاسى، تحفة الكرام، ورقة ١١٦-١١٧، العقد الثمين، جـ١، ص١٨٥-١٨٦، ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٢، ص ١٥٨، ابن كثير: البداية، جـ١١، ص٢٢٥-٢٢٧، القلقشندى: صبح الأعشى: جـ٤، ص٢٦٨-٢٦٩: الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٤٢-٢٤٣، العصامى: سمط النجوم، جـ٤، ص١٩٤.

وعلى الرغم من إنتصار البويهيين فإن النفوذ الإخشيدى، لم يقض عليه تماماً فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقد أعقب هذه الفتنة أن الخليفة العباسى المطيع بالله أصدر قراراً بتوليه كافور الأخشيدى ولاية بلاد الحجاز، بالاضافة إلى ولايته لمصر والشام. وأصبح الدعاء لكافور الإخشيدى على منابر مكة والمدينة مدة ولايته[١]. وكان على ولاية مكة والمدينة فى هذه الفترة بنو الحسين فى مكة المكرمة وبنو الحسين فى المدينة المنورة. وكان كل من البيتين يريد الزعامة لنفسه على الحرمين الشريفين، فدب الخلاف بينهما، ودارت معارك طاحنة بين بنى الحسن وبنى الحسين[٢]. ولم يتدخل العباسيون فى هذا النزاع الداخلى.

وبلغت أخبار هذا النزاع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى بلاد المغرب فوضع خطة ناجحة فى أمور بلاد الحجاز، لأن الفاطميين - منذ أن قامت دولتهم فى بلاد المغرب - رأوا أن تكون السيادة فى مكة والمدينة لهم دون منافسيهم من العباسيين. فأرسل المعز لدين الله الفاطمى من بلاد المغرب سراً إلى كل من الطرفين المتنازعين الأموال والهدايا والعطايا، وأرسل بعض رجاله للتوفيق بين الطرفين، ونجح المعز ورجاله فى عقد الصلح بين بنى الحسن وبنى الحسين فى المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م. وقام الخليفة الفاطمى بدفع دية القتلى إلى بنى الحسن[٣]. ولقد كان لهذا الموقف أثره الطيب على ولاة مكة والمدينة، مما أكسب المعز مكانة عظيمة لدى أتباع الفريقين وأهل الحرمين الشريفين.

ورغم هذا الموقف الطيب من الخليفة الفاطمى، فإن الدعاء كان على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة للإخشيديين فى مصر، مع أن ولايتهم على الحرمين الشريفين كانت ولاية اسميه. واستمرت الخطبة تقام لكافور الإخشيدى إلى حين وفاته سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م ثم من خلفه من الإخشيديين[٤]. وليس

[١] أنظر: أبو الفدا، المختصر، جـ٣، ص١٠٧، أنظر أيضاً سرور، سياسة الفاطميين، ص٢١.

[٢] العصامى: سمط النجوم، جـ٤، ص١٩٥.

[٣] المقريزى: الخطط، ص٣٥٣، سرور: سياسة الفاطميين، ص ٢٣-٢٤.

[٤] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٢٢، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٣-١٩٤.

هناك ما يدل على أن كافور تدخل فى شئون مكة، أو أناب بها أحداً يتولى أمرها نيابة عنه، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من الإخشيديين[١].

وفى خضم هذه الأحداث إستولى محمد بن جعفر بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون على ولاية مكة المكرمة. وذلك فى نهاية حكم كافور الإخشيدى على مصر والشام ٣٥٦هـ/٩٦٦م[٢] وسرعان ما دب الضعف فى الدولة الإخشيدية، وبدأت تنكمش إنكماشاً ظاهراً. الأمر الذى إنتهزه المعز لدين الله الفاطمى. فأرسل جيشاً كبيراً تحت قيادة قائده جوهر الصقلى لفتح مصر فى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م[٣].

وبعد أن تمكن الفاطميون من فتح مصر سارع محمد بن جعفر بالخطبة للمعز الفاطمى ، وأعلن تبعية مكة للخلافة الفاطمية. ويبدو أن محمد بن جعفر رأى الإنضمام إلى الفاطميين لظروف إقتصادية وأخرى سياسية سيتحقق لمكة من ورائها الدعم الاقتصادى والاستقلال الذاتى فى ظل النظام الجديد فى مصر[٤].

وعلى هذا يبدأ منذ الفتح الفاطمى لمصر ٣٥٨هـ/٩٦٨م الإتصال الفعلى بين أمراء الحجاز وبين الدولة الفاطمية فى مصر.

---

[١] أنظر: ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ط-الرياض١٩٨٥م ص١٤

[٢] لمزيد من التفاصيل أنظر مايلى فى الفصل الأول.

[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٣-١٩٤ أنظر أيضاً ابن تعزى بردى: النجوم، جـ٤، ص٢٨-٣٥.

[٤] أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية [٣٠١-٤٨٧هـ]، ص٤٢، سليمان مالكى: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، ص٣٠.

الفصل الأول

حكم الأسرة الموسوية بمكة المكرمة
سنة ٣٥٨-٤٥٤هـ/٩٦٨-١٠٦٢م

* إستقلال أبو محمد جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م والدعوة للفاطميين.

* ولاية عيسى بن جعفر [٣٧٠-٣٨٤هـ/٩٨٠-٩٩٤م]

* أبو الفتوح حسن بن جعفر وادعاؤه الخلافة.
[٤٠٣-٤٣٠هـ/٩٩٦-١٠٣٩م]

* شكر بن أبي الفتوح [٤٣٠-٤٥٤هـ/١٠٣٨-١٠٦٢م]
وسقوط الأسرة الموسوية.

إستقلال أبو محمد جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بحكم مكة المكرمة ٣٥٨هـ/٩٦٨م[١] والدعوة للفاطميين

تطلع الفاطميون إلى بلاد الحجاز قبيل قدومهم إلى مصر وفتحها فى عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وقد ظهر بجلاء منذ عام ٣١٧هـ/٩٢٩م حيث خرج القرامطة فى بلاد البحرين إلى مكة ونجح أبو طاهر القرمطى فى إنتزاع الحجر الأسود والإستيلاء عليها بإيجاز منهم[٢] وبدأ الإهتمام الفعلى للفاطميين ببلاد الحجاز منذ عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فقد تدخل هذا الخليفة لحسم النزاع والخلاف الذى وقع بين بنى الحسن وبنى الحسين فأرسل اليهم سراً مالا ورجالا سعوا بين الفريقين وعقدوا بينهم صلحاً فى المسجد الحرام، وقام رسل الخليفة المعز الفاطمى بأداء دية قتلى بن الحسن سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م[٣].

وكان الفاطميون يهدفون من وراء ذلك إلى بسط نفوذهم وسيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز، دون منافسيهم من العباسيين، وذلك ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى وليضعفوا من شأن الخلافة العباسية، فمن المعروف أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة[٤].

[١] عن قيام الأسرة الموسوية: أنظر أحمد عمر الزيلعى، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٣٩-٦١.

[٢] أنظر ما سبق، ص ١٥ - ١٩.

[٣] المقريزى، اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٦٥-٦٦، الخطط، ص٣٠٣، العصامى، سمط النجوم العوالى، جـ٤، ص١٩٥، أدم متز، الحضارة الاسلامية، ص٤-٥، سرور، سياسة الفاطميين، ص٢٣-٢٤.

[٤] سرور، سياسة الفاطميين، ص٢٣، عائشة عبد الله باقاسى، بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى، ص١٩.

وعندما أتم جوهر الصقلي فتح مصر تمكن الأمير محمد بن جعفر[١] في نفس العام ٣٥٨هـ/٩٦٨م من الإستيلاء على مقاليد الحكم في مكة المكرمة، وقام هذا الأمير بالدعوة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله على منابر مكة المكرمة[٢].

ومن هنا بدأ أول إتصال سياسي بين أمير مكة الجديد محمد بن جعفر الحسني الموسوي وبين جوهر الصقلي "قائد المعز لدين الله الفاطمي في مصر" وأخبره بأنه قد أقام الخطبة للمعز في بلاد الحجاز، فما كان من القائد [جوهر] إلا أن أسرع بإرسال كتاب إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في بلاد المغرب، يخبره فيه بأنه قد تم إقامة الخطبة للمعز في بلاد الحجاز على يد الأمير محمد بن جعفر الحسني، وقطع الخطبة للخليفة العباسي[٣]. ولا تذكر المصادر التاريخية أية معلومات تفيد بأن القائد جوهر الصقلي أو أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد أرسل إلى مكة أو المدينة جيشاً، كما أرسل إلى بلاد الشام فيما بعد، لتوسيع أملاك الدولة الفاطمية، بعد أن أصبحت القاهرة عاصمة لها[٤].

---

[١] ينتسب الأمير الحسن بن جعفر الحسني إلى أولاد موسى أو الموسويين الذي ينتهي نسبهم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، وهو الحسين بن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون، أنظر: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٤٦-٤٧، ابن خلدون: تاريخ جـ٤، ص٩٩-١٠٠، وأنظر ما سبق عن ولاية جعفر الموسوي لامارة مكة، ص ٢٨.

[٢] الفاسي: شفاء الغرا، جـ٢، ص١٩٣-١٩٤، العقد الثمين، جـ٣، ص٤٢٩-٤٣٠، أنظر: ايضاً ابن دحلان، خلاصة الكلام، ص١٦.

[٣] الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤، ابن فهد: أتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٨-٢٦٩، المقريزي: المواعظ والاعتبار، جـ١، ص ٣٥٤، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٥٣-٥٤، أنظر أيضاً الصناوي: الوزارة، ص٢١٠-٢١١، محمد سالم العوفي: العلاقات السياسية، ص٢٠٩-٢١٠، عبد المنعم ماجد: المستنصر، ص١١٦.

[٤] حسن ابراهيم وطه شرف: المعز لدين الله، ص١٦٥-١٦٦.

وعندما وصلت للخليفة المعز لدين الله الفاطمى رسالة قائده جوهر الصقلى، يخبره فيها بأن الخطبة قد أقيمت له فى مكة المكرمة على يد أميرها محمد بن جعفر الحسنى، فلم يجد الخليفة خبراً يسعده أكثر من هذا الخبر، فأسرع وأنفذ مرسوماً إلى الأمير محمد بن جعفر الحسنى، مقلداً إياه مكة المكرمة وأعمالها تقديراً له لما قام به نحوه[١].

ومنذ ذلك الوقت أخذ الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يعمل على تعزيز نفوذه فى مكة والمدينة، فأرسل إليها فى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م عسكراً وأحمالا، محملة بالأموال عدتها عشرون حملا، وعدة أحمال متاع[٢].

غير أن هذا النفوذ لم يدم طويلا، حيث إن الخلافة العباسية بدأت تستعيد قواها مرة أخرى، عندما أحست بالنفوذ الفاطمى المنافس يأخذ طريقه إلى العالم الإسلامى، وبخاصة فى مكة المكرمة، لذا نافس العباسيون الفاطميين منافسة شديدة على إقامة الخطبة لهم على منابر الحرمين الشريفين. ففى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م قطع أمير مكة المكرمة محمد بن جعفر الحسنى الخطبة للخليفة الفاطمى المعز من على منابر مكة، وأمر بالخطبة للخليفة العباسى المطيع لله، وكذلك للقرامطة[٣]||

---

[١] بن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٨-٤١٠، السنجارى: منائح الكرم: جـ١، ورقة ٢٥٧-٢٥٨، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٦، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٤-٢٥، مصر فى عصر الفاطميين، ص ١٣٠-١٣١، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٣٣٧-٣٣٨، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص٢٢٠-٢٢١.

[٢] سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٤-٢٥، النفوذ الفاطمى، ص١٥-١٦، الزيلعى، مكة وعلاقتها الخارجية، ص٤٢، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٣٧-٢٣٨: العوفى: العلاقات السياسية، ص٥٦-٥٧.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٥٣، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٢٤٠، أبو الفداء: المنتصر، جـ٢، ص١١١، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٥٩، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧، الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص١٨٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص٢٦٨، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٥، السباعى، تاريخ مكة، ص١٩٤-١٩٥، أنظر أيضا رتشارد موريتل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ص١٦.

وترجع إقامة الخطبة للخليفة العباسى المطيع لله فى هذا العام إلى انه ترأس الركب العراقى لحج بيت الله الحرام أبو أحمد الحسين بن موسى، والد الشريف الرضى[١]. واستفاد العباسيون من نسبته إلى العلويين ونجحوا بذلك فى إقامة الخطبة بمكة المكرمة للخليفة العباسى المطيع لله، ونصب أبو أحمد الحسين نقيب الطالبين الأعلام التى حملها معه من بغداد وعليها اسم الخليفة العباسى المطيع لله[٢].

أما عن القرامطة فقد تحولت فى ذلك الحين سياستهم تجاه الفاطميين وإنحازوا إلى جانب العباسيين خاصة فى عهد الحسن بن أحمد الملقب بالأعصم والذى آلت اليه إمارة البحرين بعد وفاة أبيه أحمد بن سعيد شقيق أبى طاهر القرمطى وذلك فى عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م إذ لم يلبث الحسن أن أصبح محارباً للفاطميين راغباً رغبة أكيدة فى القضاء عليهم ويرجع ذلك إلى أن القائد الفاطمى جعفر بن فلاح - الذى نجح فى الإستيلاء على دمشق من أيدى الأخشيديين - رفض أن يدفع له الضريبة الكبيرة التى كان يؤديها الأخشيديون للقرامطة قبل مجىء ابن فلاح، كما أن الخليفة الفاطمى المعز حاول تحريض أبناء عمومه الحسن من أسرة أبى طاهر على المطالبة بأحقيتهم فى عرش القرامطة، لذلك قلب الحسن منذ ذلك الحين للفاطميين ظهر المجن وعمل على إضعاف شأنهم وحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة فى بلاد البحرين، وأقام الخطبة للخليفة العباس المطيع لله[٣].

---

[١] الفاسى، تحفة الكرام، ورقة ١١٦-١١٧، الذهبى، تاريخ الاسلام، ورقة ٢٤١، ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص٤٠.

[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٥٣، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٠، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٥٩هـ أبو الفدا: المختصر، جـ٢، ص١١١، ابن كثير: البداية، جـ١١، ص ٢٦٨، ابن فهد: أتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧، الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص١٥٨-١٨٦، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٤-٢٤٥، الزيلعى، مكة وعلاقاتها الخارجية ص٤٣-٤٤.

نقيب الطالبيين: اى متولى نقابة الأشراف الطالبيين، وهى من الطوائف الهامة لا يتولاها إلا من شيوخ الأشراف وأجلهم قدراً وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد أخذ باثبات نسبه، وعليه أن يعود مرضاهم، ويمشى فى جنائزهم، ويسعى فى حوائجهم، ويأخذ على يد المعتدى منهم، ويمنعه من الاعتداء، ولا يقطع أمراً من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك. أنظر القلقشندى/صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٨١-٤٨٢، وذكر القلقشندى أيضاً [صبح الأعشى]، جـ٤، ص٣٧ أن المراد بالأشراف ولد على بن أبى طالب كرم الله وجه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنظر أيضاً: محمد قنديل البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ط القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣٥١.

[٣] لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن خلدون، العبد، جـ٤، ص٩٠، سرور، سياسة الفاطميين، ص٤٨-٤٩، ص ١٢٣-١٢٦، والنفوذ الفاطمى، ص٢٥-٢٦.

وإستمرت الخطبة تقام للعباسيين على منابر مكة والمدينة حتى عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م وحتى قدوم الخليفة الفاطمى المعز إلى مصر فى هذا العام. ويرجع ذلك إلى إنشغال الفاطميين فى مصر بصد هجمات القرامطة إذ اشتبك الحسن بن أحمد القرمطى مع القوات الفاطمية أولا فى بلاد الشام ونجح فى هزيمة قائدها جعفر بن فلاح وقتله وكثير من أتباعه فى عام ٣٦٠هـ/٩٧١م وتمكن من الاستيلاء على دمشق، وأقام الدعوة فى مساجدها للخليفة العباسى المطيع لله، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة، وبعد أن آلت إليه معظم مدن الشام ولى وجهه شطر مصر ونجح فى الاستيلاء على مدينة عين شمس وتقدم نحو القاهرة فى عام ٣٦١هـ/٩٧٢م غير أن جوهر تمكن من صده عنها وعاد الحسن بن أحمد إلى الإحساء[١].

وليس أدل على استمرار الخطبة للخليفة العباسى المطيع لله على منابر مكة مما رواه ابن فهد فى حوادث سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م من أن حرباً قامت بين أهل مكة المكرمة من بنى الحسن، وبين أهل المدينة المنورة من بنى الحسين، وجاء بنو الحسين برفقة أمراء المعز لدين الله الفاطمى لإقامة الخطبة له فى مكة المكرمة بعد أن أقاموها له فى المدينة للفاطميين، غير أن القرامطة جاءوا لنصرة بنى الحسن من أهل مكة، وبذلك إنهزم أهل المدينة[٢] وكان تدخل القرامطة لنصرة أهل مكة هنا طبيعياً خاصة بعد أن خطبوا للخليفة العباسى المطيع لله فى بلاد البحرين وحذفوا اسم الخليفة الفاطمى المعز وغيروا سياستهم تجاه الدولة الفاطمية[٣].

وما أن قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر واستقر بها فى عام ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م حتى وجه أنظاره أولا نحو التخلص من خطر القرامطة، ونجح فى التصدى لهم واسترد منهم بلاد الشام وحال بينهم وبين مهاجمة مصر[٤]. وعندئذ راح المعز لدين الله يستغل استبداد بنى بويه بالسلطة فى بغداد ومحاولتهم اضعاف نفوذ الخلفاء العباسيين والاستئثار بالحكم[٥].

[١] لمزيد من التفاصيل أنظر: المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٧٨-١٧٩، سرور، سياسة الفاطميين، ص١٢٦-١٢٧.

[٢] ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٨-٤٠٩.

[٣] أنظر ما سبق ص٤١-٤٢.

[٤] لمزيد من التفاصيل أنظر: سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٢ وما يليها.

[٥] لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ٦، ص٣٠٧-٣٠٨، ابن الاثير، جـ٨، ص٢٢٢ وأنظر أيضاً بدر عبد الرحمن محمد، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الاسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٤٢-٤٣.

وأرسل المعز دعاته إلى مكة المكرمة لنشر الدعوة الفاطمية هناك[١]. ورغبة فى التودد إلى أمير مكة والتقرب إليه وضمان ولائه أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى موسم الحج لعامم ٣٦٢هـ/٩٧٢م مع أمير الحاج أموالا كثيرة[٢]. وقد ترتب على ذلك أن أقيمت الخطبة للفاطميين على منابر مكة المكرمة فى هذا العام.

واستمرت الخطبة تقام للفاطميين دون العباسيين حتى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٢م[٣]. وذكر ابن فهد فى كتابه - اتحاف الورى فى حوادث سنة ٣٦٣هـ/٩٧٢م. ونقل عنه الجزيرى أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى حرض بنى هلال[٤] وغيرهم من القبائل العربية على الاعتداء على الركب العراقى أثناء موسم الحج. ونفذ بنو هلال ما كلفوا به، فقتل من الحجاج العراقيين عدد كبير على يد بنى هلال، وبعض القبائل العربية الأخرى. واستطاع الفارون من الركب العراقى الهروب، فضاق عليهم الوقت إلا القليل، الذى واصل أداء فريضة الحج مع الشريف أبى أحمد الحسين بن موسى نقيب الطالبيين، وذلك عن طريق المدينة المنورة[٥]. ويعكس هذا الحادث الطبيعة العدوانية لبعض القبائل العربية المجاورة لمكة، التى استغلت جو المنافسة بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وتردد أمير مكة بينهما، وعجزه أحياناً عن الوقوف بصلابة بجانب أحدهما ضد الآخر. فقامت هذه القبائل بنهب الحجيج وسط جو التنافس السائد بين القوتين اللتين تنازعتا السيادة على مكة والمدينة.

---

[١] الزيلعى، مكة، ص٤٤، ابراهيم الشريقى، التاريخ الاسلامى خلال أربعة عشر قرناً، ص١٧٤، أمينة البيطار، موقف أمراء العرب، ص٢٩٧-٢٩٨.

[٢] ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم،جـ٧، ص٧٥، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٤٤، الذهبى: تاريخ الإسلام، ورقة ٢٤٣، الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص١٨٥-١٨٦، السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٤٠٦.

[٤] وبنو هلال: كانت مواطنهم بنجد فيما بين الطائف وجبل غزوان، وكان لبنى هلال أيامها فى الجاهلية كيوم الفجار الثانى كما كانت لهم صلة طيبة بقريش قبل الاسلام وبعده، وتزوج النبى صلى الله عليه وسلم من بنى هلال أم المؤمنين ميمونة وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة. وكان موقفهم من الاسلام موقفاً متعارضاً فى بداية الأمر، فرغم أن بعضهم دخل الإسلام قبل فتح مكة إلا أن بعضهم اشترك ضد المسلمين فى غزوة حنين سنة ٨ هـ. واشترك بنو هلال مثل غيرهم من قبائل العرب فى حركة الفتوح الإسلامية. واستقر الكثيرون منهم مثل غيرهم فى الأقاليم المفتوحة ولاسيما فى الشام ومصر. أنظر فائزة سجينى: غزوة بنى هلال وسليم للمغرب، رسالة ماجستير لم تنشر ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى سنة ١٤٠١هـ، ص٣٦-٤١.

[٥] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٠، أنظر أيضاً الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٥-٢٤٦، الزيلعى: مكة، ص٤٤.

وظلت الخطبة تقام للخليفة الفاطمى فى مكة المكرمة إلى سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م. فيذكر المقريزى أنه وصل إلى مصر سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م وفد من أشراف الحجاز غيرهم، فأغدق عليهم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله مبلغاً كبيراً، قدره أربعمائة ألف درهم[١]. وبعث كذلك إلى مكة بالأموال والنفقة والكسوة للكعبة المشرفة[٢]. وأضاف المقريزى أيضاً: أنه دعى للخليفة المعز فى موسم تلك السنة [٣٦٤هـ/ ٩٧٤م] فى مكة المكرمة والمدينة المنورة معاً[٣].

وهكذا استمرت مظاهر السيادة للفاطميين بمكة بسبب تعميق الصلة بين الفاطميين وبين أمير مكة، لاستمرار الخليفة الفاطمى سياسة العطاء، والهبات لأشراف مكة المكرمة[٤].

ولما آلت الخلافة الفاطمية فى مصر إلى العزيز بالله: بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، تولى إمارة الحج بالناس أبو منصور محمد بن عمر بن يحى العلوى. ولم يحج أحد من أهل العراق فى تلك السنة، وذلك لإضطراب البلاد[٥]. واستمرت الخطبة تقام للخليفة الفاطمى من منابر مكة المكرمة. حتى إنقطعت فى سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م نتيجة هجوم القرامطة على مصر والشام.

---

[١] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢١٦-٢١٧، أنظر أيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٢٨٠.

[٢] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٢٢.

[٣] المصدر السابق جـ١ ص ٢٢٥-٢٣٠، أنظر أيضاً ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ص١٧.

[٤] أنظر السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٤٠٧، ابن اياس: بدائع الزهور، جـ١، ص٣٧، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٥٦.

[٥] أنظر: ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٢، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦.

فقد استغلت الخلافة العباسية انهماك الدولة الفاطمية لصد هجوم القرامطة، واعادت الخطبة لها مرة أخرى إلى مكة المكرمة. فقد وصل فى موسم تلك السنة ٣٦٦/٩٧٦م إلى الحجاز أبو عبد الله أحمد بن أبى الحسين العلوى من قبل الخليفة العباسى الطائع ببغداد، وقد استقبله أمير مكة، ورحب به، وتمت إقامة الخطبة له، وبذلك إنقطعت خطبة الفاطميين من منابر بلاد الحجاز[١].

ويرى البعض أن أسباب هذا التحول فى علاقات مكة تجاه العباسيين غير معروفة ويعتبر ذلك خروجاً على السياسة الدينية التى اتبعها الخليفة المعز فى مكة، وتشديد قبضته عليها من الوجهة السياسية، لذلك رأى أمير مكة أنه بموالاته للجانب الضعيف أى العباسيين، ربما سيحقق بعض المكاسب السياسية والاقتصادية فى الدعم والاستقلال، فضلا عن الحرية المذهبية بعيداً عن مذهب الفاطميين[٢].

ولما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة الفاطمى العزيز بالله، أرسل جيش كبير إلى بلاد الحجاز، أواخر سنة ٣٦٦/٩٧٦-٩٧٧م، وقد فرض هذا الجيش حصاراً شديداً على مكة المكرمة والمدينة المنورة[٣]. وفى أثناء هذا الحصار منع عن مقيمى مكة الطعام، وتحكم الجيش الفاطمى فى أقواتهم، فغلت الأسعار بها، ولقى أهلها عنتاً شديداً، واستمر الجيش محاصراً لها حتى تمكن من دخول مكة المكرمة، وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى العزيز بالله. وتوقفت تبعاً لذلك الخطبة للخليفة الطائع لأمر الله العباسى[٤].

[١] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦، سرور: مصر فى عصر الفاطميين، ص١٣١-١٣٢، النفوذ الفاطمى، ص١٥-١٦، سياسة الفاطميين، ص٢٤-٢٥، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٣٧-٢٣٨.

[٢] أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٥.

[٣] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، السنجارى، مناهج الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٤-٢٥٥، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦.

[٤] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٣٨، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٦٦، الفاسى: العقد الثمين،جـ١،ص١٨٥-١٨٦، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٥٥.

ولم يستمر الحال على هذا طويلا، فعندما انغمس الفاطميون فى الفتن والإضطرابات الداخلية، عادت الخطبة مرة أخرى للخليفة العباسى، ولذلك أرسل الفاطميون فى سنة ٣٦٧./٩٧٧م جيش بقيادة أحد المغاربة وهو "باديس بن زيرى الصنهاجى"، الذى ولى أيضاً الأمارة على الحجاج المصريين[٢]. وهزم الجيش الفاطمى قوات أمير مكة المكرمة، الذى هرب إلى البادية، وأستولى باديس على الحجاز، وأعاد الخطبة والدعاء للخليفة العزيز بالله الفاطمى على منابر مكة[٢]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الحسن بن أحمد القرمطى توفى فى نفس العام ٣٦٧./٩٧٧م وقامت خلافات داخلية بين قرامطة البحرين كما انهم أنكروا سياسته العدائية للفاطميين ومبايعته للخليفة العباسى وأعلنوا ولائهم من جديد للفاطميين مما كان عوناً للفاطميين على إعادة الخطبة لأنفسهم على منابر مكة[٣]. وذكرت المصادر التاريخية فى حوادث سنة ٣٦٧./ ٩٧٧م، أنه بعد أن أعاد الأمير باديس بن زيرى الصنهاجى إلى مكة المكرمة الخطبة لمولاه العزيز، اجتمع اليه اللصوص بها، وطلبوا منه أن يضمنهم موسم ذلك العام فى الحج بخمسين ألف درهم، وأن يتركهم وشأنهم، أى يدفعوا إليه خمسين ألف درهم مقابل أن يتركهم وشأنهم فى نهب حجاج بيت الله الحرام. وأظهر الأمير باديس الصنهاجى لهم الموافقة على تحقيق رغبتهم، وطلب منهم الإجتماع معه بشرط أن يحضر الجميع هذا الإجتماع، ليضمنهم، ولم يظهر أمامهم نيته فأجابوه إلى رغبته، واجتمعوا عنده، وكان عددهم حوالى بضعة وثلاثين لصاً. وبعد أن تأكد أنهم لم يبق منهم أحداً، أمر بالقبض عليهم - وهم عنده - وأصدر قراره بقطع أيديهم جميعاً[٤]. وهكذا ظهر الفاطميون فى مكة على أنهم حماة حجاج بيت الله الحرام من شر اللصوص، وقطاع الطرق، وأنهم جديرون بحماية الحرم الشريف، والوافدين إليه.

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٤-٤١٦، الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧-١١٨، سليمان المالكى: بلاد الحجاز، ص٦٨، وباديس بن زيرى الصنهاجى هو: أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الحميرى الصنهاجى، تولى ولاية افريقية نيابة عن الخليفة الفاطمى، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م. أنظر خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٢٦٥-٢٦٦.

[٢] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١: الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦-٢٤٧، القوصى: تجارة مصر، ص١١١-١١٢، عبد الرحمن الرافعى وسعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى، ص٢١٨.

[٣] لمزيد من التفاصيل، أنظر: ابن الأثير، جـ٨، ص٢٢٨، ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص٩١، سرور، سياسة الفاطميين، ص٥٢.

[٤] ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٩٣، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٦٧هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٤-٤١٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٢٩١، الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧-١١٨، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦-٢٤٧.

ولما عادت الحملة العسكرية الفاطمية من مكة المكرمة إلى مصر، بقيادة القائد باديس بن زيرى الصنهاجى، حتى عاد جعفر بن محمد الحسنى إلى مكة المكرمة، واستردها. وبالرغم من كل محاولات الخليفة الفاطمى العزيز بالله لبسط نفوذه على مكة، إلا أن نفوذ الفاطميين فى عهده لم يكن مستقراً فيها. فعندما عاد جعفر إلى مكة المكرمة بعد عودة الحملة العسكرية الفاطمية إلى مصر، منع الدعاء من فوق منابر مكة للخليفة الفاطمى العزيز بالله، وأعاد الدعاء لعضد الدولة البويهى، صاحب السيادة الفعلية على الخلافة العباسية[١]. فيذكر القلقشندى فى كتابه "صبح الأعشى" أن الخطبة فى سنة ٣٦٨/٩٧٨م، لم تكن مستقرة، فقد استطاع أمير الحج العراقى أن يقيم الخطبة على منابر مكة لعضد الدولة بن بويه فى بغداد. واستمر الدعاء والولاء للبويهيين لإرسالهم الأموال، والغلات إلى أمير مكة[٢].

وبالرغم من استمرار سياسة إرسال الهبات والعطاء لأشراف مكة من جانب البويهيين، إلا ان الخطبة بمكة عادت مرة أخرى إلى الخلفاء الفاطميين بمصر[٣]. فقد ذكر المقريزى فى كتابه "اتعاظ الحنفا" أنه فى سنة ٣٦٨/٩٧٨م، خرجت قافلة الحاج من مصر محملة بالقمح والشعير، والدقيق، وسائر الحبوب ومحراب من ذهب للكعبة[٤]. وفى السنة التالية ٣٦٩/٩٧٩م، جهز الخليفة الفاطمى، العزيز مع قافلة الحج كسوة الكعبة، وصلات الأشراف والطيب، والشمع والزيت فبلغ مصروفه مائة ألف درهم[٥]. وكان هذا العطاء الجزيل أثره فى استمرار إقامة الخطبة للفاطميين من فوق منابر مكة[٦].

[١] أنظر: سرور، سياسة الفاطميين، ص٢٤-٢٥، النفوذ الفاطمى، ص١٥-١٦، مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص١٣١-١٣٢.
[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٦٨-٢٦٩.
[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٦، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦-٢٤٧.
[٤] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٤٦.
[٥] المقريزى، إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٢.
[٦] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٢٩٧.

ولايـة عيسى بن جعفر
٣٧٠-٣٨٤هـ/٩٨٠-٩٩٤م

وفي سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م توفي أمير مكة محمد بن جعفر الحسنى، وتولى الأمر من بعده أخوه عيسى بن جعفر[١]. وكانت الخطبة فى آخر عهد محمد بن جعفر، للخليفة الفاطمي العزيز، إلا إن الحجاز قد خرجت عن نفوذ الدولة الفاطمية بسبب سوء الأحوال الإقتصادية فى مكة فى تلك السنة، وتأخر وصول المساعدات، والهبات من الخليفة الفاطمي إلى أمير مكة. لذلك سمح أمير مكة الجديد عيسى بن جعفر لأمير حجاج العراق بإقامة الخطبة على منابر مكة للخليفة العباسي، ولعضد الدولة البويهي، وذلك حتى يضمن استمرار المساعدات والهبات من العباسيين والبويهيين[٢].

ومضت أعوام متتالية [٣٧٠-٣٨٠هـ/٩٨٠-٩٩٠م] والدولة الفاطمية منغمسة فى أزمات سياسية فى مصر وبلاد الشام، جعلتها تترك الأمور على ماهي عليه بمكة، مما جعل الفرصة مهيأة أمام العباسيين لبسط نفوذهم على بلاد الحجاز، وبخاصة فى مكة المكرمة. ولما وجد الخليفة الفاطمي العزيز بالله أن الأمور فى مصر قد استقرت، قرر سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠-٩٩١م إرسال حملة عسكرية إلى مكة المكرمة. وقامت هذه الحملة بحصار مكة المكرمة. وأدى الحصار إلى ضائقة إقتصادية بالمدينة المقدسة، وإنتهى الأمر بإعادة الخطبة على منابر مكة للعزيز بالله الفاطمي صاحب مصر، وانقطعت الخطبة للخليفة العباسي[٣].

---

[١] يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٤٥، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٦، السباعي: تاريخ مكة، جـ١، ص١٩٧.

[٢] سرور: النفوذ الفاطمي فى جزيرة العرب، ص١٦، سياسة الفاطميين، ص٢٤.

[٣] ابن خلدون: تاريخ، جـ١، ص١٠١، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٢-٤١٣، الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤، السنجاري: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٧-٢٥٨، سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص١٣١-١٣٢، النفوذ الفاطمي فى جزيرة العرب، ص١٦، المناوي: الوزارة، ص٢١٠-٢١١.

وتجدر الإشارة إلى أن كلا من الخلافتين العباسية والفاطمية حاولت بسط نفوذها على مكة لما يكسبها ذلك من سمعة طيبة فى نظر العالم الإسلامى، وبالتالى ينظر إليها على أنها هى الخلافة الشرعية. ويلاحظ أن كلا من الخلافتين لم تمارس نفوذاً مباشراً على الحرمين خلال تلك الفترة التاريخية. فقد تمتع حكام مكة بنظام وراثى فى الحكم، فى حين إقتصر نفوذ كل من الخلافتين على التمتع ببعض المميزات، التى أصبحت فى ذلك الوقت - كما يقول الدكتور الزيلعى "شعارات تمثل السيادة والنفوذ، مثل الدعاء للخليفة فى خطب الجمع وفى المناسبات الرسمية، ورفع علمه فى مكة، وفى مشاعر الحج، وإسبال كسوته على الكعبة المشرفة. وهكذا قنعت كل من الخلافتين بهذا النوع من النفوذ الذى يكسبها سمعة طيبة بين المسلمين، ويؤهلها لكى تصبح الخلافة الشرعية فى نظرهم". وقد إحتدم النزاع بين الخلافتين العباسية والفاطمية حول السيادة الرسمية على مكة، وتمخضت عنه محاولات عدة للحصول على هذه السيادة، بتجريد الجيوش أحياناً، والبذل لأمرائها أحياناً أخرى. وأدى هذا التنافس إلى أن برزت أمارة مكة فى شبه استقلال ذاتى، أقرب فى ولائها إلى الفاطميين فى مصر منها إلى العباسيين فى العراق[١].

إستمر التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية حول إقامة الخطبة فى مكة، وتحقيق السيادة السياسية عليها[٢]، طوال عهد العزيز بالله، فقد رأى العزيز بالله الفاطمى، القيام بعمل يستميل به قلوب أهل مكة، ويبعد الأثر السيء الذى خلفته حملته العسكرية على نفوسهم، فأرسل فى نصف شهر ذى القعدة من سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠-٩٩١م قافلة كبيرة، حملت معها الغلال والطيب وكسوة الكعبة إلى مكة، وأغدقت الكثير من العطايا على أهل مكة[٣].

[١] أنظر أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧٧.
[٢] عن هذا التنافس بين الخلافتين أنظر أيضاً :سليمان مالكى:بلاد الحجاز،ص٢١-٢٢.
[٣] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٦٧.

واستمرت الخطبة تقام للفاطميين فى مكة طوال الأعوام ٣٨١-٣٨٤هـ/ ٩٩١-٩٩٤م، وذلك باستمرار إرسال العطايا والمساعدات إلى مكة بصفة مستمرة حتى أصبحت النقود فى مكة تضرب باسم الخليفة العزيز بالله. وهذا مما يؤكد رسوخ السيادة للفاطميين فى بلاد الحجاز، وبصفة خاصة فى مكة المكرمة خلال تلك السنوات[١].

ولما وجد أمير مكة عيسى بن جعفر أن الأمور بمكة تميل إلى جانب الفاطميين، رأى أن يبرهن على عمق الصلات التى تربطه بهم، فقام أمير مكة بزيارة مصر سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م. ولقد استقبل استقبالا يتناسب مع مكانته، واحتفى به من قبل الخليفة الفاطمى، وأنزله فى أعظم القصور بالقاهرة، واهتم الخليفة به، وأكرم وفادته.

ولما استعد الأمير عيسى بن جعفر للعودة إلى مكة المكرمة، حمله الأموال والهدايا والخلع، مما كان له الأثر الطيب لدى أمير مكة، ومما ساعد على استمرار إقامة الخطبة للفاطميين[٢].

أبو الفتوح بن جعفر وإدعاؤه الخلافة
[٣٨٤-٤٠١هـ/٩٩٤-١٠١٠م]

عاد عيسى بن جعفر من مصر إلى مكة، وبعد عودته ببضعة شهور، وافته المنية فى نفس تلك السنة [٣٨٤هـ/٩٩٤م] بمكة المكرمة، وتولى بعده أخوه الحسن بن جعفر الحسنى المعروف بأبى الفتوح[٣]. وكانت فترة حكم أبى الفتوح على مكة المكرمة طويلة، حيث تولى أمارة مكة فى الفترة الواقعة بين

[١] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٧١-٢٧٤.
[٢] المصدر السابق: جـ١، ص٢٨١-٢٨٢.
[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤.

مدة ست وأربعين سنة متتالية، حتى وفاته سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩[١]. ويجب أن نذكر هنا أن هذه الفترة لم تكن متتالية أو متصلة فقد عزل أبو الفتوح على يد أبى الطيب داود فى عام ٤٠١هـ/٩٩٤م ولمدة عامين ثم عاد بعدهما ليتولى حكم مكة مرة أخرى منذ عام ٤٠٣هـ/٩٩٦م وحتى وفاته فى عام ٤٣٠هـ/١٠٣٩م.

ونظراً لطول مدة أمارة أبى الفتوح الحسن بن جعفر على مكة، فقد عاصر من الخلفاء الفاطميين العزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله، وامتد حكمه حتى أوائل حكم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى. وكان أبو الفتوح "جميل الوفا جليل القدر فى الرفاء" كما كان شجاعاً طموحاً شاعراً، رويت له بعض الأشعار، وقد تمتع بنفوذ كبير فى حياة أخيه عيسى، وكان يساعده فى تصريف أمور الأمارة حتى جل قدره[٢]. ولما آلت أمارة مكة المكرمة لأبى الفتوح استمر فى اتباع سياسة أخيه عيسى بن جعفر فى الولاء والإخلاص كل الإخلاص للفاطميين. وظل الفاطميون يواصلون إرسال صلاتهم إلى مكة مع الكسوة بصحبة ركب الحاج كل عام، وبقيت عطاياهم مستمرة فى هذه الفترة من حكم أبى الفتوح[٣].

وقد استفاد أبو الفتوح وأهل مكة من وصول الأموال والغلال إلى مكة كل عام من الفاطميين، وحرص أهل مكة على استمرار وصول هذه العطايا إليهم. يضاف إلى ذلك أن الحاكم بأمر الله، كان يهمه أن تكون مكة المكرمة تدين بالولاء للفاطميين. أو إظهاراً لولاء أمير مكة أبى الفتوح للخليفة الفاطمى فقد قام أمير مكة فى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م بالعمل على مد نفوذ الفاطميين،

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٦٩، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص١٩٧، سرور: سياسة الفاطميين، ص٢٤-٢٥.

[٢] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٧.

[٣] أنظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٧-١٥، ٢٤-٢٥، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٧.

وسيادتهم على المدينة المنورة. فقام أبو الفتوح بحملة على المدينة المنورة فأزال عنها إمرة بنى مهنا، عندما بلغه طعنهم فى نسب الفاطميين[١]. وبعد عودة أمير مكة من المدينة المنورة، أرسل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى موسم حج عام ٣٩٠هـ/٩٩٩م، قافلة كبيرة محملة بالغلال، والعطايا والكسوة، كالعادة حتى يضمن استمرار الولاء له فى مكة المكرمة[٢].

إلا أن الأمور بدأت تتغير نتيجة تصرفات الخليفة الحاكم، فقد ذكر الفاسى فى تحفة الكرام أنه جاءت الأوامر فى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م من قبل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، أنه إذا ذكر اسمه فى المجالس العامة على الناس، أن يسجدوا له كما هو الحال فى مصر وبلاد الشام[٣]. ولم يهتم أمير مكة بهذه الأوامر، التى لا تتفق مع قواعد وأصول الدين الاسلامى الحنيف.

وبلغ من تصرفات الخليفة الحاكم بأمر الله أنه أرسل فى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م سجلا إلى صاحب مكة يهاجم فيه بعض الصحابة رضى الله عنهم، كما طلب من أمير مكة أن يلزم قاضيها وخطيب الحرم المكى فيها بقراءة ما فى هذا السجل، مما كان له أثره السىء على نفس أمير مكة، ولم يذعن لما فيه. وأثار هذا السجل غضب واستياء أهل مكة والقبائل العربية المجاورة فقد تسرب نبأ ما فى هذا السجل إلى الناس فى موسم الحج لتلك السنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م فغضب المجاورون لبيت الله الحرام، والقبائل المحيطة بمكة كهذيل[٤] ورواحة[٥]. واجتمعوا فى المسجد الحرام، وتدارسوا ما فى هذا السجل، وما يجب عليهم نحوه. وكانوا فى حالة غضب شديد، وذلك

---

[١] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٩٩، سرور: سياسة الفاطميين، ص٢٥-٢٦، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٧، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٩، القوصى: تجارة مصر، ص١٢٥-١٣٠، وأنظر الفصل الثالث من الرسالة، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦١-٢٦٢، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٥-٣٠٧.

[٢] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٥، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦١-٢٦٢.

[٣] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٨.

[٤] هذيل من قبائل الحجاز الهامة، وتنقسم إلى قسمين شمالى وجنوبى، وتقع ديار هذيل الشمالى فى أطراف مكة من جهة الشرق والجنوب وبالأخص فى أطراف مكة والطائف بقرب جبل برد وجبل ذكا. ويتألف هذا القسم من سبعة افخاذ: المطارفة والمساعيد، السواهر، لحيان عمرو أو عمير والجنابر. وأما القسم الثانى فيدعى هذيل اليمن ويتألف من الأفخاذ الآتية: الندوية، وعد السروانه، العاهله وجميل، أنظر عمر رضا كحاله، معجم قبائل العرب، جـ٣، ص١٢١٣.

[٥] رواحة بطن من غطفان من العدنانية، أنظر عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، جـ٢، ص٤٤٩.

لايمانهم بمكانة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وطال انتظار الناس، وهم فى حالة من القلق، والغضب، حتى قال أحدهم: "إن خطيب المسجد الحرام قد صعد المنبر عند ذلك ثارت ثورة المجتمعين، ورموا المنبر بالحجارة / وزحفوا على المنبر لقتل الخطيب، ولكنهم لم يجدوا عليه أحداً، فكسروا المنبر. وكان لهذا المشهد عظيم الأثر على الناس[١].

كان لموضوع السجل الذى أرسله الخليفة الحاكم بأمر الله إلى مكة وما صاحبه من فتن وإضطراب أثره فى تحول أهل مكة عن الفاطميين إلى العباسيين بخطى وئيدة. ومهد العباسيون لهذا بأن بدأ نشاطهم فى إرسال عطاياهم إلى مكة. وجاءت باكورة هذا النشاط من الخليفة العباسى القادر بالله الذى حث سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م أمير مكة أبا الفتوح على الدعوة للعباسيين من فوق منابرهم، وطلب منه الدخول فى طاعته، وأغراه بالهدايا والأموال، والعطايا، ووعده بأن تكون إمرة مكة وما جاورها له ولأبنائه من بعده. إلا إن أمير مكة لم يقتنع بهذه العروض التى عرضت عليه من قبل الخلافة العباسية، وأصر على ولائه للفاطميين. ومما يدل على ذلك، أنه استمر فى إقامة الخطبة للفاطميين فى مكة المكرمة[٢]. وأرسل الخليفة الحاكم بأمر الله فى السنة التالية[٣٩٧هـ/١٠٠٦م] إلى أهل مكة العطايا والأموال الكثيرة، وكسوة الكعبة المصنوعة من القباطى الأبيض[٣].

واتصفت الحوادث فى سنتى ٣٩٨هـ، ٣٩٩هـ/١٠٠٧، ١٠٠٨م بعدم الاستقرار واضطراب الأمن، وبخاصة فى موسمى الحج. وذكر العينى أن قوافل الحجاج قد تعرضت للنهب والسلب من قبل بنى هلال فى هاتين السنتين.

[١] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٨، العقد الثمين، جـ٤، ص٧٨، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣١، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٥-٢٥٦، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٧.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٦هـ، سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٦-١٧، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٠-٧٢.

[٣] أنظر العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٧، والقباطى أو القبطية [بالضمة] شياب بيض رقاق تعمل بمصر، وهى منسوبة إلى القبط، واشتهرت هذا الثياب بالدقة والرقة والبياض، أنظر ابن منظر: لسان العرب، جـ٩، ص٢٤٨.. وانظرأيضاً: Dozy, Supplement oux dictinnaires Arabes, Vol. II, P. 302.

وأضاف أن كثيراً من الحجاج لم يستطيعوا أداء الفريضة، فرجع بعضهم إلى موطنه. وكان لهذه الأعمال أثرها السيء من الناحية الاقتصادية على أهل مكة. ورغم حوادث الفوضى والاضطراب بسبب اعتداء قبيلة بنى هلال على الحجاج، إلا ان الخطبة ظلت للخليفة الفاطمى فى مصر[١].

غير انه فى السنوات الأخيرة من القرن الرابع الهجرى/ مطلع القرن الحادى عشر الميلادى طرأت مستجدات فى الأحال السياسية للدولة الفاطمية فى مصر وبلاد الشام، مما جعل بعض القوى الأخرى تتجه إلى أمير مكة أبو الفتوح، طالبة منه التبعية والولاء. ولتوضيح ذلك يجدر إلقاء بعض الضوء على وضع بلاد الشام السياسى تحت حكم الدولة الفاطمية منذ سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م. فقد كانت الأوضاع غير مستقرة بسبب تذبذب موقف زعماء القبائل العربية الموجودة فى بلاد الشام، ووقوفهم إلى جانب الخلافة الفاطمية حيناً، وإلى جانب أعدائهم ومنافسيهم أحياناً أخرى.

بالاضافة إلى ذلك، فقد قامت الحركات الاستقلالية فى بلاد الشام من قبل بعض الأمراء المحليين لبعض القبائل العربية. فقد قامت قبيلة بنى طيء فى فلسطين بمحاولة إقامة أمارة مستقلة عن الخلافة الفاطمية فى مصر[٢]. ففى سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م. ثار زعيم بنى طيء مفرج بن دغفل بن الجراح الطائى، على الخلافة الفاطمية، وأستولى على الرملة وعسقلان، وأغار على القرى والمدن[٣].

---

[١] أنظر العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٨-٣٩٩هـ.
[٢] أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص٤٣، ١٠٩.
[٣] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٨٦-٨٨، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٠-٧٢.

ولم تقف الدولة الفاطمية مكتوفة الأيدى، فقد أرسلت جيشاً كبيراً للقضاء على مفرج بن دغفل ودولته[١]. وكاد النصر يتم للفاطميين عند ذلك ففكر ابن الجراح فى ترك الرملة والعودة إلى البوادى[٢]. فخاف أبو القاسم الحسين المغربى - الذى فر من ظلم الخليفة الحاكم، عندما غدر بأبيه وعمه، والتجأ إلى بنى الجراح[٣] - على نفسه فيما لو تراجع ابن الجراح على الرملة، ورأى أبو القاسم المغربى أن يلعب دوره لتثبيت أقدام آل الجراح على الرملة لتيسر لهم ملك الشام، وإن إنهزموا فسيطمع الخليفة الفاطمى وجنوده بهم، ولن يرفع لهم رأس بعد ذلك. وأشار عليهم أبو القاسم أيضاً، أن ينادوا فى الناس بإباحة السلب والنهب، فانضم إليهم كثير من الناس ممن أغراهم هذا النداء. وتمكن آل الجراح فى هذه الفترة من السيطرة على معظم الشام[٤].

ومهما يكن من أمر فإن آل الجراح لم يحسنوا السيرة فى الناس، خاصة أنهم انشغلوا بالسلب والنهب، الأمر الذى أدى إلى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية فى بلاد الشام. ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الأخبار الخاصة ببلاد الشام، وما فعله آل الجراح وصلت أنباؤها إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بمصر، وبلغه ما ارتكبوه من أعمال السلب والنهب فى فلسطين فأرسل كتاباً إلى المفرج بن دغفل بن الجراح، زعيم قبيلة بنى طىء، يؤنبه فيه ويلومه على ما كان من آل الجراح، ويطالبه بإرسال قائده يارختكين أو ياروخ التركى [الذى وقع فى أسر آل الجراح] إلى مصر، واعداً إياه بخمسين ألف دينار مقابل ذلك. وأثناء هذه الأحداث المتوترة بين الخلافة الفاطمية فى مصر وبين قبيلة بنى طىء، لعب أبو القاسم الحسين بن على المغربى دوره للمرة الثانية، واستغل الظروف لصالحه فى إغراء حسان بن مفرج بن الجراح

---

[١] أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١٠٩.

[٢] المرجع السابق، ص١١٤.

[٣] أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٤٩٤-٤٩٧، ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ١، ص٧٩-٨١، أمينة البيطار: المرجع السابق، ص٩٣.

[٤] المقريزى: الخطط، جـ٣، ص٢٥٥، أمينة البيطار: المصدر السابق، ص١١٤-١١٥.

بقتل يارختكين، وحذره من إطلاق سراحه. وقد أيقن آل الجراح بعد قتلهم ليارختكين، بأن الحاكم بأمر الله سوف يعمل جاهداً على الانتقام منهم، خاصة أن أبا القاسم قد أوضح لهم أن أبواب الصلح مع الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى مصر قد أغلقت[١].

وفى خضم هذه الأوضاع الجديدة فى بلاد الشام، حدث أول اتصال سياسى بين أمير مكة أبى الفتوح بن جعفر والقبائل العربية لبلاد الشام، عندما أشار أبو القاسم المغربى على زعماء القبائل العربية بسرعة الاتصال بأمير مكة أبى الفتوح حسن بن جعفر العلوى، وأن يبايعوه إماماً لهم، لأنه ينتمى إلى آل البيت، ولأن نسبه لن يكون عرضة للطعن، ثم تتخذ بعد ذلك إجراءات تنصيبه خليفة عليهم. ولتحقيق ذلك أمر حسان بن الجراح أبا القاسم بن المغربى بالتوجه إلى بلاد الحجاز لمقابلة أمير مكة[٢].

ومن هنا بدأ أول إتصال بين أمراء القبائل العربية ببلاد الشام وبين أمير مكة. ووافق أبو القاسم المغربى على حمل رسالة بنى الجراح إلى أمير مكة أبى الفتوح. وفى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م دخل أبو القاسم المغربى مكة المكرمة، ووعقد إجتماعاً مع أميرها أبى الفتوح، وعرض عليه رسالة بنى الجراح، وأغراه فى الإمامة والرياسة، وحرضه على طلب الخلافة، كما حثه على الخروج إلى الرملة استجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته[٣].

---

[١] أنظر الفاسى، العقد الثمين، جـ٤، ص٧٠، أمينة البيطار: المرجع السابق، ص١١٤-١١٥، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥١.

[٢] ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٣١٤-٣١٥، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٤٩٤-٤٩٧، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨، محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ص٦٢، حسين محمد سليمان : الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، ص٢٨٤: أنظر: أيضاً أمينة البيطار: المرجع السابق، ص١١٦: الزيلعى: مكة، ص٥٠.

[٣] سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٧، النفوذ فى بلاد الشام، ص٤٥، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٥-٢٦.

ووافق أبو الفتوح على قبول بيعة بنى الجراح له إماماً على المسلمين[١].

أما بالنسبة لتقديم مساعدات مالية وحربية لبنى الجراح للوقوف فى وجه الخليفة الحاكم بأمر الله، فإن أمير مكة أبا الفتوح إعتذر لأبى القاسم المغربى، عن قصر ذات اليد، حيث إن الأموال والسلاح غير متوفرين لديه، ولا يستطيع بدونها أن يقف فى مواجهة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله. فأشار عليه أبو القاسم بأن يأخذ مافى خزائن الكعبة الشريفة من الأموال، والذهب، وأن يقوم بضرب هذه الأموال دنانير تحت إسم الكعبية[٢].ولم يزل به حتى استطاع أن يصل إلى ما يريد، فأخذ أمير مكة أبو الفتوح ما فى الكعبة من ذهب، وأموال، بالاضافة إلى تركة أحد الأغنياء المتوفين فى ذلك الوقت، والأمانات التى تحت يديه[٣].

ونظراً لما تمتع به أمير مكة أبو الفتوح من خبرة سياسية، وفهم للأمور فقد عرض على أشراف مكة من بنى الحسن ما اقترحه أبو القاسم من أمر خلافته، وأن تستمر هذه الإمارة فى ذريته من بعده[٤]. وشرح للأشراف ما سيعود عليهم هذا المشروع من نفع، فوافقوا على الفكرة، وبايعوه بالخلافة، وذلك طمعاً منهم فى أن تكون الخلافة فيهم دون غيرهم من القبائل العربية

---

[١] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨، الذهبى: تاريخ الإسلام، ص١٨٤، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٨-٢٦٠، وأنظر ما سبق ص٥٥.

[٢] ذكر الفاسى ونقل عنه الزيلعى[مكة،ص٥٢] وابن فهد ان هذه الدنانير كانت تسمى الفتحية. الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧١، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨، ولم يذكر المقريزى شيئاً عن هذه الدنانير فى كتابه [شذوذ العقود فى ذكر النقود]، ط القسطنطينية ١٢٩٨هـ.

[٣] ابن مسكوية: تجارب الأمم، جـ٢، ص٣٣٦-٣٣٨، ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص١٦٤، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٧، الزيلعى: مكة ص٥٢.

[٤] ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٢، ص٢٣٦-٢٣٧.

فى مكة. بذلك تم تنصيب أبى الفتوح خليفة على المسلمين، وخطب له بالخلافة من فوق منابر الحرم الشريف سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ولقب نفسه "أمير المؤمنين الراشد بالله"، وأبطلت الخطبة للفاطميين. وبذلك جعل أبو الفتوح نفسه نداً ومنافساً للخليفتين العباسى والفاطمى، مع علمه بقصور قوته الذاتية عن حماية هذه الخلافة التى جره إليها أهل الشام وبنو الجراح على وجه الخصوص[١].

قام أبو القاسم المغربى بالدعوة لصاحب مكة بين القبائل العربية فى أرض الحجاز، موضحاً لهم: أن أمير مكة أصبح خليفة للمسلمين. ومن هذه القبائل التى قام بها ابو القاسم بدعوتها إلى البيعة لأبى الفتوح والوقوف إلى جانبه: قبائل بنى سليم، وبنى هلال، وبنى عوف، وبنى عامر وغيرهم من القبائل العربية ذات الأثر السياسى والاجتماعى فى بلاد الحجاز. واستجابت هذه القبائل لدعوة أبى القاسم، وتمت البيعة بالخلافة لأمير مكة أبى الفتوح، وكان ذلك سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م واطمأن أمير المؤمنين الراشد بالله [أبو الفتوح] خليفة المسلمين إلى الوضع السياسى بمكة وما جاورها، حيث أعلن الجميع مبايعتهم له بالخلافة، وعند ذلك قرر أن يوسع دائرة خلافته، فرأى أن يتوجه إلى الرملة، حتى تتم له البيعة هناك من بنى الجراح، وهم أصحاب فكرة توليته منصب الخلافة[٢].

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٢٥٠، ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٣، ص٢٣٦-٢٣٧، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١-١٠٢، المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٩٥، ابن فهد: إتحاف الورى: جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨، الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٢٥، العقد الثمين، جـ٤، ص٧٤-٧٥، الذهبى: تاريخ الاسالام: ورقة ٢٤، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٨-٢٦٠، السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص٤١٢: سرور: سياسة الفاطميين الخراجية: ص٢٦، ماجد، الإمام المستنصر: ص ١١٧، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية: ص٧٢-٧٤، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب: ص١١٥-١١٦، الزيلعى، مكة وعالاقتها الخارجية،ص٥٢.

[٢] سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧، النفوذ الفاطمى فى بالاد الحجاز، ص١٧، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص١٩٨.

وفى أواخر سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م خرج أمير المؤمنين الراشد بالله، وبصحبته أبى القاسم المغربى من مكة متوجهاً إلى الرملة[١]، راكباً فرسه، ومتقلداً سيفاً وفى يده قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

والتف حوله جماعة من العلويين، وكان فى خدمته أكثر من ألفى فارس من بنى الحسن، حتى وصل فى موكب عظيم القدر إلى الرملة[٣].

وفى الرملة استقبل أمير المؤمنين الراشد بالله استقبالا يتناسب مع مكانة الخلفاء. واستقبله زعيم قبيلة بنى طىء "مفرج بن دغفل" وأبناؤه: حسان، وعلى، وغيرهم من العظماء وكبار القوم. وأسرعوا بتقبيل الأرض بين يديه، وتمت له البيعة بالخلافة على أرض الشام[٤]. وأصر زعيم قبيلة بنى طىء "مفرج بن دغفل" على استضافة خليفة المسلمين أمير المؤمنين الراشد بالله ومن الرملة بدأ الراشد بالله عمله السياسى، فأمن الخائفين، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأصدر بياناً مكتوباً، أمر فيه الناس بعدم تقبيل الأرض أمام الخلفاء، فالسجود لله وحده، "لأن هذا العمل مخالف لدين الله، والله وحده المستحق للتقديس"[٥].

---

[١] ذكر الذهبى [تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٩] أن عصيان أبى الفتوح وقدومه إلى بلاد الشام كان سنة ٣٨١هـ/٩٩١م. ويمكن تنفيذ هذا القول بسهولة فالحاكم بأمر الله تولى الخلافة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م، كما إن أبا الفتوح تولى امارة مكة المكرمة سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م بعد وفاة أخيه عيسى بن جعفر، أنظر ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٠-١٠١، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٦٩، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٨-٢٦٠، الزيلعى: مكة، ص٥٣.

[٢] الذهبى: تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٩، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٨-٢٦٠، الزيلعى: مكة، ص٥٣.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص٢٦٤: تاريخ الإسلام، ورقة ٢٤٩، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

[٤] الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٠-٢٥١، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص١٩٨-١٩٩، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٦، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام، ص٤٥، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٧-١١٨.

[٥] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٨-٤٣٩، أمينة البيطار، موقف أمراء العرب، ص١١٧-١١٨، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٤-٧٥.

ولما استقر المقام لأمير المؤمنين الراشد بالله أبى الفتوح حسن بن جعفر فى الرملة، تم الاتفاق على أن تتم البيعة العامة للناس جميعاً فى المسجد الجامع وخرج الخليفة الراشد بالله فى موكب كبير إلى المسجد الجامع بالرملة وبرفقته آل الجراح، لأخذ البيعة من الناس. وفى المسجد استقبل من جموع المصلين ومن خطيب المسجد أعظم استقبال، واجتمع الخليفة الراشد بالله أبو الفتوح مع خطيب المسجد، وأعطاه التوجيهات والأوامر التى سيقوم بتنفيذها ومنها: أنه أمره بقراءة آيات من سورة القصص[١]. وعلى منبر المسجد الجامع فى الرملة صعد الخطيب، وألقى خطبته التى دارت حول الدعوة، والمبايعة لأمير مكة، وقرأ على جموع المصلين آيات من سورة القصص[٢]. ولا تذكر المصادر التاريخية الغرض الذى من أجله أمر أبو الفتوح خطيب مسجد الرملة بقراءة هذه الآيات الكريمة بالذات، والتى تدور حول قصة سيدنا موسى عليه السلام، وجبروت فرعون وطغيانه. ولعله قصد التعريض بالخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وجبروته.

وهنا تقف الباحثة قليلا عند هذه الأحداث التى جرت فى تلك الفترة التاريخية من تاريخ مكة المكرمة، لمحاولة التعرف على العوامل الحقيقية، التى دعت أمير مكة إلى خلع طاعة الفاطميين. وادعائه الخلافة لنفسه، واستقلاله بحكم مكة المكرمة. فإذا استبعدنا تحريض أبى القاسم المغربى لأبى الفتوح، نجد أن إنقطاع العطايا والهبات والصلات، التى كانت ترد من الخلافة الفاطمية من العوامل التى شجعت أمير مكة على القيام بهذه الخطوة. يضاف إلى ذلك ما

---

[١] القرآن الكريم سورة القصص: آية ١-٦ وهى: طسم [تلك آيات الكتاب المبين] "نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون" ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين "ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون..." صدق الله العظيم.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٧-٤٣٨، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧٢-٧٣، سرور: سياسة الفاطميين، ص٢٦-٢٧، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٨.

تركه سجل الحاكم بأمر الله من أثر سيء، عندما أمر أبا الفتوح بأن يسجد الناس عند ذكر اسمه، بالاضافة إلى سب بعض الصحابة، حقيقة أن أشراف مكة كانوا على يقين من أن عقيدة الفاطميين شيعية علوية فى الامامة وقائمة أصلا على الاعتقاد بحق على وأبنائه فى الخلافة إلا أن هذا السجل وما ورد فيه آثار غضب أهل الحجاز، وأحدث وحشة بين أمير مكة والخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

ولا يجب ألا نغفل هنا عن إغراءات المنصب الرفيع وهو الخلافة والسلطة دفعت أبو الفتوح إلى الترحيب بقبول منصب الخلافة خاصة وأنه أحق به من الفاطميين فمن يحكم مكة هو صاحب الخلافة الشرعية.

واستغل أبو القاسم المغربى هذه الأوضاع لصالحه، وأقنع أبا الفتوح بالخروج على الفاطميين وبالدعوة لنفسه بالخلافة.

وذاع خبر بيعة الخليفة الراشد بالله فى العالم الاسلامى، وفى مصر بلغت أخبار البيعة للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وبما تم فى أمر خروج أبى القاسم لمكة وقدوم أمير مكة أبى الفتوح إلى الرملة، ومبايعة آل الجراح له، وتسمية نفسه بالراشد بالله أمير المؤمنين. فأنزعج الخليفة الفاطمى، عندما علم بأن بلاد الشام بدأت تنساق وراء أبى الفتوح، لعلمه أن أبا الفتوح لديه من الأسباب والعوامل ما يساعده لأن يكون أهلا لمنصب الخلافة[١]. والتفت القبائل العربية فى بلاد الشام، وبلاد الحجاز حوله، ورأى نفسه أحق بالخلافة من غيره، كما أن التفاف الناس حوله ومبايعته بالرملة، يعتبر من أهم الأسباب المؤيدة لدعوته. لهذا رأى الحاكم بأمر الله الفاطمى أن يتبع سياسة جديدة

---

[١] الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧١، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥١، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٩، عن موقف الخليفة الحاكم من دعوى أبى الفتوح أنظر أيضاً، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥٣-٥٦.

نحو بلاد الشام، على ضوء الحوادث الطارئة، التى طرأت فى بلاد الشام وفى مكة المكرمة، وبخاصة بعد فشل حملته العسكرية التى أرسلت إلى بلاد الشام للقضاء على مفرج بن دغفل ودولته[١]. لذلك عدل الخليفة الحاكم بأمر الله عن سياسة الحرب إلى سياسة اللين والموادعة[٢]. وهى السياسة التى أتبعها سلفة الخليفة العزيز بالله عندما استمال بنى الجراح بالمال[٣].

لذلك أرسل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله إلى زعيم قبيلة بنى طىء وولده حسان، وأعدا إياهما وعوداً كثيرة باذلا لهما الأموال، وذلك فى مقابل التخلى عن مبايعة أبى الفتوح، الملقب "بالراشد بالله" وأن يعملوا على إضعاف مركزه[٤].

ومن هذا المنطلق استطاع الخليفة الحاكم بأمر الله أن يصل إلى زعامات بلاد الشام عن طريق قبيلة بنى طىء، لإعادة نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام، وللوصول إلى ما يريد من انفضاض الناس من حول أبى الفتوح، وعودتهم مرة أخرى إلى حظيرة الخلافة الفاطمية، وتبودلت الرسائل بين الطرفين من بلاد الشام إلى مصر، متضمنة مطالب كل فريق من الآخر. ولما كان لحسان بن مفرج بن دغفل من بنى الجراح مكانته المرموقة بين قومه، فإنه عرض بعض المطالب الخاصة على الخليفة الحاكم بأمر الله لخذلان أبى الفتوح. ومن هذه المطالب: أن يحصل حسان على خمسين ألف دينار عيناً، وهدايا وثياب له ولجميع إخوته[٥].

---

[١] أنظر ما سبق، ص٤١ من هذا الفصل.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٨-٤٣٩، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤-١٩٥، ماجد: الإمام المستنصر، ص١١٧.

[٣] أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٩.

[٤] سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٨: أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٩-١٢٠.

[٥] الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥١، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٦، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٨.

ووافق الحاكم بأمر الله على هذا المطلب، ليضمن ولاء بنى الجراح له، وأسرع - كما يقول الفاسى - بإرسال الأموال الجزيلة إلى الصغير والكبير[١]. وأراد الخليفة الحاكم بذلك إرضاء جميع رؤساء آل الجراح، ليجعلهم ينفضون عن الخليفة الراشد بالله أمير المؤمنين أبى الفتوح. ونجحت سياسة الخليفة الحاكم بأمر الله مع القبائل العربية فى بلاد الشام فى تجريد أبى الفتوح من ولاء ومساندة أهل الشام له وكان ذلك سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م[٢] كما نجحت سياسة الحاكم بأمر الله فى عودة بلاد الشام إلى النفوذ الفاطمى.

أما عن السياسة التى كان قد أتبعها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله نحو مكة المكرمة - حينما أعلن أميرها أبو الفتوح الخطبة لنفسه، وخرج من مكة المكرمة متوجهاً إلى بلاد الشام لأخذ البيعة فتتلخص فى أنه وضع خطة تضمن ولاء الأشراف له، فاتصل بأبى الطيب داود بن عبد الرحمن[٣] - ابن عم أبى الفتوح - فولاه أميراً على مكة المكرمة، قاطعاً خط الرجعة على أبى الفتوح بتوليه منافس من نفس الأسرة، التى ينتمى إليها أبو الفتوح. وأمده الحاكم بالأموال، والثياب له ولشيوخ بنى الحسن، لخذلان أبى الفتوح، كما تعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار عيناً، ولكل فرد من أخوته عدا من الهدايا والثياب التى بعثها إليهم[٤]. ونجح أمير مكة أبو الطيب فى استمالة الناس نحو الخليفة الفاطمى، وإبعادهم عن أبى الفتوح[٥]. ومن هنا استطاع الحاكم بأمر الله أن يعيد بلاد الحجاز إلى حظيرة الخلافة الفاطمية، وأن تعود إلى الفاطميين هيبتهم ومكانتهم فى مكة المكرمة.

---

[١] الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

[٢] ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤: الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤-١٩٥، العقد الثمين، جـ٤، ص٧٣-٧٤، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٤-٧٥.

[٣] هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن أبى القاسم بن ابى الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب. أنظر: الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤-١٩٥.

[٤] الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥١، سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٨، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٦.

[٥] أمينة البيطار: المصدر السابق، ص١٢١-١٢٢، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٢٣-٢٢٤.

وتجدر الإشارة إلى أن أبا الطيب داود بن عبد الرحمن الذى ولاه الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أميراً على مكة فى الفترة التى كان فيها أبو الفتوح قد أعلن نفسه خليفة منازعاً للخليفة الفاطمى، هو أول من تولى أمارة مكة من الطيبيين، وهم فرع من بنى سليمان بن عبد الله بن موسى الجون، وهم الذين أطلق عليهم لقب السليمانيين، نسبة إلى سليمان بن عبد الله الثانى[١].

أما عن أبى الفتوح، فقد أحس بخذلان بنى الجراح له، وعدولهم عن رأيهم فى العمل على تقوية نفوذه، وأدرك أنهم تركوا دعوته، ونسوا عهودهم ومواثيقهم له[٢]. وأصبح موقف أبى الفتوح بعد هذا حرجاً للغاية، فأهل مكة الذين كانوا تحت إمرته قد خرجوا عن طاعته، وخرجت مكة من قبضة يده، وأصبحت تحت إمرة ابى الطيب السليمانى، الذى ولاه الحاكم بأمر الله إمرتها[٣].

ولجأ أبو الفتوح إلى أبى القاسم المغربى وقال له: "أغويتنى وأخرجتنى إلى هؤلاء القوم الغدارين، اخرجتنى من بلدى ونعمتى وإمارتى وجعلتنى فى ايدى هؤلاء، ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعوننى بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصنى، كما أوقعتنى، وتسهل سبيلى بالعودة مرة أخرى إلى الحجاز، فإنى راض من الغنيمة بالإياب، ومتى لم تفعل أضطرت إلى أن أركب فرسى، وأركب التغرير فى طلب النجاة[٤].

---

[١] أنظر، الزيلعى، مكة وعالاقاتها الخارجية، ص٦٣.

[٢] ابن الجوزى:المنتظم،جـ٧،ص١٦٥،سرور:سياسة الفاطميين الخارجية،ص ص٢٦-٢٧، النفوذ الفاطمى فى جزيرةالعرب،ص١٨،النفوذ الفاطمى فى بالاد الشام،ص٤٦.

[٣] السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٥٨-٢٦٠، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤-١٩٥.

[٤] ابن القالانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٦٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٨-٤٣٩، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧٠-٧٢، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١١٩-١٢٠، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٨، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٤-٧٥.

فشجعه أبو القاسم المغربي، وثبته، وأخذ يفكر في طريقة تخلصه مما هو فيه.

ولما طال الأمر على أبي الفتوح، ركب دابته بنفسه إلى مفرج بن دغفل زعيم بني طيء سراً، وأوضح له أنه فارق نعمته، وكاشف الحاكم بالعداء ركوناً منه إلى زمامهم، وسكوناً إلى مقامهم. وأخبره بخبر أولاده وانصرافهم عن تأييده، وقال له: "إن لي في عنقك مواثيق، وأنت أحق من يوفي بها لمكانتك من قومك" ثم قال له: "إني أرى حساناً ولدك قد اصلح نفسه مع الحاكم بأمر الله، وأتبعه أكثر اصحابه، وأنا خائف من غدره بي، وما اريد إلا أن تجاوبني على حقي عليك، بأن تبعث معي من يوصلني إلى مكة. فسيره مفرج بن دغفل بنفسه إلى وادي القرى، وأرسل معه من هناك جماعة من طيء، ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة المكرمة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١].

واستقبل أبو الفتوح من أصحابه وأله وأتباعه استقبالا يتناسب مع مكانته، وتنازل ابن عمه أبو الطيب عن أمارة مكة المكرمة له[٢]. وذلك تقديراً منه لأبي الفتوح. وكاتب أبو الفتوح الحاكم بأمر الله، واعتذر له عما بدر منه، وأشهر أمام الناس أن الإمامة للحاكم بأمر الله الفاطمي، وليست لغيره. ولما وصلت رسالة أبي الفتوح إلى الحاكم بأمر الله في مصر، وقرأها، ما كان منه إلا أن قبل عذره، وعفا عنه، وأعاده إلى إمارته بمكة المكرمة[٣] وقام أبو الفتوح حسن بن جعفر بنقش اسم الخليفة الحاكم بأمر الله على السكة في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[٤].

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٩-٤٤١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص٦٤، سرور: سياسة الفاطميين، ص٣٦-٣٧، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١٢١-١٢٢، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٤-٧٥، ووادي القرى وهو واد من أعمال المدينة كثير القرى أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص٣٤٥.

[٢] استكان بنوأبي الطيب ولم يطلبوا الأمارة بعد ذلك، حتى توفي شكر بن ابي الفتوح، أنظر الزيلعي: مكة ص ٦٣، وأنظر مايلي ص٨٤.

[٣] ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص١٦٥، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١-١٠٢، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٣٩-٤٤١، الفاسي: العقد الثمنين، جـ٤، ص٧٥، سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، ص٤٦، أمينة البيطار: موقف أمراء العرب، ص١٣١-١٣٢.

[٤] المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٩٥-٩٦، خاشع بن عيادة: الحياة السياسية، ص٧٤-٧٥.

ولم يحاول أبو الفتوح بعد عودته إلى إمارة مكة، الخروج مرة أخرى عن طاعة الخلفاء الفاطميين، بل إحتفظ بسيادتهم لهذا البلد المقدس. واستمر يقيم الخطبة لهم طوال المدة الباقية من حكم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى[١].

ولما آلت الخلافة الفاطمية إلى الظاهر على بن ابى الحسن - الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م. قام أبو الفتوح فى مكة المكرمة بمبايعته والدعاء له من فوق منابر مكة[٢]. واستمرت الخطبة تقام من فوق منابر مكة المكرمة للظاهر ابن الحاكم بأمر الله[٣]. وفى أثناء سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م حدثت فتنة فى بلده "حلى"[٤]. فأسرع أبو الفتوح وأخمد هذه الفتنة فى مهدها، واستولى على تلك البلدة[٥]. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذا الموقف الذى اتخذه أبو الفتوح تجاه بلدة حلى، يبرهن على أن أمير مكة المكرمة كان يعمل على استقرار الأمور فى مكة واستتباب الأمن فيها مما يدل على حسن إدارته لأمور البلاد لصالح الفاطميين، يضاف إلى ذلك أنه بهذه السياسة ارضاء الخلفاء الفاطميين، وبسط نفوذهم على المناطق التى تحاول الخروج عن سيادة الخلافة الفاطمية.

---

[١] سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب،ص١٩ :سياسة الفاطميين الخارجية ، ص٢٧.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤١٠هـ، سرور: سياسة الفاطميين، ص٢٧-٢٨، مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص٢٢، القوصى: تجارة مصر، ص١١٢-١١٣.

[٣] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٦٩، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١-١٠٢.

[٤] حلى: مدينة باليمن على ساحل البحر، كان بينها وبين السرين يوم واحد وبينها بين مكة ثمانية أيام. أنظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٩٧.

[٥] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٤٦، الزيلعى: مكة ، ص٥٧.

وذكرت المصادر التاريخية[١] أن رجلا من المصريين أى: الفاطميين أتى إلى مكة المكرمة أثناء موسم حج سنة ٤١٣هـ/١٠٢٢م، وأثناء طوافه بالكعبة المشرفة، أتفق مع مجموعة من الحجاج المصريين على أمر سوء بالنسبة للحجر الأسود. فلما طاف بالبيت العتيق وانتهى بالحجر الأسود، تظاهر بأنه يقبله فضربه بدبوس[٢] كان فى يده، وقال: "إلى متى يعبد هذا الحجر الأسود؟ ولا محمد ولا على يمنعنى ما أفعله الآن". وتناثرت منه بعض القطع، فعاجله الناس وقتلوه فى الحال. وانعكس هذا العمل الأثيم على الحجر الأسود على الحجاج المصريين. فقام المجاورون وأهل مكة على المصريين فنهبوهم، وقتلوا الكثير منهم، وقتلوا من كان على باب المسجد الحرام يناصرون هذا الرجل، ثم أحرقوا جثته بعد هذا. وأتخذ بعض المفسدين هذا العمل وسيلة لنهب وسلب الحجاج أيا كان موطنهم[٣]. وأثناء هذه الفوضى والاضطراب، اندلعت الفتنة فى مكة المكرمة، وكادت أن تقضى على الأخضر واليابس، إلا أن أمير مكة - بشجاعته وحسن إدارته - أخمد هذه الفتنة، وابعد الناس عن المصريين، وضرب بيد من حديد على كل من يقوم بأعمال السلب والنهب. أما بالنسبة للحجر الأسود، فقد أسرع بنو شيبة سدنة الكعبة بجمع ما تناثر منه، وعجنوه بالمسك والك وحشيت الشقوق وطليت بطلاء[٤].

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٨، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤١٣هـ، ابن فهد: أتحاف الورى،جـ٢، ص٤٤٨-٤٥٠، الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧-١١٨، العقد الثمين، جـ٤، ص٧٨-٧٩،ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص١٩٧-١٩٨.

[٢] الدبوس آله من آلات الحرب مصنوعة من الحديد، عرفها القاموس المحيط بقوله: "الدبوس هراوة مدملكة الرأس فى طرفها كتلة صغيرة: وجاء ذكرها فى أكثر كتب التاريخ الإسلامى، وكانت تستعمل فى تهشيم الخوذة المعدنية يحملها الفرسان فى السروج تحت أرجلهم. أنظر عبد الرحمن ذكى، السلاح فى الإسلام، ص٢٦.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٨ ص ٨، العينى، عقد الجمان، حوادث سنة ٤١٣هـ، ابن فهد، اتحاف الورى جـ٢ ص ٤٤٨-٤٥٠، الفاسى، تحفة الكرام، ورقة ١١٧-١١٨، العقد الثمين، جـ٤ ص٧٨-٧٩، ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٣ ص ١٩٧-١٩٨.

[٤] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٩، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠١-١٠٢، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٤٨-٤٥٠، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٣-٢٥٤.

وذكر المسبحي في أخبار مصر، ونقل عنه المقريزي أنه في سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، خرج وفد من بلاد الحجاز متجهاً إلى مصر، وتكون هذا الوفد من الأشراف من بني الحسن، واجتمعوا بباب القصر الفاطمي في القاهرة، واستغاثوا بالخليفة وقالوا: "يا قوم قد جئناكم وفارقنا أهلينا، وقد هلكنا من الجوع، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكة والمدينة فاصرفونا. ونريد انساناً يكلمنا". ولم يخرج إليهم أحد. وكانوا قد اتصلوا ببعض كبار الدولة الفاطمية، فلم يهتموا بهم كذلك، ولم يرسل الخليفة الفاطمي الظاهر الكسوة إلى مكة في الوقت المحدد لها من موسم الحج من ذلك العام، حتى انتهى الموسم. وكان أمل الوفد المكي أن يحظى ببعض الهبات والعطايا، ولكن الوفد لم يوفق فيما هو قادم من أجله، وفي نهاية مطافهم قرر الوزير الفاطمي[١] أن يصرف لهم ألف دينار لقضاء أمورهم. ولما عزموا على العودة، تقرر أن يصرف لهم نصف هذا المبلغ، ولم يعطوا لأمير مكة أي شيء، ورجع الوفد إلى مكة المكرمة ساخطاً وخائباً[٢]. وبالرغم من موقف الفاطميين هذا تجاه وفد مكة، إلا إن الخطبة استمرت تقام للفاطميين من فوق منابر مكة المكرمة، إلى أن استؤنفت الصلات الفاطمية في سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م عندما أرسل الخليفة الفاطمي الظاهر هبة لأهل الحرمين تبلغ أربعين ألف دينار[٣].

وكيفما كان الأمر فقد بقي أمير مكة أبو الفتوح موالياً للخلافة الفاطمية في مصر، وبقيت الخطبة تقام لهم على منابر الحرم الشريف حتى سنة وفاته في سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م[٤].

---

[١] كان الوزير الفاطمي في ذلك العام الوزير المسعود بن طاهر الوزان. أنظر المناوي: الوزارة ص٣٠٧.

[٢] المسبحي:أخبار مصر،جـ٤، ص٧٧، المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٦٣-١٦٤.

[٣] المقريزي: المصدر السابق، جـ٢، ص١٣١.

[٤] ابن الجوزي: المنتظم، جـ٢، ص١٠٠، ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص١٨، أبو الفدا: المختصر، جـ٢، ص١٦٢، الفاسي: العقد الثمين، جـ١، ص١٧٠-١٧١، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٤٥، أنظر أيضاً سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص٣٣-٣٤، الزيلعي: مكة، ص٥٨.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر ومنها العيني وابن فهد والجزيري تذكر انه توفي في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٢٩هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٥٨، الجزيري: درر الفوائد، ص٢٥٤-٢٥٥.

محمد شكر بن أبى الفتوح [٤٣٠-٤٥٤هـ/١٠٣٨-١٠٦٢م]
وسقوط الأسرة الموسوية[١]

ونظراً لما كان يتمتع به أبو الفتوح من مكانة مرموقة بين أهل مكة فإنه لما توفى لم يعترض زعماء مكة وأشرافها على توليه ابنه "شكر بن أبى الفتوح بن حسن بن جعفر الحسنى" خلفاً له[٢]. وقد استمرت ولاية شكر بن أبى الفتوح من سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م إلى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦١م. وكان هذا الأمير يلقب "بتاج المعالى" وكان جواداً، أديباً، شاعراً، يحظى بإحترام أهل العلم وأهل الفضل، وتولى أمر مكة المكرمة فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله[٣]. وسار هذا الأمير الجديد على نهج أسلافه فى الولاء للفاطميين[٤]. وأستولى شكر بن ابى الفتوح على المدينة المنورة بعد أن استتب له الأمر فى مكة، وبذلك جمع بين الامارتين مكة المكرمة والمدينة المنورة[٥].

وفى ظل هذا الاستقرار واستمرار سياسة الاعطيات التى اتبعها الخليفة الفاطمى المستنصر بالله تجاه مكة استفادت الدولة الفاطمية من استتباب الأمور فى مكة المكرمة فى عهد أميرها شكر بن أبى الفتوح. فقد استمر أمير مكة يدين بالولاء للفاطميين واستمرت إقامة الخطبة لهم من فوق منابر الحرمين الشريفين، واستمال الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أمير مكة بالعطايا والأموال الكثيرة التى أرسلها له. وذكر ناصر خسرو فى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م هاجر من مكة إلى مصر حوالى خمسة وثلاثين ألف شخص ويبدو انه مبالغ فى هذا العدد ايما مبالغة. وقد كان سبب تلك الهجرة الجماعية القحط الذى عم بلاد الحجاز فى تلك السنة.

---

[١] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٥٨-٦١.

[٢] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٥-١٩٦، العقد الثمين، جـ١، ص١٧١-١٧٢، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٥-٣٠٦، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٩.

[٣] الخليفة المستنصر بالله الفاطمى تولى الخلافة من سنة ٤٢٧هـ إلى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م.

[٤] الفاسى: العقد الثمين، جـ٥، ص١٤-١٥، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢٠١-٢٠٢

[٥] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٢، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٢-٢٦٣، أنظر أيضاً شارل مورتيل، نفس المرجع ، ص٢٢-٢٣.

وعند وصولهم إلى مصر قام الخليفة الفاطمى بكسوتهم، وأغدق عليهم فى عطائه وأجرى عليهم الأرزاق سنة كاملة، ثم رحلوا بعد ذلك إلى مكة، عندما زالت أسباب القحط. وأضاف ناصر خسرو أن الخليفة المستنصر بالله كان يرسل إلى أمير مكة شكر بن أبى الفتوح كل شهر ثلاثة آلاف دينار، ويرسل إليه الخيل والخلع مرتين فى السنة[١].

ويبدو أن الفاطميين خفضوا فيما بعد نفقاتهم على أشراف مكة إلى النصف مما أدى إلى تذمر بعض الحسنيين فى مكة. لذلك حصل انشقاق فى صفوف الموسويين أى بنى موسى الثانى من الحسنيين، بين مؤيد للفاطميين ويتزعمهم شكر بن أبى الفتوح أمير مكة، وبين معارض لسياسة شكر وأتباعه تجاه الفاطميين ومؤيد لعودة الخطبة لبنى العباس. واستفحل هذا الانشقاق فى صفوف أشراف مكة، ويبدو أن الفريق المعارض أصاب بعض النجاح، فاضطر شكر بن أبى الفتوح إلى الاستعانة ببنى عمه الحسنيين حكام المدينة، وأرسل لهم قصيدة يستثير بها هممهم. ويطلب منهم الاتحاد لمقاومة أولئك الذين يريدون عودة النفوذ العباسى، ويذكرهم فيها بالمآسى التى أحلها بنو العباس بالعلويين. ولم يهرع الحسينيون لمساعدة شكر، بل ناصروا الفريق المعارض الذى يرغب إعادة الخطبة لبنى العباس[٢].

ساءت أحوال شكر بن أبى الفتوح، وخاف من مناصرة تحالف الطالبيين، فذهب إلى مصر لمقابلة الخليفة المستنصر بالله، وطلب مساعدته فى العودة إلى إمارة مكة وإعادة الخطبة لهم بها، ويبدو أنه وصل مصر أواخر سنة ٤٤٠هـ أو أوائل سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩-١٠٥٠م بدليل أن ناصر خسرو ذكر أنه بعد أن أكمل فريضة حج عام ٤٤٠هـ/١٠٤٩م، توجه إلى مصر، فى صحبة أمير مكة[٣]. وكيفما كان الأمر فقد عاد النفوذ الفاطمى إلى مكة بعودة شكر

---

[١] ناصر خسرو: سفرنامة، ص١١٢.
[٢] لتفصيل ذلك وعن القصيدة التى أرسلها شكر إلى الحسينيين، أنظر الزيلعى: مكة، ص٥٩-٦٠.
[٣] ناصر خسرو، سفرنامه، ص١١٣.

إليها من مصر. واستطاع بالمساعدات المالية التى حصل عليها من الفاطميين، أن يستعيد نفوذه فى مكة، سواء بالاستعانة بقبائل البدو، أو بشراء ضمائر بعض الأشراف المعارضين له. ولم يكن فى إمكان العباسيين التدخل وإخراج مكة من أزمتها الاقتصادية فى تلك السنوات، بسبب فوضى البويهيين والأتراك، وخلافاتهم مع الخليفة العباسى القائم قبيل دخول طغرلبك إلى بغداد[١].

وقد استمر الوضع فى بلاد الحجاز خاصة فى مكة المكرمة لصالح الفاطميين، إلى أن توفى أميرها شكر بن أبى الفتوح سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م. وكانت فترة حكمه ثلاثاً وعشرين سنة[٢].

وأنتهى حكم الأسرة الموسوية، لأن أبا الفتوح لم يكن له ولد سوى شكر الذى لم ينجب إلا بنتاً. وبموت شكر انقرض حكم الموسويين بمكة إذ تولى الإمارة بعد شكر عبد من عبيده[٣].

أما عن أخبار هذا العبد الذى تولى امارة مكة المكرمة بعد موت أميرها شكر بن أبى الفتوح سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م، فإن المصادر لا تذكر عنه شيئاً ويبدو أنه لم يقم بدور يستوجب ذكره فى هذه الفترة القصيرة من حكمه[٤]. وسادت فوضى مريعة فى مكة، وتمرد العلويون على الأمير العبد، وكان أشدهم غضباً بنو أبى الطيب، الذين اطلق عليهم لقب السليمانيين. وسبق أن تولى واحد منهم أمارة مكة وهو أبو الطيب داود بن عبد الرحمن، عندما أعلن أبو الفتوح نفسه خليفة، وخرج إلى الرملة[٥]. وهاجم الطيبون مكة، وانتزعوها من الأمير العبد، وتولى امارتها محمد بن أبى الطيب عبد الرحمن بن القاسم. إلا أن بنى الطيب السليمانيين لم يحسنوا السيرة فقد اشاعوا

[١] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٦٠.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٩، الفاسى: العقد الثمين، جـ٥، ص١٤-١٥، السنجارى: صنائع الكرم، جـ١، ص٢٦٢-٢٦٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٥-٣٠٧، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص٣٤.

[٣] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٢-١٠٣، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٥-١٩٦ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٧: الزيلعى، مكة، ص٦١.

[٤] أنظر: ابن خلدون: تاريخ، جـ٢، ص١٠٢-١٠٣.

[٥] أنظر ما سبق، ص٤٤-٤٥.

السلب والنهب فى مكة وتجاوزوا ذلك إلى أخذ ميزاب الكعبة وتعريتها من الكسوة. وعندما زاد الأمر سوءاً قبض بنو هاشم عل زمام الأمور، ونحوا بن أبى الطيب عن امارة مكة وبذلك انتهى حكم السليمانيين، الذين ذهبوا إلى اليمن ومعهم حلية الكعبة[١]. وبدأ حكم الهواشم بمكة المكرمة وهو موضوع الفصل الثانى.

---

[١] أنظر الزيلعى، مكة، ص٦٣-٦٥، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص٣٥.

الفصل الثانى

حكم الهواشم بمكة المكرمة
٤٥٤-٥٦٧هـ/١٠٦٢-١١٧١م

- استيلاء محمد بن جعفر بن أبى هاشم الحسنى على أمارة مكة المكرمة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م
- دخول على بن محمد الصليحى إلى مكة وإعادة الخطبة للفاطميين ٤٥٥هـ/١٠٦٣م
- عودة على الصليحى إلى اليمن واستمرار حكم الهواشم لمكة المكرمة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م
- النزاع الأسرى وأثره فى إضعاف حكم الأشراف والهواشم.

استيلاء محمد بن جعفر أبي هاشم الحسني على إمارة مكة:

تتبعنا في الفصل الأول، حكم الأشراف الموسويين بمكة المكرمة حتى نهاية حكمهم سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م على يد الهواشم الذين اتاحت لهم بعض الظروف الانقضاض على الحكم بمكة.

ولابد من الإشارة إلى أصل الهواشم قبل الحديث عن حكمهم لمكة المكرمة وبسط سيطرتهم على الحجاز: ينتسب الهواشم إلى أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله ابن حسن بن الحسن السبط[١]. وذكر الفاسي في العقد الثمين[٢]، أنه حدثت بين الهواشم والسليمانيين فتن متصلة. ولما مات شكر بن ابى الفتوح سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، انتقلت الإمارة إلى الهواشم لعدم وجود من يعقب شكر، حيث أنه لم ينجب إلا بنتاً[٣]. وكان على رأس الهواشم وقتذاك محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم، الذى كان متزوجاً من أبنة شكر بن أبي الفتوح، فقام محمد بن جعفر بمحاربة السليمانيين، حتى أوقع بهم الهزيمة، وطردهم من مكة سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، وأخرجهم من الحجاز، فساروا إلى اليمن. وبذلك استقل محمد بن جعفر بن أبي هاشم بأمارة مكة، وخطب فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في مصر، معلناً الولاء والتبعية للفاطميين[٤].

أما عن السياسة الفاطمية نحو بلاد الحجاز، وبخاصة مكة المكرمة في عهد الخليفة المستنصر بالله، فقد اتسمت في بداية أمرها بالنجاح، ولكن ما

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٢-١٠٣، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٧٠- ٢٧١.

[٢] الفاسي: العقد، جـ١، ص٤٣٩-٤٤٠.

[٣] أنظر ما سبق، ص٥٧.

[٤] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٢-١٠٣، القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٠-٢٧١، عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص٢٢٧-٢٢٨، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧، النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز، ص١٩.

لبث أن اعتراها الوهن والضعف. ويبدو أن نجاحها لم يرجع إلى جهود الخلافة الفاطمية وحدها فقط، بقدر ما رجع إلى ظهور بعض الدعاة الأقوياء فى شبه الجزيرة العربية، وبخاصة في اليمن، الذين كانت علاقتهم بالخلفاء الفاطميين حسنة، فساهموا فى رفع شأن الدعوة الفاطمية فى بلاد الحجاز. ومن أبرز هؤلاء الدعاة: على بن محمد الصليحى، الذى استطاع أن يؤسس دولة قوية فى اليمن، دانت بالولاء الكامل للفاطميين بمصر[١].

وشجع الخليفة المستنصر بالله الفاطمى داعيته فى بلاد اليمن على بن محمد الصليحى، ومنحه الألقاب التى لم تعرف من قبل، فأصبح على الصليحى يلقب بالأمير الأجل، الأوحد، أمير الأمراء. وكان الخليفة المستنصر بالله يرسل له رايات الخلافة والويتها، والحقيقة أن هذه العلاقة الطيبة بين الخلافة الفاطمية فى مصر والدولة الصليحية فى اليمن، جعلت الخليفة الفاطمى المستنصر بالله يستغل على بن محمد الصليحى لبسط نفوذه على بلاد الحجاز، الذى كانت تسوده فى هذه الفترة الفوضى والفتن بسبب منافسة العباسيين للفاطميين. وعادت الخطبة فى مكة المكرمة للخليفة العباسى القائم بأمر الله [٤٢٢-٤٦٧هـ][٢] فى تاريخ لم تذكره المصادر المتداولة. فلما علم بذلك الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، عهد إلى داعيته باليمن على بن محمد الصليحى بإرسال حملة عسكرية إلى مكة المكرمة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٢م. وتوضح السجلات التى وجهت من الخليفة المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى الأهمية الكبرى للأماكن والمشاعر المقدسة فى بلاد الحجاز عند الخلفاء

---

[١] أنظر: حياة مرسي: دور السيدة الحرة أروى، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الشريعة - جامعة أم القرى، ص٥٣، وعلى بن محمد الصليحى كان ابوه قاضياً على مذهب أهل السنة، وعدل عنه ابنه محمد. والصليحى نسبة إلى الأصلوح من بلاد حراز. وتاريخ ظهور الصليحى موضع خلاف بين المؤرخين، غير إنه انتمى إلى المستنصر بالله الخليفة الفاطمى فى مصر، وخطب له باليمن، وأزال دعوة بنى العباس منها. وصحب عامر بن عبد الله الرواضى أحد دعاة الفاطميين، فمال إلى مذهبهم وصار إماماً فيه. وكان على بن محمد الصليحى يقوم بالحج، ويتألف من الناس من يتوسم فيهم الاقبال عليه، حتى كان له ستون نصيراً من مختلف القبائل حالفوه بمكة فى موسم سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م على الدعوة للخليفة الفاطمى المستنصر. ولم تأت سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م حتى ملك اليمن كله، سهله ووعره وبره وبحره، من مكة إلى عدن إلى حضرموت.

أنظر: ابن الأثير، الكامل، جـ١٢، ص٦٧، اليمانى: تاريخ اليمن، ص٤٩، ابن تعزى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥،ص٥٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ٣، ص٣٤٦-٣٤٨، الزركلى: الأعلام، جـ٤، ص٣٢٨، حياة مرسى: نفس المرجع، ص٥٤.

[٢] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٣، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٠، سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص٢٠.

الفاطميين فى مصر. وتتضمن هذه السجلات، وقائع وحوادث، تتفق مع ما ورد فى المصادر التاريخية، وتوضح حقيقة العلاقات السياسية، والمذهبية بين اليمن ومصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى[١].

ولسنا فى حاجة إلى أن نسرد تاريخ اليمن بالتفصيل فى هذه الدراسة، أو نتعرض للعلاقات السياسية والمذهبية بين الصليحيين والفاطميين غير إن الخلفاء الفاطميين حثوا الصليحيين فى اليمن على التدخل فى شئون بلاد الحجاز، فقد حرص الفاطميون غاية الحرص على أن يخطب للخليفة الفاطمى فى الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

دخول على بن محمد الصليحى إلى مكة وإعادة الخطبة للفاطميين ٤٥٥هـ/١٠٦٣م

بناء على ما اسلفنا فقد خرج على بن محمد الصليحى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م فى حملته العسكرية إلى مكة المكرمة لإعادة الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله، وكان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله يثق بالصليحى، ويطمئن إليه فى نشر دعوته، وتمكن الصليحى من هزيمة أمير مكة محمد بن

[١] أنظر: السجلات المستنصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد، سجل رقم ٣، ص٣٧، وسجل رقم ٤، ص٣٩، حسن محمود سليمان: الصليحيون فى اليمن، ص٢٥٥.

جعفر، الذى هرب إلى البادية[١]. ودخل الصليحى إلى مكة المكرمة هو وزوجته السيدة الحرة الصليحية[٢]. وكان الصليحى حريصاً كل الحرص على العناية بمكة المكرمة، فعندما دخلها، بادر إلى كسوة الكعبة بثياب بيض، شعار الفاطميين[٣]. كما أعاد ذخائر، وحلى البيت العتيق، التى كان بنو سليمان قد أخذوها، وذهبوا بها إلى اليمن بعد ابتياعها منهم[٤]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الأشراف السليمانيين قد اقصوا عن الحكم نهائياً فى أواخر عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، ولكنهم كانوا قد تمكنوا قبل ذلك من العودة إلى حكم مكة، وطردوا الأمير محمد بن جعفر الذى لجأ إلى ينبع قبل أن يجمع قواته ويعيد الكرة عليهم ويجليهم عن مكة إلى اليمن[٥].

---

[١] ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٩٦، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٢٥٥، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦-١٩٧، ابن تعزى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢، اليمانى: تاريخ اليمن، ص٥٢-٥٣، القوصى: تجارة مصر: ص١١٣-١١٤، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٦٥.

[٢] السيدة الحرة: تعد السيدة الحرة من النساء القلائل اللاتى تولين الحكم فى العصر الإسلامى، وهى السيدة الثانية فى تاريخ اليمن التى تولت أمر مملكته، سبقتها فى ذلك الملكة بلقيس ملكة سبأ. وهى أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحى. وهى امرأة فاضلة ذات نسك وورع وفضل وكمال عقل وعبادة، وعلم يفوق الرجال. قامت بأمر الدعوة الفاطمية فى اليمن بعد وفاة ولدها المكرم عبد المستنصر من زوجها المكرم أحمد بن على بن محمد الصليحى. وقد بلغت السيدة الحرة منزلة عظيمة لدى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله لأنها قامت بتثبيت قواعد الدعوة الفاطمية فى اليمن. وبعد موت الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وإنقسام الدعوة إلى فرقتين نزارية نسبة إلى نزار الأيمن الأكبر المستنصر، ومستعلية نسبة لأبنه الأصغر المستعلى، قامت السيدة الحرة باظهار الدعوة فى اليمن إلى الإمام المستعلى ثم بعده إلى ابنه الأمر بأحكام الله. ولعبت السيدة الحرة دوراً هاماً فى تاريخ اليمن وفى تاريخ الدعوة الفاطمية بها حتى وفاتها سنة ٥٣٢هـ. ولم يكن هناك بين الصيلحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلف هذه السيدة وتسير سيرتها فزال ملك الصليحيين وآلت حصونهم وقلاعهم إلى الداعى محمد بن سبأ الزريعى، لتفصيل ذلك: أنظر أيمن فؤاد السيد، تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى، ص ١٤٤-١٦٤، جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص٧٨-٩٧.

[٣] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢.

[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٦٨، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، جـ٢، ص١٦١، رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٤.

[٥] لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن فهد، أتحاف الورى، جـ٢، ص٤٦٩-٤٧٠، الفاسى: شفاء، جـ٢، ص١٩٦، وأنظر ما يلى ص ٩٥-٩٦.

وكان من الطبيعي أن تتجه عناية على بن محمد الصليحي - بعد دخوله مكة المكرمة - إلى الإهتمام بالناحية الاقتصادية، فجلب إليها الأقوات، مما أدى إلى إنخفاض الأسعار، ورفع عنها الظلم، وضرب على أيدى القبائل العربية، التى كانت تقوم بالاعتداء على الحجاج[١].

وعندما وصلت أنباء الأعمال التى قام بها الصليحى فى مكة المكرمة إلى الخليفة الفاطمى، المستنصر بالله فى القاهرة، وجه بدوره رسالة إلى الصليحى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، أبدى له ارتياحه للخدمات الجليلة التى قام بها فى سبيل إقامة الدعوة، وتوطيد نفوذ الفاطميين فى بلاد الحجاز، وبخاصة مكة المكرمة، وأنعم عليه بلقب "عمدة الخلافة"[٢].

وأراد أمير مكة المكرمة، محمد بن جعفر الهاشمى التقرب إلى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، فكتب إليه مادحاً الأعمال التى قام بها داعيته على بن محمد الصليحى أثناء وجوده فى مكة المكرمة[٣]. وأرسل الخليفة المستنصر بالله بدوره سجلا إلى الصليحى، يشكره فيه على مجهوداته التى يؤديها لأهل مكة المكرمة[٤].

وكان لوجود على بن محمد الصليحى فى مكة المكرمة أثره فى عودة الخطبة للفاطميين من فوق منابرها، ومنابر المدينة المنورة. وصارت الخطبة تقام من فوق منابر مكة المكرمة للخليفة الفاطمى، وللصليحى، ولزوجته "الحره الكاملة"، لما قامت به من أعمال الخير بمكة المكرمة[٥].

---

[١] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ص٢٥٤.
[٢] سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص٧٩، حياة مرسى: دور السيدة الحرة أروى، ص٦٥.
[٣] السجلات المستنصرية، سجل رقم "١"، ص٢٠٣.
[٤] السجلات المستنصرية، سجل رقم "٤"، ص٢١٤.
[٥] الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص٢٣٨-٢٣٩.

وأقام على بن محمد الصليحى بمكة المكرمة، حتى انتشر الوباء بين جنده، فمات منهم حوالى سبعمائة رجل، ولم يبق معه إلا نفر يسير. ونظراً لأن إقامة الصليحى بمكة المكرمة كانت لمدة محددة معينة لضرورة عودته إلى اليمن، فإن الخليفة المستنصر بالله لجأ إلى استمالة أمير مكة محمد بن جعفر ابن أبى هاشم، فشجعه بمنحه الألقاب، الشريفة، فلقبه بلقب "الشريف لأجل نسيب الدولة، وعزها مجد المعالى"[١].

عودة على الصليحى إلى اليمن
واستمرار حكم الهواشم لمكة المكرمة
٤٥٦هـ/١٠٦٤م

يبدو أن الهواشم من بنى الحسن التجأوا إلى على بن محمد الصليحى، وطلبوا منه أن يختار واحداً منهم ليكون أميراً على مكة قبل عودته إلى اليمن. وأضطر الصليحى - قبل خروجه من مكة المكرمة إلى اليمن - إلى تعيين محمد بن جعفر بن ابى هاشم نائباً عنه فى مكة المكرمة عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م. وتذكر المصادر التاريخية أنه أضطر إلى ذلك بسبب فقده أكثر جيشه[٢].

وعند تتبع الحوادث التاريخية فى مكة المكرمة، نجد أن الأمور لم تستقر بها بعد رحيل الداعية على بن محمد الصليحى إلى اليمن، فقد طمع

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٦٧-٤٦٨، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢، عبد المنعم ماجد: الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص١٢٠-١٢١، السجلات المستنصرية: سجل رقم "٤٠".

[٢] أنظر: ابن فهد، إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٦٩-٤٧٠، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٥٥هـ، الفاسى: العقد، جـ١، ص١٧١-١٧٢، جـ٧، ص٢٣٩-٢٤٤، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٥-٣٠٧، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٦٦.

الأشراف السليمانيون في إمارة مكة مرة أخرى، فأغاروا عليها، ونهبوها، وأزاحوا عن إمارتها أميرها محمد بن جعفر بن أبي هاشم، الذي خرج إلى وادي ينبع[١]. وأضطر علي بن محمد الصليحي إلى منع أهل اليمن من الحج إلى بيت الله الحرام، وانعكس هذا على أهل مكة حيث ارتفعت الأسعار، وساءت الأحوال الاقتصادية، وزادت البلية لسوء إدارة السليمانيين. لذلك تجمع حول محمد بن جعفر كثير من أنصاره، وزحف بهم إلى مكة المكرمة قاصداً العودة إلى حكمها مرة ثانية، فقامت بين السليمانيين وبين الهواشم بزعامة محمد بن جعفر بن أبي هاشم حروب انتهت بهزيمة بني سليمان، وإقصائهم عن حكم مكة المكرمة. ويذكر ابن فهد، وغيره من المؤرخين: أن محمداً بن جعفر كان يتحلى بشجاعة نادرة وصمود أمام المواقف الصعبة، مكنة من التغلب على بني سليمان والعودة إلى حكم مكة المكرمة[٢].

وفي عام ٤٥٧هـ/١٠٦٤م حج بالناس من بغداد نقيب الطالبيين[٣]. "أبو الغنائم" وقام أبي الغنائم بمحاولة لوقف الخطبة للفاطميين من فوق منابر مكة المكرمة، وإعلان الخطبة للعباسيين. فاستجاب له أمير مكة محمد بن جعفر بن أبي هاشم، ودعا للعباسيين، ولم يدع للخليفة الفاطمي[٤]. ويتضح من هذه الحادثة أن أمير الحج العراقي استطاع - بطريق المال - أن يعيد الخطبة للعباسيين، ولعل أمير مكة قد ووافقه لأن الظروف الاقتصادية في مكة المكرمة كانت غير مستقرة. وذكر سبط ابن الجوزي[٥]. أنه بعد وقوف حجاج بيت الله الحرام بعرفة في تلك السنة [٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م] ونزولهم إلى الخيف، خرج عليهم عبيد مكة ونهبوهم، فرحلوا إلى المدينة المنورة، ولم يطف أحد بالبيت الحرام في موسم ذلك العام.

---

[١] ينبع: بالفتح ثم السكون، والباء موحدة مضمومة وعين مهملة، بلفظ ينبع الماء، وينبع حصن به نخيل وماء وزرع، وتقع بين مكة والمدينة في أقصى شمال تهامة، وسميت ينبعاً لكثرة ينابيعها.أنظر: ياقوت الحموي:معجم البلدان، جـ٥، ص٤٤٩-٤٥٠.
أنظر أيضاً: Abdullah Al-Wahabi, The Northern Hijaz in the writings of the Arab Geographers, pp 312.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٦٩-٤٧٠، السنجاري: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٥-٢٦٦، الفاسي، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦، العقد الثمين، جـ١، ص ٤٣٩-٤٤٠.

[٣] عن نقيب الطالبيين، أنظر ما سبق ص ٢٧، حاشية رقم ٢.

[٤] العيني: عقد الجمان، حوادث سني ٤٥٧هـ، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٠-٤٧١، السنجاري: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٤-٢٦٥.

[٥] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٤١.

وتحدث العينى فى "عقد الجمان" عن استمرار قطع الخطبة للفاطميين فوق منابر مكة المكرمة، وإعلان الخطبة للعباسيين بسبب تأثير أبى الغنائم نور الدين المهدى الزينبى، نقيب الطالبيين على أمير مكة محمد بن جعفر بن أبى هاشم وكان ذلك فى سنتى ٤٥٨، ٤٥٩هـ/١٠٦٥، ١٠٦٦م[١].

وعندما وصلت أنباء إقامة الخطبة للخليفة العباسى إلى مسامع الخليفة الفاطمى فى القاهرة المستنصر بالله، قطع الميرة المصرية عن الحجاز، وهدد الهواشم الذين ينتمى إليهم محمد بن جعفر بن أبى هاشم، بالوقوف إلى جانب السليمانيين أمراء مكة السابقين، والمنافسين التقليديين لبنى هاشم على امارة مكة المكرمة. غير إن الخطبة استمرت تقام لبنى العباس من على منابر مكة المكرمة فأضطر المستنصر الفاطمى إلى الكتابة إلى داعيته على بن محمد الصليحى - صاحب الدعوة الفاطمية فى اليمن - بأن يسير مرة أخرى إلى مكة المكرمة، ويعمل على إقصاء بنى هاشم، ومساعدة السليمانيين للوصول إلى ولاية مكة المكرمة. فخرج على بن محمد الصليحى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م متوجهاً إلى الحجاز لكنه قتل وهو فى طريقه إلى مكة عند موضع يقال له "المهجم"[٢]. على يد سعيد بن نجاح الأحول[٣].

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٥٨-٤٥٩هـ.

[٢] المهجم: بلدة من أعمال زبيد باليمن، كان بينها وبين زبيد ثلاثة أيام أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٢٩.

[٣] الفاسى، العقد الثمين، جـ١، ص٤٤٠-٤٤١. الجرموزى: أخبار ملوك اليمن، ورقة "١٥"وسعيد بن نجاح الأحول: كان أبوه نجاح عبداً حبشياً، فصار ملكاً جليلاً تهابه ملوك اليمن. وكانت وفاته سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م بسم دسه له الصليحى مع جارية أهداها له، وأمرها بسقيه السم، فسقته فمات من ذلك. أما سعيد الأحول بن نجاح تملك هو وأخوه جياش بعد وفاة أبيهما، وقد قصدهما الصليحى لقتالهما، فهربا منه إلى جزيرة دهلك ،لى أن تمكن سعيد بن نجاح من قتل محمد بن على الصليحى آخذاً بثأر أبيه. واستمر سعيد فى ملك التهائم إلى أن تمكنت امرأة الصليحى من قتله سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م، أنظر: أحمد زينى دحلان: تاريخ الدولة الاسلامية، ص١٦٨، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٦٩، حياة مرسى: دور السيدة الحرة أروى فى اليمن، ص٦٥-٦٦.

وأضطر أمير مكة محمد بن جعفر بن ابى هاشم إلى إعادة الخطبة على منابر مكة المكرمة مرة أخرى للفاطميين، وذلك بسبب ما عانته مكة المكرمة من ضائقة اقتصادية لعدم وصول الميرة من مصر، وكذلك بسبب محاولات الخليفة الفاطمى نقل ولاية مكة المكرمة من حكم الهواشم إلى السليمانيين أمراء مكة السابقين.

والحقيقة أن أمير مكة محمد بن جعفر لم يستمر طويلا فى الخطبة باسم الفاطميين، إذ قطع سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م الخطبة للفاطميين، ودعا للخلفاء العباسيين[١].

ولاشك أن سوء أحوال مصر الاقتصادية أثناء الشدة العظمى أو الشدة المستنصرية وعجز الخلفاء الفاطميين عن الوفاء بالتزامات الخلافة الفاطمية نحو بلاد الحجاز، كان من الأسباب التى أدت إلى تحول أمير مكة محمد بن جعفر إلى العباسيين[٢]. وكان أمير مكة ابن أبى هاشم قد ارسل رسولا إلى بغداد استقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله، والسلطان السلجوقى ألب أرسلان. وعرض رسول ابن أبى هاشم عليهما قطع الخطبة للفاطميين من فوق منابر مكة المكرمة، والدعاء باسم العباسيين، مقابل إمداده ببعض الأموال. فأسرع العباسيون إلى منح أمير مكة ثلاثين ألف دينار، وخلعاً نفيسة، وقرروا له راتباً سنوياً مقداره عشرة آلاف دينار[٣].

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٠-٤٧١.

[٢] عن الشدة المستنصرية ونتائجها، أنظر: المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٢٤-٢٧، ابن تعزى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٨٤.

[٣] السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٤-٢٦٥، الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص٤٤٠-٤٤١، عماد الدين الأصفهانى: تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٨، سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص١٣٣.

وأراد العباسيون أن تتم لهم السيطرة الكاملة على بلاد الحجاز، فأمنوا أمير المدينة المنورة "مهنا" أيضاً بأن منحوه هبه مالية مقدارها عشرون ألف دينار، وراتباً سنوياً مقداره خمسة آلاف دينار، مقابل الدعوة لهم[١]. وبهذه الطريقة نجح العباسيون فى إعادة بلاد الحجاز إلى دائرة سيطرتهم مرة أخرى بعد مرور حوالى مائة عام من هيمنة الفاطميين على كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة[٢].

وتوثقت صلات الخلفاء العباسيين وعلاقتهم بأمير مكة المكرمة محمد بن جعفر، ففى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م زحف أمير مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بسبب تردد أميرها فى قبول عطاء الخليفة العباسى، واستولى بمن معه من الأتراك على المدينة المنورة، وأخرج منها بنى الحسين، وبهذا تمكن أمير مكة محمد بن جعفر أن يكون مثل أميرها أبى الفتوح، وأبنه شكر اللذين استطاعا أن يجمعا فى وقت واحد بين أمارتى مكة المكرمة والمدينة المنورة[٣].

وتطورت العلاقات بين العباسيين والحجازيين.ففى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م حج بالناس أبو الغنائم العباسى، وكانت الخطبة فى موسم تلك السنة للخليفة العباسى القائم بأمر الله، وللسلطان السلجوقى الب أرسلان. وأرسل الخليفة الزينـى القائم بأمر الله الشريف ابا طالب الحسن بن محمد إلى أمير مكة محمد بن جعفر بن ابى هاشم، طالباً منه قطع الآذان الشيعى [حى على خير العمل]، الذى كان يقام فى مكة المكرمة وقتذاك، وكان أيضاً يعتبر مظهراً من

---

[١] الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص٤٤٠-٤٤١، ابن الأثير: الكامل، جـ١، ص١٠٧-١٠٨ سرور: النفوذ الفاطمى، ص١٩-٢١.

[٢] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣٠٣-٣٠٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٣-٤٧٤.

[٣] ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٧-٣٠٨، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٧٠-٢٧١، عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص٢٣٠-٢٣٢.

مظاهر النفوذ الفاطمى[١]. ويبدو أن أبا هاشم لم يقتنع بما طلبه العباسيون، بدليل انه قد جرت مناظرة بين أمير مكة وبين أمير الحج العراقى حول قطع الآذان الشيعى، حيث قال أمير مكة له" هذا آذان أمير المؤمنين على بن ابى طالب". فقال له أخو الشريف أبى طالب: "ما صح عنه، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى روى عنه أنه أذن به فى بعض أسفاره، وما أنت وابن عمر ولقد أضطر أمير مكة ابن أبى هاشم إلى اسقاط هذا الآذان أمام إغراء العباسيين له[٢].

إستمرت الخطبة تقام فى بلاد الحجاز باسم العباسيين حتى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م. ففى تلك السنة بدأت محاولة فاطمية جديدة لإعادة نفوذهم على الحجاز مرة أخرى. وتمثلت هذه المحاولة فى أن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله - حين بلغه أن الخطبة أقيمت لبنى العباس فى بلاد الحجاز - أرسل رسولين إلى أمير مكة لاستمالته للدولة الفاطمية. ولم يلتفت أمير مكة إليهما، ولم يلق لهما أى اهتمام وظل على ولائه للعباسيين، وبخاصة لاستمرار عطايا الخليفة العباسى إلى بلاد الحجاز. يضاف إلى ذلك أن رسول الخليفة العباسى جمع من حجاج بيت الله الحرام فى موسم ذلك العام أموالا كثيرة أعطاها إلى أمير مكة ابن أبى هاشم[٣].

---

[١] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٨٩.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٢-٤٧٣، سرور: النفوذ الفاطمى، ص٢١-٢٢، عبد المنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص٢٣٠-٢٣٢.

[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٦٦هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٤-٤٧٦، الفاسى: العقد، جـ٢، ص٤٤٠-٤٤١، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٦.

وفى السنة التالية [٤٦٧هـ/١٠٧٤م] تحسنت الأوضاع الإقتصادية فى الدولة الفاطمية، بعد أن تولى الوزارة الفاطمية فى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى[١]. أما عن العوامل التى ساعدت بدر الجمالى على إعادة بلاد الحجاز إلى النفوذ الفاطمى مرة أخرى فأهمها: أن العباسيين قطعوا ما كانا يرسلونه من أعطيات وهبات إلى أهل الحجاز، وبخاصة أهل مكة بعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، وقبله السلطان آلب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، فى الوقت الذى استقرت فيه الأمور بمصر بعد الشدة العظمى، وبعد أن استتبت الأمور لبدر الجمالى فى مصر وجه نظره إلى الحجاز، فأرسل إلى أمير مكة محمد بن جعفر يدعوه للعودة إلى طاعة الفاطميين وبخاصة بعد وفاة الخليفة العباسى القائم بأمر الله، والسلطان السلجوقى الب أرسلان، مهدداً إياه فى حالة رفضه أن يحرض عليه بنى عمومته من الأشراف، لأخذ الأمارة منه، وقال له: "إن إيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان، وقد ماتا"، أى: إن الحجة التى كان يحتج بها قد زالت بموتهما[٢]. وعندما لم يستجب أمير مكة لإعادة الخطبة للمستنصر الفاطمى، راسل بدر الجمالى المقدمين من بنى عمومته ضده. متخذاً أسلوب التهديد والوعيد، وأخيراً أضطر أمير مكة ابن ابى هاشم إلى الاستجابة لأمير الجيوش بدر الجمالى كارهاً، خاصة بعد أن اجتمع إليه بنو عمومته، والمقربون اليه، وقالو له "إنما سلمنا هذا الأمر إلى بنى العباس لما عدمنا المعونة من مصر، ولما رجعت إلينا المعونة، فإنا لا نبتغى من ابن عمنا بدلا"[٣]. واستجاب أمير مكة لرغبتهم فى العودة إلى الولاء للفاطميين، وبخاصة بعد أن اشتد الغلاء ببلاد الحجاز وقطعت الميرة[٤] عنه.

---

[١] بدر الجمالى: هو أبو النجم أمير الجيوش بدر بن عبد الله الجمالى أرمنى الجنس، تقدم فى الخدمة، حتى ولى امارة عكا للخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م ثم لجأ إليه المستنصر بسبب الشدة العظمى، فبادر بالاستجابة إلى دعوة الخليفة. وجاء بدر الجمالى إلى مصر سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م فوطد للمستنصر الفاطمى أركان الدولة، ولبس خلعه الوزارة بمصر، وكانت منزلته قبل ذلك أجل من الوزارة، ولكن لبسها حتى لا يعين احد فى الوزارة فينازعه فى الأمر، توفى فى القاهرة سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، أنظر: ابن الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٥٥-٥٦، ابن تعزى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٠١، الزركلى: الأعلام، م٢، ص٤٥، المناوى: الوزارة، ص٣٧.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٦٧هـ، ابن تعزى بردى: النجوم جـ٥، ص٩٧، الفاسى: العقد، جـ١، ص٤٤١-٤٤٢، المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣١٤-٣١٥: الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧٣.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٧-٤٧٨.

[٤] المناوى: الوزارة، ص٢١١.

وهكذا عادت الخطبة فى بلاد الحجاز للخلفاء الفاطميين. وقام أمير مكة ابن أبى هاشم بتوزيع الأعمال التى أرسلت من مصر، وكذلك أزال ألقاب الخليفة العباسى القائم، والسلطان ألب أرسلان من لوح كان على زمزم. ونزعت الكسوة الخراسانية، وجعل مكانها كسوة بيضاء دبيقية[١]، عليها ألقاب المستنصر، وردت الأسماء الفاطمية التى كانت قد خلعت من قبة المقام[٢].

استمرت الخطبة تقام فى مكة المكرمة للفاطميين لمدة سنة واحدة فقط، ففى سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م أعيدت الخطبة فى مكة المكرمة للعباسيين مرة أخرى.

ويرجع السبب الرئيسى فى إعادة الخطبة للعباسيين فى تلك السنة إلى الدور الذى لعبه أحد العراقيين واسمه "سلار الحاج". فقد حضر ذلك الشخص إلى مكة المكرمة، وأتفق مع أميرها محمد بن جعفر بن أبى هاشم على أن يزوجه أخت السلطان السلجوقى جلال الدولة ملكشاه فرحب الأمير بذلك. وقبل أن يوافق على ذلك أرسل ابن أبى هاشم رجلين من ثقاته إلى مصر، لينظرا فى الأمر، وهل ترجى من الخليفة الفاطمى الهبات والعطايا أم لا؟ فعاد هذان الرجلان من مصر وأخبراه بفساد الأحوال، ونفاذ المال. ورغم أنهما حملا إليه ألف دينار، أنفذها الخليفة الفاطمى لابن أبى هاشم، إلا إن أمير مكة تلقى كتابا من "سلار" يخبره فيه بالموافقة على أمر خطبة أخت السلطان ملكشاه له، وأن الخلافة العباسية منحته عشرين ألف دينار، أخرجوا منها عشرة آلاف دينار للمهر. فرأى أمير مكة ابن أبى هاشم أن دنانير المهر قد أخذت،

---

[١] ودبيق بليدة كانت بين الفرما وتنيس [بحيرة المنزلة حالياً] من الأعمال المصرية، من أشهر مراكز صناعة النسيج فى العصر الفاطمى تنسب إليها الثياب الدبيقية، أنظر: ياقوت، معجم البلدان، جـ٢، ص٤٣٨.

[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٢٩٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٧-٤٧٨.

والوصلة أى الخطبة قد تمت. لذلك أوجد ابن أبى هاشم لنفسه المبررات الكافية لإعادة الخطبة فى مكة المكرمة باسم العباسيين[١].

وفى سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م بعث الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله إلى مكة المكرمة أبا طالب الزينبى، لأخذ البيعة له من أمير مكة ابن أبى هاشم، وحمل معه هدايا وهبات كثيرة[٢]. وفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م عاد إلى مكة المكرمة الوفد الذى كان أرسله أميرها محمد بن جعفر إلى بغداد قبل ذلك، وقد صادف وصولهم إلى مكة وصول منبر كبير من بغداد - لوضعه فى المسجد الحرام - منقوش عليه بالذهب [لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الامام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين. مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جهير].

والغريب أن هذا المنبر - الذى أعده الوزير العباسى فخر الدولة أبو منصور محمد بن محمد بن جهير - وصل إلى مكة فى الوقت الذى أعيدت فيه الخطبة للفاطميين، وقطعت الخطبة للعباسيين واقتضى الأمر كسر ذلك المنبر، ثم تم إحراقه، بسبب ما كتب عليه. وهذه الحادثة التى حدثت فى مكة المكرمة تبرهن على أن الخطبة الفاطمية كانت قد أعيدت مرة أخرى فى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م. ويبدو أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، واصل أمير مكة بالعطاء[٣].

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٢٩٨، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٧-٤٧٨، الفاسى: العقد، جـ١، ص٤٤١-٤٤٢، المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣١٤-٣١٥، الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٧٥-٧٦.

[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٣٠٧، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٨-٤٧٩ بويع الخليفة المقتدى بأمر الله بالخلافة بعد وفاة أبيه الخليفة القائم بأمر الله فى سنة ٤٦٧هـ، وهو أبو القاسم عبد الله بن الذخير محمد بن القائم ولقب بالمقتدى بأمر الله. وتوفى فى عام ٤٧٨هـ عن ثمانية وثلاثين عاماً واستغرقت خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، أنظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦، ص٦٣٧-٦٣٨..

[٣] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٣، المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣١٩-٣٢٠، ريتشارد مورتيل: الأحول السياسية، ص٢٧ والوزير محمد بن جهيرهو أبو نصر فخر الدولة، أصله من الموصل ولد بها سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، وتولى الوزارة للخليفة العباسى القائم بأمر الله ثم لولده المقتدى، ثم عزله المقتدى ونفاه فى عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، لمزيد من التفاصيل أنظر، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥ ص١٣، القفطى، انباء الرواة، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، جـ١، ص٨٠.

وفى سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م، خرج بحجاج العراق "أبو منصور خطلغ" التركى أميراً عليهم. وعرف عن أبى منصور خطلغ سوء الخلق ومعاملته السيئة للحجاج. فقد روى الجزيرى[١]: أنه مشى بالحجاج من الكوفة إلى مكة فى تسعة عشر يوماً، كما أخذ منهم مكساً كبيراً، فعزل بسبب هذه الأعمال، وتولى بعده "خمارتكين" التركى. وكانت الأمور فى مكة مستقرة فى تلك السنة، فلم يحدث من الحوادث ما يجعل أميرها بقطع الخطبة للفاطميين. ولم يستمر أمير مكة المكرمة على وتيرة واحدة، فنجده تارة يدعو للعباسيين، وفى العام التالى للفاطميين وهكذا، كما كان يفعل أمراء مكة من الموسويين. وكل ذلك حسب ما تقدمه إحدى الدولتين من أموال، وخلع، وهبات، وهدايا، مثلما حدث فى عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م من أنه أعيدت الخطبة للخليفة العباسى، وقطعت خطبة الخليفة الفاطمى المستنصر[٢].

وعادت الخطبة الفاطمية بعد ذلك فى مكة المكرمة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥ أى بعد ست سنوات، وكانت الخطبة تقام فيها فى المسجد الحرام للخليفة العباسى المقتدى بأمر الله. ولما كان أمير مكة يفتقر إلى رأى واحد، وكان كما وصفه ابن تغرى بردى فى "النجوم الزاهرة" بأنه "رجل متلون" فإنه أعاد الخطبة للخليفة الفاطمى فى التاريخ المذكور آنفاً[٣]. ويذكر ابن فهد وغيره، أنه فى تلك السنة وقع الطاعون فى جميع البلاد، بما فيها بلاد الحجاز[٤]، وأنشغل الناس بهذا المرض الفتاك، الذى كانت له نتائجه السيئة على أهل مكة والمدينة.

---

[١] الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٧.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٧٢هـ، ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٣٢٣، المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٣٢٢.

[٣] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٤٠.

[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٢-٤٨٤، الجزيرى: الدرر الفوائد، ص٢٥٧.

على أن الخطبة للعباسيين ما لبثت أن عادت مرة أخرى على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة فى العام التالى ٤٧٩هـ/١٠٨٦م فيذكر ابن الأثير[١] فى حوادث هذه السنة "وفيها أسقط اسم الخليفة المصرى من الحرمين الشريفين، وذكر اسم الخليفة المقتدى بأمر الله". وكذلك ذكر ابن كثير[٢] "وقطعت فى هذا العام خطبة المصريين من مكة والمدينة، وقلعت الصفائح التى كانت على باب الكعبة والتى عليها ذكر الخليفة المصرى وجدد غيرها عليها، وكتب عليها اسم المقتدى".

وأستمرت الخطبة قائمة للعباسيين فى مكة إلى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م، عندما تحول أمير مكة مرة أخرى إلى الفاطميين فى سنة ٤٨٣هـ/١٠٩٠م. وكان لهذا الموقف أثره السيء فى نفوس القائمين بالأمور فى بغداد، إذ أرسلوا حملة عسكرية إلى مكة المكرمة للاستيلاء عليها. وطلبوا من أميرها أموال الكعبة ونهبوا مكة، وأحدثوا فيها فتنة عظيمة[٣].

وكان الغرض الأساسى الذى أرسلت من أجله الحملة العباسية إلى مكة المكرمة هو الاستيلاء عليها، بل والاستيلاء على بلاد الحجاز كله واليمن، وإقامة الخطبة للعباسيين بصفة دائمة مستقرة للخليفة العباسى، للسلطان محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقى[٤].

---

[١] ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص١٤٤؛ ابن فهد، اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٣-٤٨٤.

[٢] ابن كثير، البداية، جـ١٢، ص١٣٠.

[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦-١٩٧.

[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٥-٤٨٧، الفاسى: العقد الثمين، جـ١، ص١٨٧-١٨٨، ٤٤١-٤٤٢.

استمرت الخطبة للعباسيين حتى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م، ففى تلك السنة انقطع الحجاج العراقيون بل وحجاج المشرق كله لقيام الأعراب واللصوص وقطاع الطرق بقتل الحجاج ونهبهم ومطاردة من يبقى منهم على قيد الحياة فحدث أن حج بالناس فى هذا العام من دمشق وفد كبير تحت أمارة أحد المقربين إلى تاج الدولة "تتش"[١] فلما أتموا مناسك الحج على أحسن وجه، وهموا بالعودة إلى بلاد الشام، دبر أمير مكة محمد بن جعفر لهؤلاء مؤامرة للاستيلاء على أموالهم.

فبينما كان الحجاج الشاميون خارج مكة، إذ هجم عليهم جماعة من العسكر، الذين كلفهم أمير مكة بمهمة نهب أموالهم، والاستيلاء على ما معهم من المتاجر، وقام هؤلاء اللصوص بما كلفوا به، واستولوا على كثير مما كان مع الحجاج من متاع وإبل[٢].

وعندما ذهب الحجاج الشاميون إلى أمير مكة يستغيثون به، ويطلبون منه أن يعمل على إعادة ما سلب منهم، حيث أن ديارهم بعيدة، وليس لديهم ما يستطيعون أن يصلوا به إلى وطنهم أعاد لهم بعض ما أخذ منهم وعندئذ قرر الحجاج العودة إلى بلادهم[٣].

---

[١] هو أبو سعيد ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق من أمراء السلاجقة، استولى سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م على دمشق، بعد أن قبض على صاحبها اتسز الخوارزمى، وقتله، ثم تملك تاج الدولة تتش حلب سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، وجرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق منافرات وحروب، وتقابلا بالقرب من مدينة الرى، وانكسر تتش، وقتل فى المعركة سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م، ولما قتل تتش حمل رأسه إلى بغداد، وطيف به، ثم وضع فى خزانة الرؤوس. وخلف تتش ولدان أحدهما فخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك دقاق. فاستقر رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، لتفصيل ذلك .. أنظر: على محمد الغامدى: بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى، ص ٣٧٩.

[٢] ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٦٨.

[٣] المصدر السابق، جـ٨، ص ١٦٨.

وفى طريق العودة اعترضهم جموع من العرب فى عدة جهات، وبعد مناوشات وقتال قصير، تم الصلح بينهم على أن يتركوا لهم بعض الأموال، مقابل السماح لهم بمواصلة العودة إلى دمشق ووصلوا إليها بعد أن قتل منهم جماعة وافرة وهلك جماعة بالضعف والانقطاع وعاد السالم على أقبح صورة"[١].

ولاشك أن موقف أمير مكة محمد بن جعفر تجاه حجاج بيت الله الحرام من أهل الشام لا يقره الدين. فبدلا من حماية ورعاية حجاج بيت الله الحرام، وتأمين سلامتهم وإقامتهم، واشترك مع اللصوص وقطاع الطرق فى نهب أموال حجاج بيت الله الحرام الذى يقول الله عنه «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»[٢].

وفى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م توفى الخليفة العباسى المقتدى بالله، وبويع ابن المقتدى وهو أبو العباسى أحمد بن عبد الله الملقب بالمستنصر بالله خليفة للعباسيين. كما توفى فى نفس السنة الخليفة الفاطمى المستنصر، وبويع ابنه المستعلى، وخطب له بمكة[٣]. وفى نفس العام [٤٨٧هـ/١٠٩٤م] توفى أمير مكة محمد بن جعفر وقد جاوز سبعين سنة من العمر، وتولى بعده ابنه القاسم[٤].

---

[١] ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص ١٦٨، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٥-٤٨٧، الفاسى: العقد، ص٤٤٢-٤٤٣، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦-١٩٧.
[٢] القرآن الكريم: سورة البقرة، آية ١٢٥.
[٣] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٠-٢٧١.
[٤] ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص١٧٣، أبو الفدا: المختصر، جـ٢، ص٢٠٣، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٠-٢٧١، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص ٤٧٥-٤٨٧، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٤٠، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٧.

وذكرت المصادر التاريخية أن أمير مكة الجديد "قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم" واجه عدة صعوبات فى بداية حكمه الطويل إذ أرسل الخليفة العباسى حملة حربية إلى مكة بقيادة أحد قادته [أصبهبذ بن سارتكين]، واستولت هذه الحملة على مكة عنوة فى أوائل سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[١]. وهرب أمير مكة قاسم بن محمد إلى خارجها، وأقام القائد التركمانى بمكةالى شوال سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م وكان معه أكثر من أربعمائة فارس من التركمان، ولم يستعملوا الشفقة مع أهل الحرم المكى، فقتلوا كثيراً منهم، وقهروهم. ولكن المقام لم يستقر للغزاة العباسيين، فقد استطاع أمير مكة جمع الرجال حوله، وإعداد العدة لضرب هؤلاء الغزاة لمكة.

وفى طريق العودة إلى مكة تقابل فى عسفان[٢]. مع القائد التركمانى أصبهبذ فهزمه هزيمة حاسمة. ودخل قاسم بن محمد مكة، وأعاد إليها الأمن والأمان والاستقرار، بعد أن حدث أنه لم يحج إلى بيت الله الحرام فى ذلك العام أى حاج من خارج بلاد الحجاز، وذلك لاضطراب الأمور[٣].

واستقرت الأمور فى مكة خلال السنوات الواقعة بين سنتى ٤٨٩-٥٠٩هـ / ١٠٩٥-١١١٥م، ذلك لأن الخلفاء أنشغلوا خلال هذه الفترة بأمور دولتهم وترسيخ دعائم ملكهم.

---

[١] عن هذه الحملة أنظر: ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٥، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٥-٤٨٧، الفاسى: العقد، جـ١، ص١٧٢-١٧٣، شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٧-١٩٨، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٧-٣٠٨، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢٠٥-٢٠٦.

[٢] عسفان: سميت عسفان لتعسف السيل فيها: وهى على مرحلتين من مكة المكرمة بين الجحفة ومكة: أنظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص١٢١-١٢٢.

[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٧-٤٨٨، أنظر أيضاً: الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٧-٢٥٨: ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٧.

ومالبث التنافس أن عاد من جديد بين الخلافتين الفاطمية والعباسية حول توطيد نفوذ كل منهما فى مكة المكرمة فقد ذكر ابن فهد[١] أنه حدث فى سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م أن دخل أمير الجيوش يمن الخادم الحبشى المستظهرى[٢] مكة المكرمة لإعادة نفوذ العباسيين إلى الحجاز، وأثار الفوضى وبث الرعب بين الناس فى مكة[٣].

ومهما يكن من أمر فقد دخل يمن الخادم مكة المكرمة، وعلى رأسه الأعلام العباسية، وخلفه الكوسات النحاسية، والبوقات، والسيوف، وقصد أمير الجيوش يمن من دخوله مكة المكرمة على هذه الصفة بث الخوف والرعب لدى الخاصة والعامة، وإذلال أمير مكة المكرمة لعصيانه خليفة بنى العباسى. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم تنافس الخلافتين العباسية والفاطمية على مكة المكرمة، إلا إن أيا منهما لم تلجأ إلا نادراً إلى استخدام القوة العسكرية فى بسط نفوذها، وأتبعت الخلافتان الفاطمية والعباسية أسلوب الترغيب عن طريق العطايا المادية والهدايا، بالاضافة إلى استخدام الحصار الاقتصادى فى بعض الأحيان، كقطع الميرة، وحرمان أمراء الحجاز من مخصصاتهم المالية، التى كانوا يتقاضونها من الخلفاء العباسيين أو الفاطميين. ولاشك أن قدسية مكة المكرمة - لوجود الكعبة الشريفة فيها - حالت دون اتخاذ أسلوب التهديد العسكرى. ويفهم مما ذكره ابن الجوزى فى "المنتظم" أن التهديد العسكرى - الذى قام به القائد العباسى أمير الجيوش يمن المستظهرى عند دخوله مكة المكرمة - كان استعراضاً فقط لقواته داخل مكة المكرمة، وقد أدى هذا إلى ردود فعل عنيفة من قبل علماء المسلمين، لما فيه من انتهاك لحرمة البيت العتيق[٤]. ونتيجة لهذا الحادث الطارىء، بسط العباسيون نفوذهم على مكة المكرمة، وأخضعوا أميرها لمدة عامين فقط بين سنتى ٥١٠-٥١٢هـ/١١١٦-١١١٨م،

---

[١] ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢،، ص٤٩٤-٤٩٥.

[٢] يمن بن عبد الله أبو الخير المستظهرى، لقب بأمير الجيوش، كما أطلق عليه أيضاً لقب أمير الحاج، لأنه كان يتولى ذلك فى عهد الخليفة العباسى المستظهر بالله [٤٨٧هـ/٥١٢م] توفى فى ربيع الأول سنة ٥١١هـ، أنظر: ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٥٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٨٢.

[٣] من الجدير بالذكر أن هناك بعض المصادر ذكرت هذا الحدث فى حوادث سنة ٥١٠هـ/١١١٦م،أنظر:العينى:عقد الجمان، حوادث سنة ٥١٠هـ،أنظر أيضاً ابن تعزى بردى:النجوم الزاهرة،جـ٥،ص٢١١،ابن الجوزى، المنتظم، جـ٩، ص١٨٤-١٨٥.

[٤] ابن الجوزى، المنتظم، جـ٩، ص١٨٤-١٨٥.

ساعدهم فى ذلك إنقطاع الميرة التى كانت ترد من الفاطميين سوء الأحوال الاقتصادية فى مكة[١]. ووقد وصل الأمر إلى أن أمير مكة قاسم بن محمد أعد مراكب حربية سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، شحنها بالمقاتلين، وسيرها إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر[٢]. وهناك وجدوا مراكب لبعض التجار المصريين، فقاموا بنهب هذه المراكب، واستباحوا كل شيء[٣].

كان لهذا العمل أثره فى نفوس الفاطميين، حيث أسرع بعض التجار الناجين إلى الوزير الفاطمى أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى، وأخبروه بما فعله المهاجمون من أهل مكة، الذين أرسلهم أميرها. عند ذلك غضب الوزير الفاطمى غضباً شديداً، وأسرع بإعداد جيش، وأسطول كبير، وأتصل الوزير الأفضل بوالى قوص فى صعيد مصر، وأمره بسرعة إعداد الأسطول، وأمره أن يقود الأسطول بنفسه، أو من ينوب عنه. ثم كتب إلى أشراف مكة يخبرهم بما فعل أميرهم، وأقسم مهدداً بالانتقام من أمير مكة، وذلك بمنع الحجاج عن الذهاب إلى مكة، ومنع الميرة عن مكة المكرمة حتى يقوم أميرها برد جميع ما نهب وسلب من التجار. ولما ورد إلى أشراف مكة رسالة الوزير الفاطمى، وما لمسوه من بوادر حصار اقتصادى على مكة، أرسلوا رسولا منهم لاستطلاع الأمر، فلما وصل رسول الأشراف إلى ساحل البحر الأحمر عند عيذاب، رأى بعينه الإعداد العسكرى لتأديب أمير مكة، ولما رأى ما رأى من التجهيزات. عند ذلك أصر رسول الأشراف على ضرورة الاتصال بالفاطميين، وتعهد لديهم برد كل ما نهب وما سلب من أموال التجار. وطلب منهم مهلة من الوقت حتى يتصل بأمير مكة، وطلب تأجيل إرسال الحملة، وقفل راجعاً إلى مكة[٤].

---

[١] أنظر: ابن الجوزى: المنتظم، جـ٥، ص ١٨٤-١٨٥.

[٢] عيذاب: لعب ميناء عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة دوراً هاماً فى تجارة البحر الأحمر، وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فى عيذاب عند قدومهم، أو عند رحيلهم عنها وذلك لعمق وغزارة مياة عيذاب، وخلوه من الشعاب المرجانية، التى تتعرض لها الملاحة فى البحر الأحمر. وشهد ابن جبير فى رحلته إلى الأراضى المقدسة سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، بأن عيذاب من أحفل مراسى الدنيا ..أنظر ابن جبير: الرحلة، ص٤١، حسنين ربيع: البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص١٧-١٨.

[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥١٢هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٩٦، الفاسى: العقد، جـ٧، ص٢٨-٣٠، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٩، أحمد العبادى: تاريخ البحرية، ص١٥٧، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٧.

[٤] المناوى: الوزارة، ص١١٢-١١٣، العبادى: تاريخ البحرية، ص١٨٥.

وعند قدوم عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، كانت القطيعة مازالت مستمرة بين أمير مكة والوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى، وكانت مهمة رسول أمير مكة مازالت مستمرة لمنع الحملة الفاطمية من الوصول إلى مكة. ولما وجد أمير مكة أن الأسطول الفاطمى أصبح معداً إعداداً طيباً، وليس فى قدرة الأشراف مواجهة هذه الحملة، ووجد إصرار الفاطميين على موقفهم، اضطر إلى الموافقة على رد الأموال التى استولى عليها المكيون من التجار المصريين فى عيذاب سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، وتم إعادة هذه الأموال فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م[١].

والحقيقة، أن الخلفاء العباسيين والفاطميين أدركوا تقلب أمراء مكة المكرمة وعدم إخلاصهم وأنهم لا يهمهم إلا تحقيق مصالحهم المادية، ولذلك شعرت الخلافتان العباسية والفاطمية بعدم الاستقرار السياسى فى مكة المكرمة، وأدلت كل خلافة منهما بدلوها فى معترك النزاع، لذا فانه ليس من المستبعد أن يكون الخليفة العباسى وراء المكيدة التى دبرها سنة ٥١٥هـ/١١٢١م رجل من العلويين المشهورين بالتقوى والصلاح، ومن فقهاء المدرسة النظامية[٢] ببغداد، ضد أمير مكة قاسم بن محمد بن جعفر بن أبى هاشم، وكان هدفه من وراء تلك المكيدة هو القضاء على أمارة الهواشم،

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥١٤هـ، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٩٧-٤٩٨، الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص٢٨-٣٠، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٩، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٨.

[٢] المدرسة النظامية: بدأ الوزير السلجوقى نظام الملك - وزير السلطان ملكشاه - فى سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م فى إنشاء أول مدرسة ببغداد، وسماها باسمه [المدرسة النظامية]. وبنى حولها أسواقاً تكون محبوسة عليها، وبجوارها خانات وحمامات وغيرها، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة. وانتهى بناء المدرسة سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، وأقيم إحتفال كبير عند إفتتاحها حضره كبار رجال الدولة وسكان مدينة بغداد. وجعل نظام الملك التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد مقصوراً على المذهب الشافعى، الذى اتبعه وتحمس له، وقام بالتدريس فى نظامية بغداد كبار العلماء، ومنهم إسحاق الشيرازى، وأبو حامد الغزالى، الذى لقبه نظام الملك [زين الدين وشرف الأئمة]. وكانت المدرسة النظامية من أهم مراكز الثقافة فى بغداد فى العصر السلجوقى، وأصبحت نموذجاً يحتذى للمدارس فى العراق والشام ومصر غيرها. أنظر: محمد محمود ادريس: تاريخ العراق والشرق الاسلامى، ص٢٥١-٢٥٦.

واستبدالها بمن يدين بالولاء والتبعية للخلافة العباسية فى بغداد، وبذلك يصبح حكم مكة المكرمة خالصاً للدولة العباسية دون الدولة الفاطمية المنافسة. وأتصف هذا الرجل بصفتين هامتين،الأولى: أنه علوى من آل البيت، إرضاء للغالبية من العلويين الموجودين فى مكة المكرمة، والصفة الثانية: أنه من فقهاء المدرسة النظامية السنية القادرين على كسب تأييد العامة الذين يميلون لمذهب أهل السنة، وحضر هذا العلوى إلى مكة المكرمة، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الحرم المكى. ولما تجمع الناس حوله، وأصبحت له مكانة عند الكثير من الناس، وكسب تأييد أهل مكة، تمادى فى دعوته، حتى تجرأ على الدعوة لنفسه. ونجح فى ذلك، فما كان من أمير مكة قاسم بن محمد إلا أن أبعده عن مكة المكرمة، ونفاه إلى البحرين[١]. وجمع الناس حوله مرة أخرى حتى توفى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م.

تولى بعد قاسم بن محمد ابنه فليته، وافتتح عهده بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد بالله[٢]. وذلك استمراراً لما كان فى عهد والده، وعمل أمير مكة الجديد على نشر العدل بين أهالى أمارته، وأسقط المكوس مما كان له أحسن الأثر فى نفوس أهل مكة، فأثنوا عليه، وتمتعوا بالرضا والطمأنينة[٣].

---

[١] ابن الأثير، حوادث سنة ٥١٥هـ، ابن كثير، البداية، جـ١٢، ص١٨٨، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٩-٢٧٠، الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص٢٨-٣٠.

[٢] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٣-١٠٤، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥١٨هـ، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٠-٢٧١، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص٣٠٧- ٣٠٨، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٧-١٩٨، العقد الثمين، جـ١، ص١٧٢-١٧٣، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٩، سرور: سياسة الفاطميين، ص٣١-٣٢، النفوذ الفاطمى، ص٢٣-٢٥.

[٣] ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص٣١٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٩٨، السنجارى، منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٩-٢٧٠، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٩.

واستمر أمير مكة الجديد يعمل على استقرار الأمن، وإصلاح الأمور وكان موضع التقدير من الجميع حتى وفاته [٥٢٧هـ/١١٣٢م] مما أتاح لمكة نوعاً من الاستقرار والأمان.

وبعد وفاة فليته [٥٢٧هـ/١١٣٢م] اختلف أبناءه فيما بينهم على الحكم[١] وأدى هذا الإختلاف إلى نشوب القتال فيما بينهم. وفى نهاية النزاع تغلب هاشم عليهم، وأستأثر بالحكم. ولم يكن هاشم على صلة طيبة بالعباسيين كأبيه، لذا فقد اختلف معهم ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله، مما أثار غضب السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية صاحبة اليمن[٢]. وكان موقف السيدة نابعاً من عدم اعترافها بخلافة الحافظ لدين الله الفاطمى وايمانها بإمامة الطيب بن الخليفة الأمر الفاطمى، وكان الحافظ لدين الله فى نظر السيدة الحرة لا يتمتع بصفة الإمامة التى يجب توافرها فى الخلفاء الفاطميين. فأرسلت إلى هاشم أمير مكة تتوعده، لأنه أقام الخطبة للإمام الحافظ، ولكن المنية عاجلتها سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م[٣].

وأستمر أمير مكة هاشم بن فليته على ولائه للفاطميين، وكرهه للعباسيين، الأمر الذى انعكس أثره على أهل مكة، ففى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، عندما حضر الحجاج من أهل العراق لأداء فريضة الحج، نهب رجال أمير مكة "هاشم بن فليته" الحجاج العراقيين، وهم يطوفون فى الحرم الشريف، لفتنة وقعت بينه وبين أمير الحجاج العراقى واسمه قطز[٤].

---

[١] السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢١٧-٢١٨.
[٢] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٣-١٠٤، سرور: النفوذ الفاطمى، ص ٢٣-٢٥.
[٣] ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠، حوادث ٥٣٩هـ. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٢١٩، الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص٣٦١-٣٦٢، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٧٠-٢٧١.
[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٠٨.

وفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م تولى إمرة الحج العراقى قايماز الأرجوانى أمير الجيوش بسبب ما وقع بين قطز وأمير مكة فى السنة الماضية. ولما وصل قايماز ومن معه من الحجاج إلى مكة، لم يجد ما كان قد وقع فى الماضى من فتن واضطراب. ويرجع ابن فهد السبب الذى من أجله لم يحضر أمير الحاج قطز أميراً على الحجاج العراقيين فى تلك السنة إلى ما كان بينه وبين أمير مكة من حروب سابقة[١]. وخلال عامى ٥٤١-٥٤٢هـ/ ١١٤٦-١١٤٧م، لم تحدث فى مكة حوادث هامة، وسارت الأمور فيها على ما كان من الاتصال بالفاطميين دون العباسيين[٢].

وفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م كلف قطز أو نظر بأمرة الحاج، وقد صار من بغداد ووصل إلى الحلة وهناك مرض مرضاً شديداً فجعل خادمه قايماز نائباً عنه على رأس الحجاج العراقيين. وعاد إلى بغداد فتوفى فى ذى القعدة[٣]. ولما وصل هؤلاء الحجاج إلى مكة طمع أميرها كعادته فى الاستيلاء على ما معهم من أموال وعاملهم معاملة سيئة.

وطمع العرب فيهم ووقفوا لهم فى الطريق يطلبون الرسوم منهم. وكان رأى قايماز، أن يدفع الحجاج الرسوم حتى يقوا شرهم، ولكن الحجاج امتنعوا عن ذلك فأخبرهم بأنهم لن يستطيعوا أن يزوروا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك العام، وأصر الحجاج على موقفهم، الأمر الذى جعل أميرهم يرضخ لرغبتهم، ويسير بهم إلى المدينة المنورة، فلما وصلوا إلى مضيق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة خرج عليهم العرب من قبيلة بنى زغب[٤]. وذلك

---

[١] ابن فهد: اتحاف الورى جـ٢، ص٥٠٨-٥٠٩، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٩-٢٦٠.

[٢] الجزيرى، درر الفوائد، ص ٢٥٩-٢٦٠.

[٣] أنظر: ابن الأثير، الكامل، حوادث ٥٤٤هـ، ابن كثير: البداية، جـ١٢، ص٢٢٦.

[٤] بنو زغب: بطن من بهشة بن سليم بن منصور، وهم بنو زغب بن مالك بن بهشة بن سليم بن منصور، ديارهم بين الحرمين الشريفين، وقيل زغب بن ناصر بن خفاف بن أمرىء القيس بن بهشه بن سليم، وقيل بن زغب بن ناصر بن خفاف بن مالك. أنظر: عاتق البلادى: معجم قبائل الحجاز، جـ٢، ص١٨٢.

عقب عصر يوم السبت الرابع عشر من المحرم سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م[١]. ودارت معركة بين الحجاج العراقيين والعرب، وتجمع العرب عليهم، فلم يستطع العراقيون الصمود أمامهم، فانهزموا وظهر عجز قايماز، وطلب الأمان لنفسه من العرب. واستولى العرب على جميع ما مع الحجاج العراقيين من الأموال والثياب، وغير ذلك، وصاروا يمشون على أقدامهم، ومات أغلبهم بسبب الجوع والعطش.

ولم يصل قايماز إلى المدينة إلا فى نفر قليل، ومنها رجعوا إلى بلادهم[٢]. وكان لهذه الحادثة أثرها السىء على حجاج بيت الله الحرام، ففى السنوات التالية لم يحج إلى مكة لأداء فريضة الحج إلا النزر القليل، بسبب هذه الأعمال التى لا تتفق مع تعاليم الاسلام وأخلاق المسلمين. وكان أمير مكة أثناء هذه الحوادث هو هاشم بن فليته، الذى دامت ولايته حتى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٣]، وفى رواية أخرى أن ولايته استمرت حتى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م[٤]، ويؤيد الرواية الأولى ما ذكره الصيرفى[٥]: بأن الفقيه، والشاعر عمارة اليمنى[٦] حج فى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، فأرسل معه قاسم بن

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٠-٥١٢، ذكر ابن الجوزى [المنتظم، جـ١، ص١٤٢]، أن هذه الحادثة وقعت فى أواخر سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م، وانتهت فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م.

[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ١٠، ص١٤٢، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٠-٥١٢، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٥٩-٢٦٠.

[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٥، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٩.

[٤] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٧-١٩٨.

[٥] الصيرفى: ديوان قانون الرسائل، ص١٦٢-١٦٣، أنظر أيضاً ذو النون المصرى: عمارة، ص٢٤٢-٢٤٣.

[٦] الشاعر عمارة اليمنى هو: الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى، الملقب نجم الدين الشاعر المشهور، موطنه من تهامة باليمن مدينة يقال لها مرطان من وادى وساع، وبها مولده ومرباه، رحل إلى زبيد سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م، فأقام بها يشتغل بالفقه فى بعض مدارسها مدة ٤ سنوات وانه حج سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، وسيره قاسم بن هاشم بن فليته صاحب مكة رسولاً إلى الديار المصرية، فدخلها سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، وصاحبها يومئذ الخليفة الفائز بن الظافر والوزير الصالح بن رزيك وأنشدهما. ثم فارق مصر وتوجه إلى مكة ومنها إلى زبيد فى سنة ٥٥١هـ/١١٥٩م. ثم حج من عامة فأعاده قاسم صاحب مكة المذكور فى رسالة إلى مصر مرة ثانية، فاستوطنها، ولم يفارقها بعد ذلك. كان فقيهاً شافعى المذهب، شديد التعصب للسنة، أديباً ماهراً، شاعر مجيداً محادثاً ممتعاً، فأحسن الصالح وبنوه وأهله إليه كل الإحسان، وصحبوه مع إختلاف العقيدة لحسن صحبته، وله فى الصالح وولده مدائح كثيرة. ولما قضى السلطان صلاح الدين على الخلافة الفاطمية، مدحه عمارة، ومدح جماعة من أهل بيته. ورثى أصحاب القصر الفاطمى عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها. ثم إنه شرع فى أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعة من رؤساء البلد على التعصب للفاطميين وإعادة دولتهم، فاحس بهم السلطان صلاح الدين، وكانوا ثمانية من الأعيان، ومن جملتهم الفقيه عمارة وشنقهم سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م بالقاهرة: أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٤٣١-٤٣٥.

هاشم بن فليته رسالة إلى الديار المصرية، ذكر فيها وفاة والده. فدخل عمارة مصر فى شهر ربيع الأول ٥٥٠هـ/١١٥٥م. وهذه الرواية تشير إلى أن وفاة فليته كانت سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م.

حمل لواء أمارة مكة سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م قاسم بن هاشم بن فليته الذى تمتع بالفطنة السياسية على خلاف والده هاشم، الذى كان يميل إلى العباسيين مدة ولايته، لذلك استمرت الخطبة لهم طوال عهده. أما قاسم بن هاشم، فإنه أراد أن يحظى بثقة وهبات وعطايا كل من العباسيين والفاطميين ومد يده إلى الفاطميين فأرسل لهم - كما سبق ذكره - الفقيه والشاعر المشهور عمارة اليمنى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، وحمله رسالة إلى وزير مصر الصالح طلائع بن رزيك، وكان الخليفة الفاطمى وقتذاك الفائز[١]. وقصد الأمير قاسم بعد توليه الأمارة أن يوثق الصلة بينه وبين الفاطميين، فبحث عن رجل ذى مكانة ، وذى أدب وعلم، ليقوم بهذه المهمة، فأختار الفقيه عمارة اليمنى. ووصل عمارة إلى القاهرة، وحظى بمقابلة الخليفة الفاطمى الفائز. وفى القصر الفاطمى أنشد عمارة بين يدى الخليفة الفاطمى وفى حضرة كبار الفاطميين قصيدة من عيون الشعر العربى[٢]. ونجح عمارة فى مهمته فى مصر، وعاد إلى بلاد الحجاز سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م[٣].

---

[١] ابن الصيرفى: ديوان الرسائل، ص١٦٢-١٦٣، سرور: النفوذ الفاطمى، ص٢٣-٢٥، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٢٩.

[٢] ابن الصيرفى: ديوان الرسائل، ص١٦٢-١٦٣، سرور: سياسة الفاطميين، ص٣٢-٣٣، وجاء فى هذه القصيدة:

ورحنا من كعبة البطحاء والحرم ... وفدا إلى الكعبة المعروف والكرم

[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٦-٥١٧، ابن الصيرفى: ديوان الرسائل، ص١٦٣، سرور: سياسة الفاطميين، ص٣٢-٣٣.

ولما استقر لعمارة اليمنى المقام بعض الوقت فى مكة المكرمة، توجه إلى زبيد باليمن فى شهر صفر سنة ٥٥١هـ/مارس ١١٥٦م، ثم رحل منها مرة أخرى إلى مكة المكرمة. ولما كانت مكانة عمارة اليمنى قد احتلت مرتبة عظيمة لدى أمير مكة، فقد أوفده للمرة الثانية إلى الديار المصرية فى أوائل سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م. وحمله أمير مكة رسالة اعتذار لما وقع من جنده من تجاوزات ضد الحجاج المصريين، وحجاج بلاد الشام، ووصل الفقيه عمارة اليمنى إلى مصر وقابل الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، وأتخذ مصر موطناً له وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمى فى عهدى الخليفة الفائز والخليفة العاضد[١].

ورغم أن أمير مكة قاسم بن هاشم قد أرسل سفارتين إلى الفاطميين، وقام بهاتين السفارتين عمارة اليمنى، إلا إنه ظل يقيم الخطبة للخليفة العباسى المستنجد بالله[٢].

ولم تتح هاتان السفارتان للنفوذ الفاطمى العودة إلى مكة، ويتضح أن الغرض هو الحصول على المؤن، والأموال، والعطايا، والهبات.

وتجدر الإشارة إلى أن هدوء الأحوال فى مكة المكرمة، لم يتحقق بصورة دائمة فما من عام دون وقوع بعض الحوادث المؤسفة أيام الحج. ففى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، وقعت فتنة بين العبيد بمكة المكرمة والحجاج العراقيين بمنى، وأشتد القتال فيما بينهما. ونتيجة لهذه الفتنة لم يستطع الحجاج العراقيون إلا الوقوف بعرفات، ولم يتموا نسك الحج ورجعوا إلى بلادهم[٣]. وفى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، دخل رجال قبيلة هذيل مكة، ونهبوا

---

[١] ابن الصيرفى: ديوان الرسائل، ص١٦٣، ذو النون المصرى، عمارة اليمنى، ص٤٧.
[٢] سرور: النفوذ الفاطمى، ص٢٥-٢٦، ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٣٠.
[٣] السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٧١-٢٧٣.

أهلها، وكان لهذا الهجوم المفاجئ أثره السيء على سكان مكة المكرمة[١]. وعقب إنتهاء موسم الحج لسنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. وفى أوائل ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، قام أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليته بأخذ أموال المجاورين للحرم الشريف وأغتصب الكثير من أموالهم[٢]. وتصادف أثناء قيامه بهذه العملية أن قدم فى موسم الحج ذلك العام [٥٥٥هـ/١١٦٠م] حجاج العراق وأميرهم "أرغش التركى" وكذلك قدم حجاج الموصل تحت إمرة زين الدين على كوجك، فهرب منهما الأمير قاسم بن هاشم خائفاً على حياته، خشية أن يقوم المجاورون بطلب المساعدة من أمير حجاج العراق، وأمير حجاج الموصل، لإرغامه على إعادة أموالهم إليهم. فلما قضى حجاج العراق والموصل فريضة الحج. خلعوا قاسم بن هاشم بن فليته من أمارة مكة، ونادوا بعمه عيسى بن قاسم بن ابى هاشم أميراً عليه[٣].

النزاع الأسرى وأثره فى إضعاف حكم الأشراف الهواشم

شغل عيسى بن قاسم منصب أمارة مكة حتى شهر رمضان من سنة ٥٥٦هـ/ أغسطس ١١٦١م، ثم جمع ابن أخيه قاسم الجموع من العرب، بعد أن مناهم بالأموال التى عنده بمكة، فاستجابوا له، وسار بهم إلى مكة، ولما سمع

[١] السنجارى: منائح الكرم جـ١، ورقة ٢٧١، ٢٧٣.
[٢] أبو الفدا : المختصر، جـ٣، ص٣٩، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٥٦هـ، ابن فهد : إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٢٣-٥٢٥.
[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٥٦هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص ٥٢٣-٥٢٥، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٧١-٢٧٣، الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص ٤٦٥-٤٦٦.

عمه عيسى بهذه الجموع: غادر مكة ليفسح المجال لأميرها قاسم بالعودة إليها، ودخلها قاسم بدون قتال، واستعاد أمارته على مكة المكرمة. ولم تدم مدة أمارته بها كثيراً، فقد انكشف أمره، حيث لم يكن لديه المال اللازم ليعطيه لهذه الجموع التى خرجت معه. وزاد على هذا سوء سيرته، عندما قتل قائداً من أبرز قادته من أصحاب السيرة الطيبة بين الناس، فلما وجد العرب أن قاسماً غدر بهم وغدر بأحد قادته، أثاروا النقمة عليه، وأنقلب العرب ضده، وكتبوا رسالة إلى عمه عيسى يستدعونه، فحضر إلى مكة. فلما وجد قاسم أن أهل مكة نقموا عليه، والتفوا حول عمه عيسى، فر هارباً، إلى جبل أبى قبيس[١]. ومن فوق الجبل سقط عن جواده، فوقع على الأرض بين الحياة والموت، فأسرع اتباع عيسى إليه، وقتلوه، ولما بلغ عيسى وفاة ابن أخيه قاسم بن هاشم بن فليته، عظم عليه الأمر، وأسرع وحمله إلى مكة، وقام بتجهيزه، ودفنه بالمعلاة بمكة المكرمة، ويلاحظ أنه أثناء ولاية قاسم بن هاشم بن فليته، لم تستقر أحوال الأمن فى مكة، وكثرت حوادث السلب والنهب[٢].

تولى الأمارة بعد وفاة قاسم بن هاشم بن فليته سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م عمه عيسى بن فليته والمعروف عنه انه كان يجالس أهل الخير، ولم يعهد فيه أحد إلا سعة الصدر، وكثرة الحلم[٣]. ويبدو أن سياسة عيسى كانت تختلف عن سياسة سلفه، فلم يعرف عنه أنه طالب الحجاج بالمال، أو أنه عمد إلى نهب التجار أو مصادرة أموال أهل مكة، وعلى الرغم من ذلك، لم ينعم بالاستقرار فى حياته[٤].

---

[١] جبل أبى قبيس: جبل مشرف على مكة، قيل: سمى باسم رجل من مذحج كان يكنى أبو قبيس، لأنه أول من بنى فيه قبة.
أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٨٠-٨١.

[٢] العينى: عقد الجمان: حوادث سنة ٥٥٦هـ، أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص٣٩، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧١-٢٧٢، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص ٥٢٣-٥٢٥، الفاسى: العقد، جـ١، ص٤٦٥-٤٦٦، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٧١-٢٧٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٨-٣٠٩.

[٣] الفاسى: العقد، جـ٧، ص٤٦٥-٤٦٨.

[٤] ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية، ص٣٠.

تتابعت الأحداث فى مكة المكرمة فى عهد عيسى بن فليته، فحدثت فى سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م فتنة وكان سببها هو منع الحجاج الذين لم يكملوا الطواف والسعى فى يوم النحر من دخول مكة[١]. كذلك حدثت فتنة خطيرة بين أهل مكة فى أيام الحج فى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م. وكان سبب هذه الفتنة أن جماعة من عبيد مكة قاموا بأعمال الشغب، وأفسدوا فى الحج يوم المبيت بمنى[٢].

فقام بعض أصحاب أمير الحجاج العراقيين، وقتلوا عدداً من هؤلاء العبيد، فاستفحل الأمر، والتهبت نار القتال، فقام العبيد ونهبوا الحجاج، وأوقعوا فيهم الجراحات. عند ذلك أعلن أمير حجاج العراق، الجهاد ضد هؤلاء العبيد، فحمل الحجاج السلاح وقتل عدد كبير من الناس، ونهبت الأموال، واشتدت الأزمة، فما كان من أمير حجاج العراق، إلا أن رجع، ولم يدخل مكة، وأقام بالزاهر على مقربة من مكة يوماً واحداً، وكان لهذه الفتنة أثرها على الحجاج، حيث فقدوا الكثير من الرجال، ولم يكمل معظمهم أداء الفريضة، عند ذلك تدخل أمير مكة طالباً من أمير حجاج العراق العودة لاستكمال شعائر الحج، واستعطفه، وأبدى استعداده لرد اعتبارهم، ولكنه رفض العودة، وأدى ذلك إلى سوء العلاقة مع أمير مكة[٣].

لم تستقر الأمور فى مكة المكرمة بعد حادث سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م. إلى أن كان عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م حيث وقع بين عيسى بن فليته وبين أخيه مالك بن فليته خلاف كبير فى أمور كثيرة. وفى موسم حج تلك السنة

---

[١] أنظر ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٠، حوادث سنة ٥٥٧هـ.

[٢] من واجبات الحج عند الشافعية، المبيت بمنى، ويشترط فيه أن يكون معظم الليل من ليالى أيام التشريق الثلاثة لمن لم يتعجل، أما من أراد أن يتعجل، فيسقط عنه المبيت بمنى ليلة الثالث من أيام التشريق والرمى فيه. أما الحنفية فيرون أن المبيت بمنى فى ليالى أيام النحر، أما الحنابلة فعندهم المبيت بمنى على غير السقاه والرعاه ليالى أيام التشريق، ويرى المالكية: أن المبيت بمنى بعد طواف الإفاضة فيبيت بها ثلاث ليال وجوباً.

أنظر: عبد الرحمن الجزيرى: كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، جـ١،قسم العبادات، ص٦٦٥-٦٦٩.

[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٥٨هـ، الفاسى: العقد: جـ٧، ص٤٦٨-٤٦٩.

[٥٦٥هـ/١١٦٩م] لم يحج عيسى وتخلف بمكة، وحج أخوه مالك بن فليته ووقف بعرفات، وبات الحجاج بعرفات حتى الصباح، ولم تجر العادة بذلك. إذ تبدأ النفرة من عرفات بعد مغيب الشمس فى ذلك اليوم. وفى يوم عاشوراء من المحرم من سنة ٥٦٦هـ/سبتمبر ١١٧٠م، دخل مكة الأمير مالك بن فليته، ومعه عسكره، وجرى بينه وبين أخيه عيسى قتال إلى وقت الزوال، حتى تم طرد الأمير مالك من مكة. وعقب ذلك تم الصلح بين الأمير مالك وبين أخيه عيسى، وسافر مالك بعد ذلك إلى الشام فى آخر ذى القعدة من نفس السنة [٥٦٦هـ/١١٧٠م] ثم رجع بعد ذلك مالك بن فليته من الشام، وأقام ببطن مر[١]، ثم تابع المسير بجيشه إلى الأبطح[٢].

حاصر مالك بن فليته وجنوده مكة مدة، فخرج إليهم عسكر الأمير عيسى وقاتلهم وأنتصر عليهم، وقتل من جند الأمير مالك جماعة ثم توجه مالك إلى خيف شديد خارج مكة، ومعه عسكره، وأقام هناك أياماً، ثم ارتحل إلى نخلة[٣]، ومنها خرج إلى الطائف وفى تلك السنة [٥٦٦هـ/١١٧٠م] قام خدام الأمير مالك بن فليته والأشراف من بنى داود فى جدة، ونهبوا العطايا التى جاءت إلى جدة من قبل شمس الدولة توران شاه[٤]. وكان فيها صدقة أرسلها توران شاه من قبله للفقراء والمحتاجين. كما كان يوجد بها أموال للتجار،

[١] بطن مر: بفتح الميم، وتشديد الراء، من نواحى مكة، عنده يجتمع وادى، النخلتين فيصير وادياً واحداً. أنظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٤٤٩.

[٢]الأبطح: والأبطح والبطحاء: الرمل المنبسط على وجه الأرض والأبطح بين مكة ومنى، لأن المسافة بين الأبطح ومكة مثل المسافة بينه وبين منى، وربما كان أقرب إلى منى. أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، ص٧٤.

[٣] نخلة: منزل من منازل بنى تعلبه، من أراضى غطفان، فى طريق الشام من ناحية مصر. أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، ص٢٧٦.

[٤] الأمير شمس الدولة توران شاه، أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى، وقد أرسله أخوه صلاح الدين إلى اليمن، وذلك لشدة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل إلى مصر وينتزعهم منها، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها، كان تختيارهم قد وقع على النوبة، فلما سار إليها لم تعجبه، عاد كان الفقيه عمارة اليمنى قد انقطع إلى الأمير شمس الدولة ومدحه، واختص به وحدثه عن بلاد اليمن وكثرة الأحوال بها وكان شمس الدولة مع ذلك جواداً كثير الانفاق فلم يقنع بحاله من الاقطاع بمصر، وأحب التوسع، فأستأذن صلاح الدين فى السير، فأذن له، وأستعد لذلك، وجمع وحشد، وسار مستهل رجب سنة ٥٦٩هـ/ ٥ فبراير ١١٧٤م فوصل إلى مكة المكرمة فزار ثم خرج منها يريد اليمن، وبها يومئذ أبو الحسن على بن مهدى ويقال له عبد النبى، فاستولى على زبيد فى سابع شوال من تلك السنة، وقبض على عبد النبى، وأخذ ماسواها من مدائن اليمن، وتلقب بالملك المعظم، وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضئ بأمر الله فى جميع ما فتحه، وبعث إلى القاهرة بذلك.

أنظر المقريزى: السلوك: جـ١، ق١، ص٥٢-٥٣، ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٢٢، ١٢٣.

فنهبوا كل شيء فيها[١] وأستمر الأمير عيسى بن فليته على أمارة مكة المكرمة، حتى توفي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م [أي بعد سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية] وهو الحدث الذى جرى فى المحرم سنة ٥٦٧هـ/سبتمبر ١١٧١م.

وهكذا يتضح من الصفحات السابقة: أنه أثناء حكم الهواشم بمكة فيما بين سنتى ٤٥٤-٥٦٧هـ/١٠٦٢-١١٧١م حدث التنافس بين الدولة العباسية والفاطمية لمد نفوذ كل منها إلى بلاد الحجاز، وبخاصة إلى مكة المكرمة. وأدى ذلك إلى اضطراب الأحوال السياسية الاقتصادية، وعدم استقرار الأمور فى مكة المكرمة، وساعد على ذلك كثرة حوادث النزاع والفتن الأسرية بين أفراد أسرة الهواشم، وانعكس ذلك على عدم استقرار الأمن فى مكة المكرمة، مما جعل حوادث نهب الحجيج تحتل مكانة بارزة فى تاريخ تلك الفترة القلقة فى تاريخ بلاد الحجاز، فقد انعكس التنافس بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية على أحوال بلاد الحجاز الداخلية، وأدى ذلك إلى إضعاف أسرة الهواشم، وهو الضعف الذى أدى فى النهاية إلى فقدانها إمرة مكة فيما بعد.

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٣١-٥٣٢، الفاسى: العقد الثمين، جـ٧، ص١١٥-١١٦، ٤٦٦-٤٦٧.

الفصل الثالث

بنو مهنا الحسينيون بالمدينة المنورة
٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م

- المدينة المنورة حتى ولاية طاهر بن مسلم.

- ولاية طاهر بن مسلم للمدينة المنورة ٣٦٥هـ/٩٧٥م

- خلفاء طاهر بن مسلم ودورهم فى تاريخ المدينة المنورة :

كان للدعوة الفاطمية أثرها الواضح فى المدينة المنورة حتى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر وبعد قدومه، فقد أقام الأشراف من بنى الحسين الخطبة له فى المدينة المنورة، بل وبادر أميرها الحسين بن جعفر بالاستيلاء على مكة، ودعا للمعز لدين الله الفاطمى على منابرها مع الدعاء له على منابر المدينة المنورة[١].

ولقد عمل المعز على تثبيت نفوذه على المدينة، فأرسل الأموال الكثيرة والعطايا والهبات، وفى موسم الحج من عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م قام أمير الحجاج المصريين من قبل الخليفة الفاطمى بتوزيع الأموال والعطايا على الأشراف وأهل المدينة المنورة[٢].

وفى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م أراد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أن يكسب ثقة الناس فى المدينة المنورة، فأرسل عسكراً وأحمالا عدتها عشرون حملا للحرمين الشريفين، وعدة أحمال من المتاع. وقصد الخليفة الفاطمى من ذلك تثبيت سيادته وسلطانه على مكة والمدينة[٣]. وكانت الخطبة على المنابر تقام فى ذلك العام للمعز لدين الله الفاطمى داخل المدينة المنورة، وفى خارجها كانت تقام للخليفة المطيع لله العباسى[٤].

وذكر القلقشندى أن المعز لدين الله الفاطمى، جهز عسكراً فى سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م حينما كان فى أفريقيا، لإقامة الخطبة له بمكة المكرمة،

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤،ص٢٦٨-٢٦٩، القوصى: تجارة مصر ص١٠٩-١١٠.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٣٧-٢٣٩.

[٣] حسن ابراهيم: تاريخ الدولة، ص٢٣٧-٢٣٨، القوصى: تجارة مصر، ص١٠٩-١١٠.

[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٧، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٠.

أيضاً نظراً لأن أمير مكة كان يقيمها للخليفة العباسى. وأضاف القلقشندى، أن أهل المدينة المنورة وقفوا إلى جانب هذه الفكرة، مؤيدين لها، حتى يتم الدعاء للفاطميين بالحرمين الشريفين على السواء. فما كان من أمراء مكة - وهم بنو الحسن - إلا أن حاولوا منع بنى الحسين من تحقيق ذلك[١]. غير إن الفاسى ذكر فى "تحفة الكرام" بأنه حدث فى موسم الحج لذلك العام [٣٦٠هـ/٩٧٠هـ] أن الخطبة كانت تقام فى المدينة المنورة للمعز لدين الله الفاطمى صاحب مصر[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن أهل مكة المكرمة، كان لهم فى بعض الأحيان ميول إلى العباسيين. ففى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م قامت حرب بين بنى الحسن أمراء مكة، وبنو الحسين أمراء المدينة المنورة الموالين للفاطميين. وحدث فى ذلك الوقت أن أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى رسلا لإقامة الخطبة فى مكة للفاطميين. وفى مكة وقف القرامطة بجانب بنى الحسن، وانهزم بنو الحسين، وساد المدينة المنورة نوع من عدم الاستقرار السياسى، رغم استمرار الخطبة للعباسيين[٣].

واستمرت الخطبة تقام للخليفة العباسى فى المدينة حتى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، عندما عادت الصلة مع الفاطميين مرة أخرى، فأقيمت الخطبة فى مكة والمدينة للمعز لدين الله الفاطمى، وقطعت خطبة الطائع العباسى[٤]. وحدث فى تلك السنة أن وصل أهل المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، فنفر

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٩، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٥٥.
[٢] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، أنظر سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٣٠.
[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٨-٤١٠.
[٤] الذهبى: تاريخ الإسلام، ص٢٤٣.

عنها حكامها من بني الحسن[١]. وفى موسم الحج من سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م حج بالناس العلوى من جهة المعز لدين الله الفاطمى صاحب مصر، أرسله الخليفة نائباً عنه وممثلا له فى بلاد الحجاز، فى موسم الحج، وكان يحمل الهدايا والعطايا لأمراء المدينة، فتأكد العلوى من إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى، واستمرت الخطبة تقام للفاطميين خاصة فى المدينة المنورة[٢].

والواقع، إن إقامة الخطبة للمعز لدين الله الفاطمى فى المدينة، كانت نوعاً من أنواع التنافس الذى قام بين العباسيين والفاطميين من أجل تحقيق السيادة على العالم الإسلامى، اعتقاداً من كل منهما أنه أحق بهذه السيادة دون غيره.

ونظراً لأن نفوذ الفاطميين كان أقوى من العباسيين فى المدينة، فقد استمرت الخطبة لهم سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م. [أى إلى أن توفى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى][٣]. وفى تلك السنة جاء إلى المدينة المنورة طاهر بن مسلم من بنى الحسين، ولما كان طاهر يحتل مكانة فائقة عند بنى الحسين لذلك قدموه على أنفسهم. وولوه أمارة المدينة المنورة، لذا فإنه يعد أول أمير من بنى الحسين، استقل بأمارة المدينة المنورة[٤].

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٨-٤١٠.

[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٢، ص٨٠، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٢-٤١٤، ابن كثير: البداية، جـ١١، ص٢٨٠، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٦، حسن ابراهيم وطه شرف: المعز لدين الله، ص١٦٥-١٦٦.

[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٣، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص٥١.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٩٨-٢٩٩، السخاوى: التحفة اللطيفة، جـ٢، ص٢٥٧.

ولاية طاهر بن مسلم للمدينة المنورة
سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م

والده مسلم بن عبد الله بن طاهر بن يحى المحدث بن الحسن بن جعفر. ويلقب عند الشيعة "حجة الله" عبيد الله الحسين الأصغر بن زين العابدين. وكان مسلم هذا صديقاً لكافور الذى استقل بدولة الإخشيديين بمصر. ولما ملك الفاطمين مصر، وقدم المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة، طلب منه الخليفة أن يزوج كريمته لأحد بنيه، لما كان يتمتع به مسلم من مكانة وعلم وخلق، وعندما رفض مسلم تحقيق رغبة الخليفة، انتقم منه واعتقله، وصادر جميع أمواله، وفر مسلم من معتقله ومات بعد هربه بمدة قصيرة، فما كان من ابنه طاهر إلا أن أسرع بالرجوع إلى المدينة المنورة، وتولى أمارتها. واستطاع بحسن إدارته، وحب الناس له أن يتولى إمرة المدينة سنين[١].

ولما توفى المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م، تولى بعده العزيز بالله، وكانت الخطبة لا تزال قائمة للفاطميين فى الحرمين الشريفين[٢] غير إن مكة والمدينة خرجتا عن قبضة الفاطميين بعد وفاة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، ومع بداية عهد العزيز بالله، فقد ذكر الفاسى[٣]. أن الحسن بن أحمد بن أبى سعيد القرمطى بعث عساكره إلى الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقطع الخطبة للعبيديين [الفاطميين] بعد أن قلب لهم ظهر المجن وغير سياسة من سبقه من القرامطة نحوهم، وتصادف فى تلك السنة [٣٦٥هـ/٩٧٥م] أن قدم إلى بلاد الحجاز الشريف أحمد بن الحسين بن محمد العلوى من بغداد من قبل الخليفة الطائع بالله، فعمل على إقامة الخطبة للخليفة العباسى فى مكة المكرمة والمدينة المنورة[٤].

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٨-١٠٩.
[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٢-٤١٤.
[٣] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطميه، ص١٥٥.
[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٢-٤١٤.

ولما وصلت الأنباء إلى الخليفة العزيز بالله في مصر، تحمل إليه أن الخطبة أقيمت للعباسيين مرة أخرى، ما كان منه إلا أن بدأ في إعداد جيش كبير، لإرساله إلى بلاد الحجاز. ووصل الجيش الفاطمي إلى المدينة المنورة، وضيق على أهلها، حتى أعيدت الخطبة للخليفة العزيز بالله، وكان أمير المدينة المنورة وقتذاك هو طاهر بن مسلم. وقد ذكر الفاسي: أن هذه الحملة أرسلت إلى بلاد الحجاز سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م[١]. بينما ذكر ابن فهد: أنها أرسلت في سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، وكان على رأسها باديس بن زيرى الصنهاجي الذي استولى على الحرمين الشريفين، وأقام الخطبة للخليفة العزيز[٢]. ولعل الفاسي أشار إلى تاريخ خروج الحملة إلى المدينة المنورة من مصر[سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م]، بينما أشار ابن فهد إلى تاريخ إنتهاء مهمتها، وإعادة الخطبة للفاطميين [سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م].

ويبدو أن الفاطميين انغمسوا بعد سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م في مشكلاتهم الداخلية، بالاضافة إلى تدهور أحوالهم الاقتصادية، وعدم استقرار أمورهم في بلاد الشام، حتى انهم منعوا وصول العطايا والهبات إلى مكة والمدينة عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م. وانتهز العباسيون والبويهيون هذه الفرصة، وأرسلوا الأموال والغلات والعطايا إلى أمير مكة المكرمة وأمير المدينة المنورة، هنا تحول ولاء الأميرين إلى العباسيين. وبلغ ذلك الخليفة الفاطمي العزيز بالله بمصر، فأعد حملة في سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م أرسلها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ونجحت تلك الحملة في إعادة الخطبة للفاطميين مرة أخرى في مكة والمدينة معاً[٣].

---

[١] الفاسي: العقد، جـ٧، ص٤٥٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، جـ٢، ص٢٥٧.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٤-٤١٦، سرور: سياسة الفاطميين، ص١٥-١٦، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة، ص٢٣٧-٢٣٨، القوصي: تجارة مصر، ص١١١-١١٢، عبد الرحمن الرافعي وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٢١٨- وعن باديس بن زيرى الصنهاجي، أنظر: ما سبق، ص٣٢، حاشية "١".

[٣] أنظر: سرور: النفوذ الفاطمي، ص١٥-١٦، سياسة الفاطميين، ص٢٤-٢٥، حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٣٧-٢٣٨، القوصي: تجارة مصر، ص١١١-١١٢.

خلفاء طاهر بن مسلم ودورهم فى تاريخ المدينة المنورة:

وفى سنة ٣٨١هـ/٩٩١م توفى أمير المدينة المنورة طاهر بن مسلم، الذى يعتبر أول أمير من بنى الحسين استقل بالمدينة وتولى بعده الأمارة ابنه الحسن ولقبه "مهنا"، فسار على سيرة أبيه من حيث الولاء للدولة الفاطمية، وإقامة الخطبة لها فى المدينة المنورة[١].

ولقد سار الأمير الجديد الحسن بن طاهر بن مسلم على سياسة الولاء للفاطميين. واستمر ذلك الحال حتى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، إذ يذكر المقريزى: أنه فى المحرم من تلك السنة ورد الخبر بتمام الحج والدعاء للحاكم بأمر الله فى الحرمين الشريفين. ويبدو أن السبب هو استمرار عطايا الدولة الفاطمية من الأموال والهبات، والكسوة، والزيت[٢].

وفى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م خرج أمير مكة أبو الفتوح حسن بن جعفر بأمر من الحاكم بأمر الله[٣] الفاطمى قاصداً المدينة المنورة، مكلفاً من الخليفة بالاستيلاء عليها، وأن تكون تحت أمارته، وذلك لأن أهل المدينة المنورة، قد طعنوا فى نسب الفاطميين[٤].

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٨-١٠٩، سرور: سياسة الفاطميين ص٢٤-٢٥، وهناك رواية أخرى ذكرها ابن خلدون [تاريخ، جـ٤، ص١٠٩] والقلقشندى [صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٩٩] نقلا عن العتبى مؤرخ دولة ابن سبكتكين أنه بعد وفاة طاهر تولى امارة المدينة المنورة صهره وابن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله، وكنيته أبو على، وقد استطاع داود بن القاسم أن يستقل بامارة المدينة دون ولد طاهر بن مسلم. وقد استبعد ابن خلدون صحة هذه الرواية وذكر انها "غلط" إعتماداً على المؤرخ الفاطمى المسبحى.

[٢] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٨.

[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٤، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٩٩.

[٤] الرشيدى: الصفا والابتهاج، ورقة ٢٢.

وكان الحاكم بأمر الله - بما عرف عنه من اضطراب عقلى - قد كلفه بعمل لا يتفق مع مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد أشار ابن خلدون وغيره: أن بعض الزنادقة أشاروا على الحاكم بأمر الله، بأن يقوم بنبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحبيه، وحملهما إلى مصر، بقصد جذب الأموال والعطايا والهبات إليه[١]. ونظراً لتخبط عقل الخليفة الحاكم بأمر الله، فقد دخل هذا القول قلبه، فأرسل إلى أبى الفتوح أمير مكة المكرمة بتنفيذ هذا الرأى. وأسرع أبو الفتوح لتحقيق رغبة الحاكم بأمر الله، فسار بجيش إلى المدينة المنورة، ولما قدمها، حضر إليه جماعة من أهلها ليتأكدوا مما بلغهم عن سبب مجىء أبى الفتوح، فأخبرهم بصدق ما بلغهم. وكان معهم قارىء يعرف بالركبانى، فقرأ بين يدى أبى الفتوح قول الله تعالى [وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا فى دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون][٢].

ولما سمع الناس هذا التوجيه القرآنى هاجوا، وهجموا على أبى الفتوح ومن معه من الجنود للإنتقام منه. فلما رأى أبو الفتوح ما عليه الناس، قال لهم: "الله أحق أن يخشى، والله لا أتعرض لشىء من ذلك، ودع الحاكم يفعل ما يريد" وأستولى عليه الضيق، وتشتيت الفكر، وعبوس الوجه، وظل يراجع نفسه ويقول: "كيف استجبت لطلب الحاكم بأمر الله؟ وخاف أبو الفتوح على نفسه

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٩.
[٢] القرآن الكريم: سورة التوبة، آية ١٢.

من البقاء فى المدينة المنورة، فقفل راجعاً إلى مكة المكرمة. فما كان من بنى مهنا إلا أن استردوا المدينة المنورة مرة أخرى[١]. ومما يدل أيضاً على تخبط الخليفة الحاكم بأمر الله فى اتخاذ القرارات، ورعونة تصرفاته الشخصية أنه بعث فى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م أحد الدعاة إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن أمره بفتح دار جعفر بن محمد الصادق[٢]، وأخذ ما كان فيها، ونجح الداعى فى تنفيذ هذه المهمة، وحمل معه كل ما فى الدار من أموال ومتاع وغير ذلك، فغضب بعض شيوخ العلويين لهذا العمل، الذى لا يتفق وكرامة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذهبوا إلى مصر لمقابلة الخليفة الحاكم بأمر الله، ومناقشته فى هذا العمل، وطلبوا منه، أن يرد كل شىء استولى عليه، ولكن الحاكم بأمر الله لم يذعن لطلبهم، ولم يجبهم لما جاءوا إليه. وأدعى أنه ينتمى إلى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنفق عليهم بعض العطايا القليلة، ثم رجعوا إلى المدينة المنورة ساخطين[٣].

وفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م أرسل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله إلى أبى الطيب ابن عم أمير مكة أبى الفتوح - عندما خرج أبو الفتوح إلى بلاد

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٩، الفاسى: العقد الثمين، جـ٤، ص٧٥-٧٩، الرشيدى: الصفا والابتهاج، ورقة ٢٣، ابن ظهيرة: الجامع، ص٣٠٥-٣٠٧، الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٩-٢٥١، سرور: سياسة الفاطميين،ص٢٥-٢٦، وأنفرد السنجارى: [منائح الكرم، جـ١، ص٢٦١-٢٦٢]، بأن ذلك حدث سنة ٣٧٠هـ-٩٨٠م، ويمكن تفنيد ذلك، بأن أمارة ابى الفتوح بدأت فى سنة ٣٨٤هـ-٩٩٤م، وأن المصادر أجمعت على أن هذه الحادثة وقعت سنة ٣٩٠هـ-٩٩٩م.

[٢] جعفر الصادق بن محمد الباقر: ولد جعفر بن محمد الباقر بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب بالمدينة المنورة سنة ٨٠هـ-٦٩٩م، وقد نشأ رضى الله عنه بالمدينة حيث العلم المدنى، وحيث كانت آثار الصحابة رضى الله عنهم بها قائمة، وحيث أكابر التابعين يتحدثون، توفى سنة ١٤٨هـ-٧٦٥م، وعمره ٦٨ سنة، دفن بالبقيع، أنظر: السخارى: التحفة اللطيفة، جـ١، ص٤١٩-٤٢٠.

[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٠٠هـ.

الشام - كتاباً قرر فيه تولية أبى الطيب ولاية الحرمين الشريفين[١]. والواقع التاريخى يوضح أن ولاية أبى الطيب من السليمانيين كانت فعليه بالنسبة لمكة المكرمة[٢]. أما بالنسبة للمدينة المنورة فكانت اسمية. ونظراً لتذبذب مواقف الحاكم بأمر الله، فإن الأمور سارت فى المدينة المنورة شبه عادية، إلى أن قتل سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م، وكانت الحالة الاقتصادية فى مصر وبلاد الشام فى اخر عهده تسير من سئ إلى أسوأ.

وبعد قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م تولى الحكم ابنه الظاهر لدين الله، وهو رابع الخلفاء الفاطميين فى مصر. وفى ايامه اضطربت الأحوال السياسية فى الدولة الفاطمية، وساءت الأمور إلى أن توفى بمصر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م[٣]. وبويع بالخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله فى نفس السنة. وفى خلافة المستنصر بالله، أصيبت مصر بقحط وغلاء شديدين، واستمرت الأيام العجاف ما يزيد على سبع سنوات. وكانت لهذه الأزمة الاقتصادية أثرها فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففى أثناء هذه الأزمة الاقتصادية التى أصيبت بها مصر ابتداء من سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م - كان أمير مكة المكرمة شكر بن ابى الفتوح[٤] الملقب: بتاج المعالى، الذى تولى أمارة مكة المكرمة فيما بين سنتى ٤٣٠-٤٥٣هـ/ ١٠٣٨-١٠٦١م وجمع شكر بين

---

[١] سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص١٣٢.
[٢] أنظر ما سبق، الفصل الأول، ص ٤٩.
[٣] أنظر ابن اياس، بدائل الزهور، جـ١، ق١، ص٢١٤.
[٤] أنظر ما سبق، ص٥٥، من الفصل الأول.

أمارتى مكة المكرمة والمدينة المنورة بعد حرب بينه وبين بنى الحسين، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمى على منابر المدينة المنورة، ومكة المكرمة[١].

واستمر الحال على ما هو عليه إلى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، عندما تمكن بنو مهنا من الحسينيين من الاستقلال بأمارة المدينة المنورة. وما لبث أمير المدينة المنورة أن خطب لبنى العباس وقطع الخطبة للفاطميين، وأظهر عداءه لهم[٢]. ولعل انقطاع العطايا من الخليفة الفاطمى لأمير المدينة المنورة بسبب الشدة المستنصرية، كان وراء هذا التحول إلى العباسيين.

ولم يلبث أن عاد أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر إلى مسرح الأحداث، وما أن استقرت له الأمور، حتى سير جيشاً من الأتراك إلى المدينة المنورة، فتغلب على بنى مهنا من أولاد الحسين، وأجلاهم عن المدينة، وضمها إلى أمارته، وبذلك جمع بين الحرمين الشريفين[٣]. وجعل أبو هاشم محمد بن جعفر الدعاء من على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة للخليفة العباسى.

واستمرت الخطبة للعباسيين حتى جاء الصليحى صاحب اليمن سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م على رأس جيش واستطاع بمن معه من جند وسلاح أن يتولى حكم الحجاز وأمر بإعادة إقامة الخطبة للفاطميين قبل أن يضطر إلى العودة إلى اليمن بعد أن فقد معظم قواته العسكرية[٤]. وعندما اشتدت الضائقة الاقتصادية على المدينة المنورة سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م بسبب انقطاع الصلات من

---

[١] ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٢-١٠٣، الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٥-١٩٦، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ص٢٦٢-٢٦٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٥-٣٠٧، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٨، ماجد: الإمام المستنصر، ص١١٨-١١٩، جمال الدين سرور: مصر، ص١٣٢، القوصى: تجارة مصر، ص١١٢-١١٣، عبد الحميد يونس: الهلالية، ص١٢٩-١٣٠.

[٢] ماجد: الامام المستنصر، ص١٢٠-١٢١، خلافة الفاطميين، ص٢٢٧-٢٢٨.

[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ٢، ص١٩٦-١٩٧، سرور: سياسة الفاطميين، ص٣٠-٣١، النفوذ الفاطمى، ص٢١-٢٢، القوصى: تجارة مصر، ص١١٣-١١٤، محمد سالم العوفى: العلاقة السياسية، ص٢٤٦-٢٤٧.

[٤] أنظر: ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢،ص٢٢٩، الفاسى: جـ١، ص١٧١، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٥٥هـ.

الفاطميين، استولى أمير المدينة المنورة على قناديل وآلات الفضة التي كانت بالمسجد النبوى الشريف، وضرب منها دراهم[١].

وذكر المقريزى فى حوادث سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م أن الدولة الفاطمية تردت فى ضعف شديد نتيجة للظروف الاقتصادية، التى مرت بها خلال الشدة العظمى. وتمكن عضد الدولة البويهى من الاستيلاء على حلب، وبعث من هناك إلى أميرى مكة المكرمة والمدينة المنورة، يطلب منهما إقامة الخطبة للخليفة العباسى القائم، ولعضد الدولة. وأرسل إلى أمير المدينة المنورة عشرين ألف دينار وبذلك قطعت الخطبة للفاطميين من بلاد الحجاز[٢].

وهكذا استفاد العباسيون من الظروف الاقتصادية السيئة التى كانت تعانى منها الخلافة الفاطمية فى مصر فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/القرن الحادى عشر الميلادى، ونجحوا فى مد نفوذهم إلى المدينة المنورة حتى أصبح اسم كل من الخليفة العباسى والأمير البويهى، يذكر من فوق منابر المدينة المنورة. غير إن الفاطميين نجحوا فى إعادة نفوذهم على المدينة المنورة مرة أخرى. ويرجع السبب فى ذلك إلى ما كان يعانيه أهل المدينة المنورة من ضائقة اقتصادية، لما كان يقوم به أميرها الحسين بن مهنا من إجراءات، فقد أثقلهم بالضرائب إذ فرض ضريبة على كل من يرد إلى المدينة زائراً. فامتنع الناس عن زيارة المدينة المنورة، والتفوا حول شخص يسمى محيط العلوى، ونصروه على أمير المدينة، الذى فر إلى خراسان قاصداً السلطان السلجوقى ملكشاه، ووزيره نظام الملك. وأعاد محيط العلوى - الذى لا تذكر المصادر المتداولة عنه شيئاً - الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله على منابر المدينة المنورة سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م[٣].

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٢٥٦، العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٤٦٢هـ، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٩٩.

[٢] المقريزى: اتعاظ الحنفى، جـ٢، ص٣٠٣-٣٠٤، ابن الأثير: الكامل، جـ٨، ص١٠٧-١٠٨، ماجد: ظهور خلافة الفاطميين، ص٢٣٠-٢٣٢.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٣٠٤، ابن تعزى بردى: النجوم، جـ٥، ص١٠٤، المناوى الوزارة، ص٢١١.

المقتدى بالله العباسى[١]. ولعل سبب ذلك يرجع إلى انقطاع الهدايا والعطايا، التى كانت ترسل إلى أمير المدينة المنورة من الخليفة الفاطمى.

وكيفما كان الأمر، ففى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م توفى أمير المدينة المنورة منصور بن عماره الحسينى، وخلفه فى أمارتها ولده، الذى لم تسمه المصادر التاريخية. غير أنه من الثابت تاريخياً أن الذين تولوا أمارة المدينة، هم من ولد مهنا، ومنهم القاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود، وكنيته أبو فليته[٢]. وكان موجوداً حوالى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٣].

وقد سار هذا الأمير على نهج سلفه، بالنسبة للولاء للفاطميين أو العباسيين، اعتماداً على ما يرسله الفاطميون أو العباسيون من الغلات والأموال والعطايا. وتتابع من بعده الأمراء من بنى مهنا الحسينيين فى حكم المدينة المنورة، وتقلبوا فى الولاء بين العباسيين أو الفاطميين.

وهكذا أتصفت حوادث السنوات ٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م بالاضطراب وعدم الاستقرار فى المدينة المنورة. فلم تستمر الخطبة لأى من الفاطميين أو العباسيين لمدة طويلة. فإذا أرسل الخليفة الفاطمى العطايا والأموال والهبات إلى أمير المدينة المنورة، أصبحت الخطبة باسمه على منابرها. وإذا عجزت الخلافة الفاطمية عن ذلك نظراً للضائقة الاقتصادية، التى عانت منها الخلافة أثناء الشدة المستنصرية، وبخاصة فى أخريات أيامها، أرسل العباسيون الأموال والميرة إلى المدينة المنورة، فتعود الخطبة للعباسيين لفترة طويلة أو قصيرة. فقد كانت الأزمات الاقتصادية والسنوات العجاف تطفو على السطح السياسى فى المدينة المنورة من وقت إلى آخر، مما جعل الأمور فيها تتصف بعدم الاستقرار والفوضى والاضطراب.

---

[١] العينى: عقد الجمان،حوادث سنة ٤٧٩هـ،ابن فهد :إتحاف الورى،جـ٢ ،ص٤٨٢-٤٨٤.
[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٠، ابن خلدون: تاريخ، جـ٤، ص١٠٩، السخاوى: التحفة اللطيفة، جـ٣، ص٤٠٤-٤٠٥.
[٣] أنظر زامباور:معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى،جـ١ ،ص١٧٧.

الفصل الرابع

الأحوال الإقتصادية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة

أ- العوامل المؤثرة فى الأحوال الإقتصادية :

* العوامل المناخية.
* مدى الاستقرار.
* العوامل السياسية.

ب- الزراعة والرعى:

* الزراعة والرعى فى مكة المكرمة.
* الزراعة والرعى فى المدينة المنورة.

جـ- النشاط التجارى:

* السلع والمتاجر الصادرة والواردة.
* أسواق مكة والمدينة.
* النقود والمعاملات المالية.
* المكوس والموارد المالية الأخرى.
* موانئ مكة والمدينة.

د- الحرف والصناعات:

أ- العوامل المؤثرة فى الأحوال الإقتصادية:

تختلف مكة والمدينة والمناطق المحيطة بها من الناحية المناخية، كما تختلف من الناحية الطبيعية. ففيها مناطق جدباء شديدة الحرارة شحيحة المياة، محاطة بالجبال، يعيش أهلها على ما يجلب إليها من الرزق والطعام من الخارج، لأن مواردها لم تكن تكفى لسد حاجة السكان. ومن هذه المناطق مكة المكرمة، التى تقوم فى واد غير ذى زرع يعرف ببطن مكة، وكانت تعتمد فى حياتها الاقتصادية على ما يجلب إليها من الخارج[١]. وعرفت مكة المكرمة بجوها الشديد الحرارة، لذلك يهرع معظم أهلها عند اشتداد الحرارة إلى الظلال وإلى الجبال التى تحيط بها من الحر، ويعتمد أهلها وسكانها على مياة الآبار[٢].

غير إنه كانت هناك مناطق أخرى تجود فيها التربة. وتنزل بها الأمطار الغزيرة، وتسيل المياة من الجبال إلى الوديان والشعاب[٣]. وتنبت فى هذه المناطق الزروع والحبوب والأشجار من أعناب ونخيل ورمان وزيتون مثل منطقة الطائف والمدينة المنورة، والوديان التى بين مكة وجدة والمدينة المنورة.

وهذه العوامل المناخية التى تمتاز بها منطقة الحجاز، جعلت أغلب أراضيها صحراء، وباعدت بين مراكز الاستقرار بها، وأثرت تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ومن العوامل التى أثرت فى الأحوال الإقتصادية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع البحث الفتن والمنازعات، حقيقة كانت كل من مكة والمدينة مستقلة استقلالا ذاتياً طوال الفترة التاريخية من سنة ٣٥٨-٥٦٧هـ

---

[١] صالح أحمد العلى: محاضرات فى تاريخ العرب، جـ١، ص٩٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٢٩٧.

[٢] السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، جـ١، ص٢٩٧، محمود طه أبو العلا: جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ٢، ص٩٢.

[٣] صالح أحمد على: المرجع السابق، جـ١، ص٩٤.

/٩٦٨-١١٧١م)،إلا إن حكامها كانوا يتبعون الخلافة الفاطمية أحياناً والخلافة العباسية أحياناً أخرى. وكان يرمز إلى هذه التبعية الخطبة على المنابر للخليفة الفاطمى أو للخليفة العباسي. غير إنه من الملاحظ أن تبعية مكة والمدينة لهاتين الخلافتين الفاطمية أو العباسية، لم تكن تبعية مطلقة، بدليل أن نفوذ كل من الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية لا يتعدى الخطبة للخلفاء من على منابر الحرمين الشريفين، وقبول الهبات والعطايا المستمرة منهم[١]. ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى الظروف الإقتصادية لبلاد الحجاز، فنجد أن ولاة مكة لم يكن فى مقدورهم تكوين جيش قوى، يحمى استقلالهم من أى تدخل خارجي، وذلك لقلة مواردهم الاقتصادية وعجزهم عن سد نفقاتهم وإحتياجاتهم، لذلك كان عليهم أن يتبعوا سياسة المهادنة مع هاتين الخلافتين القويتين فى هذه الفترة، وقبول ما يرسله الخلفاء من هدايا وعطايا، بالرغم من ذلك فإن ولاة مكة من الأشراف لم يحافظوا فى كثير من الأحيان على الأمن واستقرار الأمور فى مكة المكرمة.

ويرجع السبب فى ذلك إلى كثرة الفتن والمنازعات الأسرية، سواء بين ولاة مكة من بنى الحسن وبين ولاة المدينة من بنى الحسين، أو بين أبناء الأسرة الواحدة، تطلعاً إلى الوصول إلى منصب الحكم. وعمل العباسيون والفاطميون بدورهم على زيادة لهيب تلك الفتن والمنازعات، بمؤازرة فريق ضد الآخر، أو الوقوف إلى جانب أحد المتطلعين إلى منصب الولاية. وكان لهذه الفتن والمنازعات الأسرية نتائجها الواضحة فى سوء الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة، خلال الفترة التاريخية موضوع الرسالة. فقد رأينا فى الفصول السابقة - على سبيل المثال - ما حدث سنة ٣٦١هـ/٩٧١م من وقائع حربية بين والى مكة جعفر بن محمد ووالى المدينة من بنى الحسين، الذى ساعدته قوات فاطمية لإرغام أمير مكة على إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى، غير إن ولاة أمر مكة استطاعوا أن يهزموا قوات المدينة[٢]. وفى سنة

---

[١] أنظر ما سبق، ص ٢٦.

[٢] أنظر ما سبق، ص ٣٨.

٣٦٦هـ/٩٧٦م عانت مكة من حصار، قامت به القوات الفاطمية بسبب قطع الخطبة من على منابرها للخليفة الفاطمى، وقد اشتد بها الغلاء، حتى اضطر أمير مكة - فى مقابل رفع الحصار وإطلاق الميرة - أن يقيم الخطبة للخليفة الفاطمى العزيز[١]. ودار القتال بين أبى الطيب من السليمانيين والهواشم سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م. وذلك بعد موت شكر بن أبى الفتوح، الذى لم ينجب أولاداً يخلفونه فى أمارة مكة. وقد استطاع محمد بن جعفر من الهواشم، أن ينزل الهزيمة بالسليمانيين أولاد بنى الطيب، وطردهم من مكة المكرمة، فرحلوا واستقروا فى اليمن[٢]. ورأينا فيما سبق أن المساعدات التى كانت ترد من مصر إلى مكة، قد توقفت بسبب اضطراب الأحوال الاقتصادية فى مصر أثناء الشدة المستنصرية، وفى ظل هذه الظروف التى كانت تعانى منها مصر، تذبذب ولاء الهاشميين بين الفاطميين والعباسيين. هذا التذبذب دفع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بأن يستغل على بن محمد الصليحى داعيته باليمن، لبسط نفوذه على مكة المكرمة سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م[٣]. غير إن الأمور لم تستقر بمكة بعد عودة على بن محمد الصليحى إلى اليمن، فقد أغار الأشراف السليمانيون على مكة، ونهبوها، وأزاحوا عن امارتها أميرها محمد بن جعفر بن أبى هاشم. وأضطر على بن محمد الصليحى إلى منع أهل اليمن من الحج، مما أدى إلى إرتفاع الأسعار، وسوء الأحوال الإقتصادية. وفى سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م خرج على الحجاج عبيد مكة، ونهبوهم، فرحلوا إلى المدينة المنورة، ولم يطف أحد بالبيت الحرام فى ذلك العام[٤]. وفى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م أصاب وقع الطاعون الأهالى فى جميع بلاد الحجاز، وقد عانت مكة والمدينة من هذا المرض الفتاك، الذى كان له أثره السيء على الأحوال الاقتصادية فى الحجاز لسنوات طويلة[٥].

---

[١] أنظر ما سبق، ص ٣١.

[٢] أنظر ما سبق، ص ٥٨.

[٣] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢، يحيى بن الحسين: غاية الأمانى، ص٢٥٤.

[٤] ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٩٦-٩٧.

[٥] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٢-٤٨٤.

ولكثرة حوادث الفتن والمنازعات وما يحيط بها من نهب وسلب، فقد انقطعت قوافل الحجاج فى بعض السنوات، مما كان له أثر سىء على الأحوال الإقتصادية فى مكة والمدينة، مثل ما حدث فى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م على سبيل المثال[١]. كما تحتفل المصادر التاريخية بمعلومات وفيرة عن الفتن والمنازعات الأسرية، التى شبت بين الأشراف، وكان لها تأثيرها السلبى على الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة. ففى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م وعلى سبيل المثال، قام نزاع بين فليته بن قاسم أمير مكة وابن عمه عبد الله، وألحق أمير مكة بعبد الله هزيمة بعسفان[٢]. وبعد وفاة فليته تولى أمارة مكة هاشم بن فليته، غير إن الأحوال الداخلية لم تستقر فى مكة، نتيجة وقوع إختلاف بين أبناء فليته على الحكم، مما ادى إلى نشوب القتال فيما بينهم، مثلما حدث فى موسم حج ٥٣٩هـ/١١٤٤م[٣]. وفى موسم حج ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م وقعت فتنة بين عبيد مكة المكرمة والحجاج العراقيين بمنى، واستحكمت الحرب بين الطرفين ونتيجة لهذه الفتنة لم يستطع الحجاج العراقيون من إتمام نسك الحج إلا الوقوف بعرفات، ورجعوا إلى بلادهم[٤]. واستمرت الاضطرابات والفتن فى مكة المكرمة، وبخاصة فى مواسم الحج لسنوات طويلة متتالية، وتركت آثارها السيئة على الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع البحث.

وكانت كثرة وقلة أعداد الحجاج الوافدين من العوامل التى أثرت فى الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة. وأدى هذا إلى إهتمام ولاة الحرمين الشريفين أحياناً بتأمين طرق أو دروب الحج. وقد سلك الحجاج دروباً تمكنهم

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص١٠٨-١٠٩.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص١١٨.

[٣] السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢١٧-٢١٨.

[٤] السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ١٢٤-١٢٥.

من الوصول إلى البيت العتيق، وتفرعت هذه الدروب من البلاد الإسلامية، حيث عبرت هذه الجموع الغفيرة، لتقطع المسافات الشاسعة بحراً وبراً، ولتلتقي كلها في أقدس البقاع. هذه الدروب هي: درب الحاج العراقي، ودرب الحاج المصري، ودرب الحاج الشامي، ودرب الحاج اليمني.

وتجدر الإشارة كما أشار الأستاذ الدكتور أحمد الزيلعي أن هذه الدروب أو الطرق، تأتي من العواصم ذات العلاقة والتأثير السياسي في تاريخ مكة حينذاك، هذا فضلا عن أن قوافل الحاج التي ترد منها، كانت أكبر من تلك التي ترد من المواقع الأخرى من حيث عددها وإنتظامها[١].

ودرب الحاج العراقي يبدأ من الحيرة، وينتهي إلى مكة المكرمة ولكي ندرك أهمية هذا الدرب في خدمة الحجاج الوافدين إلى مكة المكرمة مما ذكره ابن جبير في رحلته أنه توجد على طول الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة مصانع وبرك وآبار من آثار السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرشيد وابنة عمه، التي نتدبت نفسها لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة[٢]. وتبرز من أقوال ابن جبير حقائق تشيد بضخامة العمل الذي قامت به السيدة زبيدة على هذا الطريق في مراحله المختلفة، هذه الأعمال جعلت كثيراً من الحجاج، يسلكونه إلى الأراضي المقدسة، وسهلت لهم الطريق إلى مكة والمدينة.

---

[١] عن طرق الحج والصعوبات التي تعترض الحاج فيها وإصلاحها، أنظر الزيلعي: مكة، ص٩٩-١١٨.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص١٦٥، وانظر أيضاً عن السيدة زبيدة ومنشآتها ملك محمد محمد الخياط: السيدة زبيدة ودورها السياسي والعمراني، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الشريعة الدراسات الاسلامية-جامعة أم القرى سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٩١-١٩٣، سعد الراشد، درب زبيدة في العصر العباسي، مجلة الدارة العدد الأول، ١٣٩٨هـ، ص٢٣١.

أما درب الحاج المصرى فكان يبدأ من الفسطاط بمصر إلى الحرمين الشريفين وكانت مسيرة درب الحاج المصرى عبر شبه جزيرة سيناء، حتى يصل إلى إيلة على رأس خليج العقبة، ثم يتجه الطريق بعد ذلك غرب شبه الجزيرة العربية، موازياً ساحل البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب، حتى يصل إلى ينبع النخيل، ومن ينبع النخيل يتفرع إلى فرعين، إما يتجه إلى المدينة المنورة، أو يتجه الفرع الثانى إلى مكة المكرمة[١]. غير إن هذا الطريق لم يستمر طويلا، بسبب الغزو الصليبى لبلاد الشام، فتغير مسار حجاج مصر والمغرب إلى الصحراء عيذاب، حيث يركبون النيل من ساحل الفسطاط إلى قوص فى صعيد مصر، ثم يركبون الإبل من قوص، ويعبرون الصحراء الشرقية، ثم يركبون بعد ذلك البحر فى الجلاب أى المراكب إلى جدة.

والرحلة البحرية من عيذاب إلى جدة يقطعها الحجاج بالمراكب، وكان هذا الطريق من أصعب المراحل، التى يقطعها الحجاج خلال رحلتهم إلى البقاع المقدسة، وذلك لصعوبة الملاحة البحرية فى البحر الأحمر، التى تسببت فى غرق بعض المراكب، بالإضافة إلى ما كان يعانى منه الحجاج فى ميناء عيذاب من معاملة قاسية من أصحاب المراكب، التى كانت تنقل الحجاج من عيذاب إلى جدة وتدعى الجلاب، وهى عبارة عن مراكب واهية، لا تستخدم المسامير فى صناعتها، وإنما هى مجموعة من الألواح تشد إلى بعضها بنوع من الحبال، شراعها من الحصير. وعندما يصل الحجاج إلى جدة، يسافرون منها إلى مكة المكرمة[٢].

---

[١] أنظر محمد لبيب البتنونى: الرحلة الحجازية، ص٣٣-٣٤، سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٤٤، أنظر أيضاً، الزيلعى: مكة، ص١٠٠-١٠٢.

[٢] ابن جبير: المصدر السابق، ص٤٢، سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٦٢.

أما درب الحاج الشامى، فقد كان له فرعان: داخلى من دمشق إلى مهاف وتبوك ثم إلى المدينة المنورة. ولقد أشار إلى هذا الدرب الجغرافيون والمؤرخون العرب القدامى. أما الفرع الثانى فهو هامشى من جنوب فلسطين إلى العقبة. ويلتحم بدرب الحاج المصرى، فساحل البحر الأحمر إلى ينبع، فالمدينة المنورة أو مكة المكرمة[١].

أما درب الحاج اليمنى فقد ألقى الدكتور الزيلعى أضواء جديدة على هذا الدرب، فإلى جانب الطريق البحرى يسلك الحجاج اليمنيون عدة طرق برية، أشهرها الطريق العليا. وهى التى تبدأ من صنعاء مروراً بصعيده، فنجران، فالطائف، ثم تنتهى بمكة المكرمة. أما الدرب الثانى فهو طريق تهامة. وهذا الدرب ينقسم إلى طريقين: طريق ساحلى يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، وآخر متوسط بين الطريق العليا والطريق الساحلى. وهذا الطريق المتوسط يبدأ من تعز، ويمر بزبيد، ويلتقى بالطريق الساحلى فى السرين. ومنها تقطع القافلة عدة مراحل، حتى تصل يلملم، وهى ميقات أصل اليمن. ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا مكة المكرمة[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن الحسين بن سلامة المتوفى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م المتولى منصب الوزارة فى بلاد الدولة الزيادية فى أواخر القرن الرابع الهجرى، قد عنى عناية فائقة بطريق الحج اليمنى، مثل إنشاء الجوامع الكبيرة والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة. وحفر الآبار ومصانع الماء فى المقافز المنقطعة، وبنى استراحات على الطرقات. كما عمر الحسين بن سلامة عقبة الطائف، وشملت عمارته الطريقين الساحلى والأوسط من بدايتهما فى اليمن، حتى التقائها فى السرين على مسافة عدة مراحل من مكة[٣].

---

[١] أنظر سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية، ص١٧٠.

[٢] أنظر أحمد الزيلعى: مكة، ص١٠٢-١٠٣.

[٣] أحمد بن أحمد بن محمد المطاع: تاريخ اليمن الإسلامى من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦م، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، ط الأولى ١٩٨٦م-١٤٠٧هـ، ٦٣-٦٤، أنظر أحمد الزيلعى: مكة، ص١١٦-١١٧.

وامتدت عمارة الوزير اليمنى الحسين بن سلامة إلى مكة المكرمة، فمن مآثره مسجد بناه على جبل الرحمة بعرفات، وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة. ويرى الأستاذ الدكتور الزيلعى أن الماء كان يحمل من جبل الرحمة إلى صحراء عرفات، حيث عملت أحواض، تملأ بالماء أيام الحج، وأن عين نعمان التى عملتها السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، كانت تقف عند نقطة معينة من حدود عرفه، ولم تصل إلى جبل الرحمة، فعمل الحسين بن سلامة على إيصالها إلى جبل الرحمة، ثم إلى صحراء عرفات، كما يبدو أنه حاول إيصال عين نعمان من عرفات إلى مكة المكرمة[١].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدروب الثلاث [العراقى - المصرى والشامى - اليمنى] لعبت دوراً هاماً فى الأحوال الاقتصادية لمكة المكرمة خلال الفترة التاريخية موضوع الرسالة. وكان تأمين هذه الدروب من إغارات قطاع الطرق واللصوص. وتسهيل الرحلة لحجاج بيت الله الحرام، ومن توفير المياة والمنازل على طول الطريق، من العوامل الهامة، لكثرة أو قلة أعداد الحجاج الوافدين إلى الحرمين الشريفين، وأثر ذلك على الأحوال الاقتصادية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكانت مساعدات الخلفاء الفاطميين والعباسيين من العوامل الهامة التى أثرت فى الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع البحث. وقد رأينا فى الفصول السابقة أن هذه المساعدات الاقتصادية كانت نتيجة التنافس الشديد بين الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية، لتحقيق السيادة الإسمية على مكة المكرمة والمدينة المنورة، لما لذلك من أهمية فى تحقيق السيادة على العالم الإسلامى[٢].

---

[١] أحمد الزيلعى: المرجع السابق، ص١٣٢-١٣٣.

[٢] انظر ما سبق، ص٣٠.

وكانت المساعدات الفاطمية تصل إلى مكة والمدينة منذ عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أثناء إقامته فى بلاد المغرب، واستمرت أيضاً مساعدته إلى مكة والمدينة حتى بعد استقراره فى مصر. وسار الخلفاء الفاطميين من بعده على نفس السياسة لتعزيز سيادتهم على بلاد الحجاز. لذلك استمرت الأموال والأقوات ترسل من مصر إلى مكة والمدينة، تبعاً لأحوال مصر الاقتصادية.

ففى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م - على سبيل المثال - وصلت قوة عسكرية إلى الحجاز محملة بالأقوات والأموال عدتها عشرون حملا، وعدة أحمال متاع من قبل الخليفة المعز لدين الله[١]. كذلك ارسل الخليفة المعز لدين الله فى موسم الحج لسنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م مع أمير الحاج أموالا كثيرة، وأمره بتوزيعها على الحجاج فى الحرمين الشريفين[٢]. وتوثيقاً للعلاقات الحجازية - المصرية، فقد وفد إلى الديار المصرية وفد من أشراف الحجاز لمقابلة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م، وقد أغدق عليهم الخليفة مبلغاً من المال قدره أربعمائة ألف درهم، بالإضافة إلى أنه بعث معهم إلى مكة بالأموال والنفقة والكسوة للكعبة المشرفة[٣]. وفى سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م خرجت قافلة الحاج من مصر محملة بالقمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب ومحراب من ذهب للكعبة[٤].

وقد استمرت مساعدات الخلفاء الفاطميين إلى مكة والمدينة إلى سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م، حيث جهز الخليفة الفاطمى العزيز بالله مع قافلة الحج

---

[١] سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٤-٢٥، ص١٥-١٦، العوفى: العلاقات السياسية، ص٥٦-٥٧.

[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧.

[٣] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢١٦-٢٢٢، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١١، ص٢٨٠.

[٤] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٤٦.

كسوة الكعبة وصلات الأشراف والطيب والشمع والزيت، فبلغت تكاليف هذه المساعدات مائة ألف دينار[١].

وعندما أضطربت الأحوال السياسية فى الدولة الفاطمية فى السنوات ٣٧٠- ٣٨٠هـ/٩٨٠-٩٩٠م، انقطعت المساعدات والهبات الفاطمية عن مكة والمدينة وأصبحت الفرصة مهيأة أمام العباسيين لبسط نفوذهم على المدينتين المقدستين.

وأخذت المساعدات والهبات طريقها إليهما من قبل العباسيين والبويهيين فى بغداد[٢]. وأقيمت الخطبة فى مكة والمدينة للعباسيين مما أدى بالخلافة الفاطمية - بعد استقرار الأمور بها - إلى ارسال حملة عسكرية إلى مكة سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م أعادت الخطبة إلى الفاطميين[٣]. وأرسل الخليفة العزيز بالله الفاطمى قافلة كبيرة، حملت معها الغلال والطيب وكسوة الكعبة، وأغدق الكثير من الهبات والعطايا على أهل مكة. واستمر الخليفة الفاطمى فى إرسال العطايا والسماعدات إلى بلاد الحجاز بصفة مستمرة طوال الأعوام ٣٨١-٣٨٤هـ/ ٩٩١-٩٩٤م[٤].

واستمراراً لسياسة المساعدات التى كانت تصل إلى مكة من قبل الخلفاء الفاطميين، فقد وصلت قافلة كبيرة فى موسم حج سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م من قبل الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله محملة بالغلال والعطايا والخلع والكسوة

---

[١] المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٢.
[٢] سرور: النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص١٦، سياسة الفاطميين، ص٢٤.
[٣] أنظر ما سبق، ص ٣٣ .
[٤] أنظر ما سبق، ص ٣٦ .

كالعادة، حتى يضمن استمرار إقامة الخطبة فى مكة المكرمة[١]. وذكر العينى أنه فى سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م أرسل الخليفة الفاطمى العطايا والأموال الكثيرة وكسوة الكعبة المصنوعة من القباطى الأبيض[٢]. وذكر ناصر خسرو أن الخليفة الفاطمى كان يرسل إلى أمير مكة شكر بن أبى الفتوح، الذى توفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م كل شهر ثلاثة آلاف دينار، ويرسل أيضاً إليه الخيل والخلع مرتين فى السنة[٣].

غير أن أحوال مصر الاقتصادية اضطربت فى عهد الخليفة المستنصر بالله، وبخاصة خلال السنوات التى عرفت بالشدة المستنصرية. فتوقفت السماعدات والهبات التى كانت ترد من مصر إلى مكة والمدينة. وعانت المدينتان من هذه الضائقة الاقتصادية معاناة كبيرة[٤]. وتحت هذه الظروف القاسية التى كانت تعانى منها مكة المكرمة، لجأ أميرها إلى الخلافة العباسية طالباً العون والمساعدة، فوصل رسول أمير مكة بغداد سنة ٣٦٣هـ/١٠٧٠م، حيث استقبله الخليفة العباسى القائم بأمر الله والسلطان السلجوقى ألب أرسلان، وأسرع العباسيون إلى منح أمير مكة ثلاثين ألف دينار، وخلعا نفيسة، وقرروا له راتباً سنوياً[٥]. ولم يكتف العباسيون بالسيطرة على أمير مكة المكرمة فقط بل حاولوا أن يمدوا مساعدتهم إلى أمير المدينة، فأغروه بمنحه هبة مالية كبيرة[٦]. وبهذه الطريقة نجح العباسيون فى مد نفوذهم السياسى إلى بلاد الحجاز. واستمرت الصلات بين العباسيين والحجازيين نتيجة استمرار عطايا الخليفة العباسى، وأخذت الأموال الكثيرة تتدفق إلى أمير مكة ابن أبى هاشم، وبخاصة فى موسم حج سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م[٧].

---

[١] أنظر ما سبق، ص ٣٨.
[٢] أنظر ما سبق، ص ٣٩.
[٣] ناصر خسرو: سفرنامه، ص١١٢.
[٤] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٢٥٦.
[٥] أنظر ما سبق، ص ٦٩.
[٦] أنظر ما سبق، ص ٦٩.
[٧] أنظر ما سبق، ص ٧٠ ـ ٧٢

فى سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م تحسنت الأوضاع الإقتصادية فى الدولة الفاطمية، بعد أن تولى الوزارة الفاطمية فى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى، وساءت أمور الخلافة العباسية بعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان، فانقطعت الأموال والمساعدات التى كانت ترد من بغداد، وعادت الخطبة للفاطميين، قام أمير مكة ابن ابى هاشم بتوزيع الأموال، التى أرسلت من مصر[١]. غير إن هذا لم يكن نهاية المطاف، إذ عاد التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية بعد ذلك، وحتى قبيل سقوط الخلافة الفاطمية.

ب- الزراعة والرعى :

أولا: الزراعة والرعى فى مكة المكرمة:

تعتمد الزراعة فى بلاد الحجاز عامة على الأمطار أو ماء العيون ويرجع ذلك إلى الإختلاف الواضح فى تضاريس مكة المكرمة ومناخها بصفة خاصة، حيث يغلب عليها الجبال التى تتخللها الأودية، ولا يوجد بها أنهار جارية، إلا ما كان يجرى إليها من مياة العيون البعيدة عن عين البلد، وأطيب مياهها ماء زمزم. وقد ذكر القلقشندى عن مكة "بأنها مدينة فى بطن واد والجبال محتفة بها[٢]. وكثير من جبال مكة وأوديتها مسكونة معمورة، حيث المياة والعيون الجارية والحدائق، ومياة زمزم لا تكفى بأى حال من الأحوال حاجة سكان مكة، بالاضافة إلى آلاف الحجاج، الذين كانوا يأتونها سنوياً. لذلك حفرت آبار كثيرة بعد زمزم، سواء كان ذلك فى الجاهلية أو فى الإسلام، واعتمد سكان مكة فى الزراعة على مياه الأمطار والآبار والعيون[٣].

---

[١] ابن الجوزى: المنتظم، ص٢٩٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٧-٤٧٨.
[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٤٩-٢٥٠.
[٣] جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى، ص١١٩.

ونظراً لأن مناخ مكة يتميز بالجفاف وارتفاع الحرارة[١]. لذلك نجد أن محاصيلها الزراعية قليلة، وبخاصة فى بساتينها التى تقع فى أطرافها وضواحيها، التى كانت منتشرة إلى مسافات بعيدة. وقد كان ذلك سبباً لأن يعتمد المكيون على غيرهم فى حياتهم المعيشية وفى اقواتهم[٢]. هذا بالاضافة إلى الحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج، فيضطرون إلى جلب ميرتهم معهم من بلادهم. ولذلك كانت هذه المناطق المجاورة لمكة المكرمة والوديان الموجودة بين مكة وجدة، تنبت مختلف النباتات، وتمد مكة بكل ما تحتاج إليه من الخضر والبقول والفواكه، وبخاصة منطقة الطائف، التى حبتها الطبيعة، فأغدقت عليها كثيراً من هباتها وحققت البيئة الطبيعية للطائف كل مقومات الحياة الاقتصادية الغنية[٣]. وقد كان لأهل مكة بعض المزارع والحدائق والآبار، التى يمتلكونها بمنطقة الطائف. وأدت كثرة البساتين وإنتشارها على سفوح الجبال والوديان حول الطائف إلى كثرة إنتاج الفاكهة وتنوعها[٤].

وتعتبر الحنطة الإنتاج الزراعى الأول فى الطائف. وعلى حنطة الطائف كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة. فكانت العير تقبل من السراة والطائف، تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل إلى مكة، وكان عسل الطائف مما يهادى به فى مكة[٥]. بالإضافة إلى ذلك فقد اشتهرت الطائف بأنواع كثيرة من الفاكهة مثل: النخيل والأعناب والموز والرمان والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ[٦]. وكان معظم إنتاج الطائف من هذه الفواكه، وبخاصة الزبيب الذى يرسل إلى مكة لحاجة أهلها إليه، لتحليه مياه الابار، التى تزداد فيها نسبة الملوحة[٧]. وكانت الطائف تعتبر المدينة الثانية فى الحجاز من

---

[١] أحمد السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص١٥، صالح أحمد العلى: محاضرات فى تاريخ العرب، جـ١، ص٩٤.

[٢] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ١، ص٣٠١.

[٣] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٨-٢٥٩.

[٤] عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص٧٣، نادية حسنى صقر: الطائف، ص٤٠.

[٥] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣٢٥، نادية حسنى صقر: الطائف، ص٤٤.

[٦] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٨-٩، نادية حسنى صقر: الطائف، ص٤١، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٢٣، الزيلعى: مكة، ص١٥٧-١٥٨.

[٧] نادية حسنى صقر: المرجع السابق، ص٤٣.

حيث الأهمية الاقتصادية، واسمها يقترن بمكة فيقال "مكة من الطائف والطائف من مكة" وكانتا تسميان بالقريتين من قوله تعالى: « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[١].

استثمر المكيون ممتلكاتهم وعقاراتهم وبساتينهم فى الطائف، وجعلوها أساساً لاقتصادياتهم، وبذلك أصبحت مكة تعيش على الإنتاج الزراعى بمنطقة الطائف. ولم يقتصر الأمر على هذا، بل نجد بعض أهل مكة، يمتلكون موارد المياه إلى الآبار والعيون بالطائف. وخففت ثروة الطائف الطبيعية الأزمات الاقتصادية التى كانت تجتاح مكة فى بعض الفترات، وقد تغيرت نظرة الرجل العربى فى الحجاز بالنسبة إلى الزراعة، وتبدلت عما كانت عليه فى العصر الجاهلى، عندما كان يأنف الزراعة، وكان يفضل عليها حرفة التجارة والرعى. أما بعد ذلك فقد أخذ يمارس الزراعة بمساعدة الخدم والعبيد، مقابل حصوله على ربع غلة المحصول[٢]. وكان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة المكرمة، تروى بمياه العيون كعين سليمان وغيرها. وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية، وقد عمل المكيون على استقدام عمال من المغاربة من ذوى الخبرة بالفلاحة والزراعة، نهضوا بالزراعة فيها، وأحدثوا بها كثيراً من البساتين والمزارع[٣]. وقد ذكر ابن جبير أن التمور توجد بكميات قليلة فى مكة، وكان المكيون عندما يطيب يبسطونه على الأرض حتى يجف قليلا، ويرصونه فى سلال فوق بعضه البعض، ويرفعونه[٤].

وأعتمدت قرى بطن نخل على سوق مكة فى بيع محاصيلها الزراعية، وهى إلى الشرق من مكة، فيما بينها وبين الطائف، وهى قرى ذات عيون وحدائق ومزارع. وكانت هناك قرى كثيرة وعيون غزيرة تقع فى بطن مر شمال

[١] القرآن الكريم: سورة الزخرف، آية ٣١.

[٢] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص٨-١١، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١١٩.

[٣] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقتها الخارجية، ص١٥٩.

[٤] أنظر ابن جبير: الرحلة، ص٨٩.

مكة. وهو واد خصيب كثير النخل. وتشغل مزارع النخيل ببطن مر رقعة واسعة تتصل بوادى نخلة. وتجاور بطن مر عدة أودية ومناطق زراعية كعسفان والبرزة وكليه وخليص. وجميعها تشتهر بزراعة الخضر والحبوب والنخيل، وتعتمد فى زراعتها على العيون والأمطار. وأعتمدت هذه القرى على سوق مكة فى بيع محصولاتها الزراعية[١].

وإلى الجنوب من مكة تقع جبال السراة، وهى أرض عالية، وجبال مشرفة على البحر، تمتد من الطائف إلى صنعاء. وهى موطن الحبوب والتمور والعسل وكانت تضم أكثر من مائتى قرية، بها عيون متدفقة ومزارع ونخل. وكان سكان هذه القرى يجلبون إلى مكة كثيراً من الخيرات من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن واللوز والزبيب وغيرها[٢].

أما من ناحية الرعى فكان على نطاق محدود، فى الوديان والشعاب المجاورة لمنطقة مكة، والتى كانت تنبت الكلأ والشجيرات الرعوية، التى تزدهر فى مواسم معينة من السنة[٣].

أضف إلى ذلك أن مدينة مكة كانت مدينة تجارية، تقوم على تجارة القوافل، لذلك اهتم أهلها بتربية الماشية من غنم وأبقار وإبل[٤]. إضافة إلى الإبل التى كانوا يستأجرونها، لأن حاجتهم إليها أشد، ونفعها لهم أكبر. عدا عن أنهم كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الحمير والبغال، التى كان لها سوق نشطة فى مكة[٥].

---

[١] أنظر الزيلعى: نفس المرجع، ص١٥٨-١٥٩.
[٢] أنظر الزيلعى: نفس المرجع، ص١٥٩-١٦٠.
[٣] ابن الأثير: أسد الغابة، جـ١، ص١٢١، أحمد الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، ص٢١٨.
[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٤٨.
[٥] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٢١٨-٢١٩.

ثانياً: الزراعة والرعى فى المدينة المنورة :

أما عن الزراعة والرعى فى المدينة المنورة، فقد أثر موقع هذه المدينة وجغرافيتها على نشاط السكان الاقتصادى. فالمدينة المنورة تقع فى منطقة خصيبة التربة، تسيل فيها الوديان، التى تغذى هذه المنطقة بالمياه الكافية لقيام الزراعة فيها بشكل جيد. أضف إلى ذلك العيون والآبار التى كثرت فى منطقة المدينة وما حولها، والتى قام بحفرها السكان، للإنتفاع بمياها للشرب والسقى. ولتوفر المياه فى المدينة اشتغل معظم أهلها بالزراعة، واتخذوا منها حرفتهم الرئيسية[١]. ومما ساعدهم على نجاحها خصوبة التربة ووجود مصادر كثيرة من مياه الآبار والعيون ووديان تفيض بمياه السيول. لذلك فقد برع أهل المدينة بالزراعات المتنوعة التى توفر الجزء الأكبر من حاجة السكان الغذائية. أما الذى يفيض عن حاجتهم من الثمار والمزروعات، فكان أهل المدينة يبادلون بها تجارياً مع مدن الحجاز الأخرى[٢].

وقد تحدث ياقوت الحموى فى معجمه عن مصادر المياه فى المدينة المنورة التى قامت الزراعة بالقرب منها، والتى يتم عن طريقها سقاية المزارع والنخيل[٣].

وقد أورد ابن النجار فى كتابه الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة ثبتاً بآبار المدينة المنورة وأولها بئر [حا] شمال شرقى المدينة، وبئر [أريس] غربى المدينة مقابلة مسجد قباء وماؤها عذب، وبئر [بضاعة] بالقرب من سقيفة بنى ساعدة، ثم بئر [غرس] التى كانت تبعد عن مسجد قباء نحو نصف ميل، وبئر [البصة] التى كانت قريبة من البقيع، ثم أخيراً بئر [رومة] فى وادى العقيق، وكانت بعيدة عن المدينة المنورة[٤].

---

[١] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٦٠، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب، جـ١، ص٣٠١.

[٢] سليمان مالكى: مرافق الحج، ص٤٣، وبلاد الحجاز، ص١٠١-١٠٢، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص١٨٠، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٥-٣٥٦، عائشة باقاسى بلاد الحجاز، ص٧٣.

[٣] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، ص٨٢-٨٣.

[٤] ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٤٢-٣٤٥.

ويعتبر وادى العقيق من أخصب مناطق المدينة المنورة، يليه فى الخصوبة وادى مذينيب، ووادى وانوناء، ووادى مهزور[١]. وقد بنيت كثير من السدود على الأودية للاستفادة من مياه الأمطار. حيث أقامها كثير من الخلفاء الأمويين والعباسيين وغيرهم. يضاف إلى ذلك أن هذه الوديان كانت تتخلل منطقة المدينة كلها، فتروى أرضها، وتسيل مياهها من شراج الحرة الشرقية فى مياه قليلة. عادة لا تصل إلى أكثر من أرتفاع الكعبين، ولكن فى معظم الأحيان تفيض حتى تصل إلى أنصاف النخيل. وكان الرى يتم فى الأراضى المختلفة الارتفاع بطريقة تتصف بالنظام والترتيب. فقد كان الزراع يسقون نخيلهم وزرعهم من هذه المياه، فيقسمون المياه بينهم، وذلك بأن يحبس الماء صاحب الأراضى العالية، حتى يتم سقاية نخله وزرعه، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه فيسقى[٢]. وفى الأوقات التى تقل فيها مياه الوديان أو تنقطع، أو فى الأماكن التى لم تكن تصل إليها المياه، فان الزارعين فى المدينة كانوا يستخدمون مياه الآبار فى رى مزارعهم.

وأهم مزروعات المدينة المنورة أشجار النخيل، حيث تكثر أعدادها وبها أحسن أنواع التمور، والتى تميزت بالجودة[٣]. فقد كان أهل المدينة يروون نخيلهم من مياه الآبار التى يقوم بنقلها العبيد[٤]. وقد وصف القلقشندى المدينة بقوله: "وحول المدينة حدائق النخيل الأنيقة، وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه، وغالب قوت أهلها منه"[٥]. وكان أهل المدينة يزرعون أشجار النخيل فى مغارس كبيرة، وقد يحوطونها فتكون حدائق[٦]. كما

[١] أنظر أيضاً المراغى، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، ورقات ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، المطرى: التعريف بما آنست دار الهجرة من معالم دار الهجرة، ص٥٧.
[٢] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٦.
[٣] نجلة الصباغ: بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الأول، رسالة ماجستير لم تطبع، ص٧٤.
[٤] جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٢٠.
[٥] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٨٩.
[٦] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٧.

أمتدت مزارع النخيل إلى جبل أحد، كما يذكر ياقوت الحموى[١]. وتكثر أشجار النخيل فى كثير من المناطق المجاورة للمدينة مثل قرية أم العيال، والمغسلة، والعشيرة، وخيبر. كذلك يكثر النخيل بوادى الصفراء لكثرة العيون بتلك المنطقة التى تصب فى ينبع[٢].

وقد أعتمد أهل المدينة على إنتاج النخيل، الذى تعددت أنواعه حتى بلغت "مائة وبضعاً وثلاثين نوعاً" منها الجيد ومنها غير الجيد[٣]. ومن أشهر أنواعه: الصيحان الذى يفوق تمورها[٤]. ويكثر وجوده بمنطقة الحائط بالمدينة[٥]. ومن أنواع التمور العديدة الأخرى: البرنى، والشلبى، والحلوه، والعجوة، والسكرى، والروثة، وجليلة أبى صالح، والفتوتة، والبنوته وغيرها من أنواع التمور الجيدة، التى اشتهرت بها المدينة، وكثر إنتاجها[٦]. وانتفع أهل المدينة المنورة بكل شيء فى النخلة، حيث استخدموا جريدها فى عمل سقوف المنازل، وكذلك من خوصها المكاتل والقفف وأيضاً من جذوعها أعمدة بيوتهم وحمالات لسقوفها، وكذلك نوى النخيل استخدموه كعلف للماشية[٧].

والشعير يؤلف المصدر الثانى لثروة المدينة الزراعية بعد التمر. وقد كان أهل المدينة يزرعونه فى حقول، غير إنهم أعتادوا زراعته تحت أشجار النخيل. وبالرغم من ذلك فقد كان هذا المحصول لا يسد حاجة سكان أهل المدينة، لذلك كانوا يستوردون بعض الحنطة لسد حاجتهم[٨].

[١] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، ص٨٢.
[٢] المصدر السابق، جـ٣، ص٤١٢، جميل حرب محمود حسين:الحجاز واليمن،ص١٢١.
[٣] السمهودى: وفاء الوفاء، جـ١، ص٧٢، أحمد الشريف، مكة المدينة، ص٣٥٧.
[٤] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥، ص٨٧، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣٥٢.
[٥] جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٢٢.
[٦] السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٣، ص١٠٦٣، جـ٤، ص١٢٦٦، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٢٢، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٨.
[٧] السمهودى: وفاء الوفاء، جـ١، ص١١٢: أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٧.
[٨] أحمد الشريف: دور الحجاز، ص٦٠، مكة والمدينة، ص٣٥٨.

وإلى جانب التمر والشعير كان يزرع قليل من القمح والكروم وبعض أنواع الفاكهة مثل الرمان والموز والليمون والبطيخ. كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول والبصل والثوم والقثاء[١]. ومن مصادر الثروة الزراعية أيضاً البرسيم، حيث أهتم أهل المدينة بزراعته لأهميته كغذاء للماشية. وهذا دليل على أنهم كانوا يهتمون أيضاً بالثروة الحيوانية[٢]. لهذا نجد أن معظم سكان أهل المدينة، كانوا يعملون بالزراعة، فمنهم من كان يملك الأراضى التى يزرعها لحسابه الخاص أو يؤجرها، وهؤلاء هم الأثرياء من أهل المدينة، ومنهم من كان يملك قدراً من الأراضى، يقوم هو بنفسه على زراعتها، ومنهم من لم يكن له أراض خاصة، فيزرع فى أرض غيره عن طريق الكراء[٣]. ونستنتج مما سبق أن أهل المدينة استخدموا طرقاً مختلفة فى زراعة الأراضى، وذلك كل حسب إمكانياته، بالاضافة إلى حرص أهل المدينة على استغلال أكبر قدر ممكن من الأراضى الزراعية.

وإلى جانب النشاط الزراعى فى المدينة المنورة، كان يقوم النشاط الرعوى، ولكن على نطاق ضيق محدود، إذ لم تكن منطقة المدينة منطقة رعى. فقد كانت معظم أراضيها أراضى صالحة للزراعة، يستغل معظمها فى إنتاج الحاصلات الزراعية. وبالرغم من ذلك فقد اهتم أهل المدينة بالثروة الحيوانية من الإبل والماشية والأغنام والبقر لحرث الأرض[٤]. يضاف إلى ذلك أن بادية المدينة كانت مجالا لنشاط القبائل البدوية، حيث يوجد لديهم الكثير من الإبل والخيل والأغنام. وقد كانوا يتجولون بها فى المناطق الرعوية مثل منطقة زغابة والغابة والربذة وغيرها، حيث يوجد بها الأشجار والشجيرات ومراع يتوفر بها الماء والكلاء[٥]. كما كان البدو يجلبون إلى المدينة أغنامهم وإبلهم وخيلهم يبيعونها لأهلها[٦].

---

[١] نوره آل الشيخ: الحياة الإجتماعية والاقتصادية، ص١٢٧، أحمد الشريف: دور الحجاز، ص٦٠-٦١.

[٢] نوره آل الشيخ: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة، ص٧٩.

[٣] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٥٨-٣٥٩.

[٤] المرجع السابق، ص٣٦١.

[٥] السيف: الحياة الاقتصادية، ص٥٧.

[٦] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٦٢.

جـ- النشـاط التجـارى:

السلع والمتاجر الصادرة والواردة:

كان لموقع بلاد الحجاز الممتاز على البحر الأحمر، واتصاله ببلاد الشام شمالا، واليمن جنوبا، وبمصر براً وبحراً، أثره العظيم فى النشاط التجارى داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها. هذا النشاط تعددت مراحله، واختلفت أطواره بين البر والبحر، فمن مكة تعددت وجهات القوافل التجارية حاملة البضائع أو جالبة، فكانت تسير إلى مصر والشام والعراق، وإلى اليمن والحبشة. وكانت السفن التجارية تأخذ طريقها إلى مصر واليمن عبر ثغور الحجاز على البحر الأحمر. كما كانت ثغور مكة والمدينة تستقبل سفناً تجارية من الحبشة والهند والصين فضلا عن مصر، حيث تحمل المتاجر الواردة إلى الحجاز[١].

كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة من المدن التجارية الهامة فى العصر الفاطمى ومن أهم العوامل التى ساعدت على إزدهار مكة من الناحية التجارية موسم الحج السنوى وتوافر المعتمرين طوال العام فقد كان لوجود الكعبة المشرفة وما ارتبط بها من الأماكن المقدسة كمنى وعرفات أكبر الأثر فى ازدهار أسواق مكة تجارياً والتى تعقد بها فى موسم الحج من كل عام والتى يقصدها ألوف الحجاج، فينشط بها البيع والشراء[٢]. كذلك زاد من أهميتها تجارياً قربها من ميناء جدة، الواقعة على ساحل البحر الأحمر، إذ تبعد عنها حوالى مسافة أربعين ميلا. فكانت السفن التجارية تأتى من مصر واليمن إلى ميناء جدة، ومنها تنتقل المتاجر إلى مكة المكرمة[٣]. وكانت القوافل التجارية لسكان مكة، تجوب أطراف شبه الجزيرة العربية، تحمل التجارة بين الشرق والغرب، حتى إن أسواقها فى العصر الفاطمى، كانت تزخر بشتى أنواع البضائع والمنتجات المتنوعة[٤].

---

[١] ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٥٠، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٩٧، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦١، وعن أهمية التجارة فى حياة مكة الاقتصادية، أنظر شارل مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ص١٧٣.

[٢] لتفصيل ذلك أنظر أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥٥-١٥٦، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص٨٧-٨٩.

[٣] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٨.

[٤] نعيم ذكى: طرق التجارة الدولية، ص١٣٨-١٣٩، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٢.

وكان للطائف - شهرة كبيرة فى النشاط التجارى، ويرجع ذلك إلى موقع الطائف الطبيعى، الذى زاد من أهميتها كمركز تجارى. إذ يمر بالطائف طريق القوافل الممتد من جنوب بلاد العرب إلى شمالها، ومن العراق إلى اليمن[١]. يضاف إلى ذلك أن مكة أرتبطت بالطائف برباط وثيق نتيجة التقارب المكانى من جهة، وتبادل المصالح من جهة أخرى. فالطائف أقرب المدن الحجازية إلى مكة، وكان جدب مكة وفقرها فى موارد المياه والإنتاج الزراعى، وخصوبة الطائف وإنتشار البساتين فيها ووفرة غلاتها، مما حقق التكامل بين المدينتين الحجازيتين، والتعاون بين مجتمع مكة التجارى، ومجتمع الطائف الزراعى[٢]. وتكثر بالطائف الفواكه الحسنة، التى تجد طريقها إلى سوق مكة التجارى، حيث أن جميع فواكه مكة من الطائف[٣].

أما عن النشاط التجارى فى المدينة المنورة فعلى الرغم من أن حرفة الزراعة حظيت بالاهتمام الأكبر بين سكانها، نتيجة لخصوبة التربة، واعتماد السكان على ما تغله الأرض من محاصيل، إلا أن التجارة نشطت أيضاً فى المدينة المنورة. ومما ساعد على ذلك موقعها وسط مجموعة من القرى، الأمر الذى جعل حركة التجارة فى المدينة على شقين داخلى وخارجى. وتمثلت التجارة الداخلية فى المدينة فى النشاط التجارى بين المدينة وبين أقاليم تهامه ونجد والحجاز والقرى المحيطة بها. أما التجارة الخارجية فتمثلت فى العلاقات التجارية بين المدينة وبلاد الشام واليمن والعراق وغيرها[٤].

أما عن صادرات مكة المكرمة والمدينة المنورة فى العصر الفاطمى، فأهمها الزيت والبلح والقرظ[٥]، والصدف والوبر والشعر والجلد والسمن. ومن

---

[١] سرور: قيام الدولة العربية، ص٤٦، نادية حسنى صقر: الطائف، ص٤٦-٤٧.
[٢] نادية حسنى صقر: المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.
[٣] الزيلعى: نفس المرجع، ص١٥٧-١٥٨.
[٤] أنظر عمر الفاروق السيد رجب: المدينة المنورة، ص٣٤.
[٥] القرظ: نبات شجر السلم، أنظر ابن منظور: لسان العرب، جـ٧، ص٤٥٤.

أهم السلع التى حملتها القوافل التجارية من مكة والمدينة وما حولهما من خشب القس، والجلود المدبوغة، والخيول التى كانت تصدر إلى مصر والهند. وكان الحجازيون يصدرون الخيول بأعداد وفيرة، ويجنون من تلك التجارة أرباحاً طائلة. وكانت أفضل الجياد تهلك بسرعة، إما لسوء معاملتها، أو لعجزها عن تحمل المناخ فى الهند[١]. وتعجب ابن جبير فى أثناء رحلته إلى بلاد الحجاز، من بعض القبائل اليمنية، التى تعرف بالسرو، من أنهم لا يبيعون ما يجلبونه من الزبيب واللوز والسكر والبقول والسمن والعسل بالدنانير أو الدراهم، وإنما كانت عملية البيع، تتم بمبادلة هذه البضائع، بما يقدمه لهم أهل مكة بديلا لها من الخرق والعباءات والأقنعة والملاحف المتان، وما يشابه ذلك مما يلبسه الأعرابى[٢].

ولعبت مكة والمدينة وثغورهما فى العصر الوسيط دوراً هاماً فى تجارة العبور، وهى المتاجر والسلع وبخاصة التوابل التى وردت إليهما من الهند والصين، إما عن طريق تجارة شبه الجزيرة العربية لمصر والشام، أو جلبها تجار الكارم من جنوب شرقى آسيا. ثم أخذت هذه المتاجر طريقها إلى موانىء البحر المتوسط[٣]. ومما ساعد مدن وثغور الحجاز على القيام بهذا الدور الهام فى تجارة العبور، ما تمتعت به شبه الجزيرة العربية من موقع جغرافى ممتاز، بحكم توسطها بين بلاد جنوب وشرق آسيا من ناحية، وبلاد حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى. هذا بالإضافة إلى أنها تطل على الممرين

---

[١] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٥١.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص٩٨-٩٩، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٠.

[٣] أنظر نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص١١٩: على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٢٨، احتكر التجار الكارميه تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى، خاصة تجارة التوابل وغيرها من المتاجر الشرقية، التى كانوا يجلبونها عن طريق عدن إلى مصر، لبيعها إلى تجار المدن التجارية وغيرهم. واشتغل الكارميه أو تجار الكارم فى الأعمال المصرفية. وبلغ بهم الثراء مبلغاً كبيراً. لتفصيل ذلك أنظر، صبحى لبيب: التجارة الكارميه، المجلة التاريخية المصرية، مجلد٤[١٩٥٢م]، ص١٦٣، حسنين ربيع: البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، فى كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ط. القاهرة ١٩٨٠م، ص١١٥-١١٧.

البحريين العالميين وهما الخليج العربى والبحر الأحمر. فإذا أضيف إلى ذلك ما ارتبط بشبه الجزيرة العربية من مقومات إسلامية. وشعائر لها جانبها الإقتصادى، لأدركنا فى الحقيقة مدى النشاط التجارى الكبير الذى أسهمت به شبه الجزيرة العربية، وخاصة مكة والمدينة، فى التجارة العالمية فى العصور الوسطى[١].

وكان الفلفل من أبرز أنواع التوابل، وقد لعب دوراً هاماً فى تجارة العطور، وكان ميناء جدة يستقبل السفن الواصلة بالتوابل، وكانت العادة المتبعة فى وزن الفلفل فى تجارة البحر الأحمر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، هو سعر الحمل، إذ كان يتراوح ما بين ٥٠-١٢٥ ديناراً[٢].

ومن مئات السلع التى لعبت دوراً هاماً فى تجارة مكة والمدينة فى العصر الفاطمى الدارصينى [القرفة]، وهى من بين السلع التى دخلت فى صناعة العقاقير الطبية، وقد عرفها العرب منذ العصور الأولى[٣]. وتأتى القرفة من ملقا، وتصل إلى القاهرة عن طريق البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية[٤]. وكان سعرها يعادل سعر الفلفل، ويرتفع عنه قليلا، وكانت التجارة فى هذه السلعة مربحة[٥].

ومن بين الأفاويه التى كثر استعمالها فى الأغراض الطبية القرنفل، وكان ثمنه ضعف ثمن الفلفل. وكان يرد من الشرق إلى موانىء شبه الجزيرة العربية عبر الخليج العربى أو البحر الأحمر[٦]. وأعتبر الزنجبيل من أكثر التوابل

---

[١] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٢٨.

[٢] حسنين ربيع: البحر الأحمر، ص١٤، وثائق الجنيزة، ص٢٣-٢٤، نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص١٩٧-٢٠٠، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٨، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٩٤.

[٣] نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص٢٠١-٢٠٣، أنظر أيضاً على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٣١-٢٣٢، حسنين ربيع: البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص١٤، وثائق الجنيزة، ص٢٣-٢٥.

[٤] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٣٢.

[٥] عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٨، القوصى: تجارة مصر، ص٢١٦.

[٦] حسنين ربيع: البحر الأحمر، ص١٤، وثائق الجنيزة، ص٨٣، نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص٢٠٤-٢٠٥، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٩.

التى شاع استعمالها فى هذه الفترة التاريخية، ولا يقل أهمية عن بقية التوابل[١]. والراوند يمثل أيضاً أحد السلع الرئيسية، ويعرفه العرب من قديم الزمان، وطريق البحر الأحمر هو طريقه الطبيعى لأوروبا[٢]يضاف إلى ذلك الكافور، والعود الهندى، والكركم والهال [الحبهان]، وجوزة الطيب، وهى من السلع التى استخدمت كثيراً فى الطب والطعام[٣]. ومن العقاقير الطبية البلسم والعفص والمن. أما الزعفران فقد تعددت أنواعه بحسب أماكن زراعته، وعرفه أطباء العرب من قديم الزمان، واستخدم فى العلاج الطبى وفى الطهى وفى صناعة العطور. أما الزعفران الذى يزرع فى اليمن، فكان ينقل على ظهور الجمال إلى الحجاز ليباع هناك[٤].

ولم تقتصر تجارة مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع البحث على التوابل فقط، إنما شملت العطور والبخور، ومن أنواعها هود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر واللادن والمصطكى واللبان الجاوى، وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى وفارس عن طريق البحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية[٥]. يضاف إلى ذلك تجارة الذخائر النفسية كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة، والأمتعة العراقية واليمانية والسلع الخرسانية والبضائع المغربية وغير ذلك[٦].

---

[١] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٣٣٤، نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص٢٠٥-٢٠٦، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٩.

[٢] نعيم زكى: طرق التجارة، ص٢١٥، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٩.

[٣] ابن جبير: الرحلة، ص٨٦-٨٧، حسنين ربيع: البحر الأحمر، ص١٤، القوصى: تجارة مصر، ص٢١٦-٢١٨، نعيم زكى: طرق التجارة، ص٢١٥-٢١٦، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٣٣٥.

[٤] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٣٣٥، آدم متز: الحضارة الاسلامية، جـ٢، ص٣١٥-٣١٦.

[٥] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٤٠-٢٤١، نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص٢٢٥-٢٢٦، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٩، سليمان المالكى: بلاد الحجاز، ص٩٥.

[٦] ابن جبير: الرحلة، ص٨٦، حسنين ربيع: البحر الأحمر، ص١٥، لتفصيل ذلك أنظر: أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقتها الخارجية، ص١٦٧.

ومن السلع التجارية التى استخدمت فى الأغراض الصناعية وفى الطب كذلك الصموغ، ومنها الصمغ، والصمغ اللك، وما يرد منه لأوروبا من الهند وبلاد فارس، يصل لمصر عن طريق البحر الأحمر وموانيه[١]. ومن المواد التى كثر استخدامها فى الأغراض الصناعية أيضاً، وفى الصباغة خاصة الغرة والنيلة، ودودة القز، والشب والتوتيا، والقطران الطبيعى[٢].

وقد حدثنا ابن جبير فى رحلته إلى الأراضى الحجازية أن هناك قوماً من اليمن، يعرفون بالسرو، يجلبون معهم نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر. كما يجلبون معهم كثيراً من اللوز. بالإضافة إلى الحنطة وبقية الحبوب، والسمن والعسل وقصب السكر الذى يجلب كغيره من البضائع[٣].

وكانت القوافل تحمل إلى أسواق مكة من اليمن منتجات أفريقية مثل الصمغ والعاج والدقيق والتمر، وبضائع من اليمن نفسها كالجلود والثياب والبخور. وكانت تأتيها قوافل بالمنتجات الشامية والمصرية مثل الزيوت والغلال. كما يباع فى أسواقها منتجات أخرى هندية وحبشية وعراقية ويمنية وخراسانية ومغربية[٤]. ومن واردات مكة والمدينة أيضاً التى ذكرتها وثائق الجنيزة الحصير، إذ كان يعتبر سلعة مطلوبة دائماً فى مدن الحجاز[٥].

---

[١] نعيم زكى: طرق التجارة، ص٢٣٤-٢٣٥.
[٢] المرجع السابق، ص٢٣٤-٢٣٥.
[٣] ابن جبير: الرحلة، ص٨٦-٨٨، ٩٨، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٩٥-٩٦.
[٤] ابن جبير: المصدر السابق، ص٨٦-٨٧، سليمان المالكى، بلاد الحجاز، ص٩٦.
[٥] حسنين ربيع: وثائق الجنيزة، ص٢٥.

أســواق مكــة والمدينــة:

أما عن أهم أسواق مكة والمدينة فمن المعروف أن التجار يسعون إليها حاملين بضائعهم، وإن طال بهم السفر، وهى أسواق يختص كل منها بنوع واحد من المتاجر. وبمكة عدد من الأسواق الهامة، التى كان لها شأن كبير فى الجاهلية والإسلام وأهمها: سوق خارج المسجد الحرام عند باب بنى شيبة وهو سوق كبير لأنواع المبيعات من بضائع الشرق والغرب الشىء الكثير الوارد من الهند والحبشة، والبضائع والأمتعة اليمنية والعراقية والسلع الخراسانية والمغربية. وقد وصف ابن جبير السوق وصفاً مستفيضاً. وبعد أن عدد السلع والمتاجر الموجودة به قال: "إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ما لو فرق على البلاد كلها لأقام الأسواق النافعة، ولعم جميعها بالمنفعة[١]

ويضيف ابن جبير إلى ما كان يباع فى السوق فى الفترة التى كان يقيم بها فى مكة "من الرقيق إلى العتيق، ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع". وكان بيع الرقيق بدار الندوة إلى جهة باب بنى شيبة، وكان من أكثر الأسواق زحاماً ولغطاً[٢].

وكان السوق يفتح مع حضور التجار الذين يأتون إلى الحج قبل الموسم من مختلف الآفاق، ومع ذلك كان يعقد رسمياً لمدة ثمانية أيام بعد إنتهاء الموسم. على أن كبرى أسواق مكة كانت على جانبى المسعى فى المسيل بين الصفا والمروة، حيث كانت تباع الحبوب واللحوم والتمور والمسلى والفواكه[٣] وكان يوجد سوق كبير إلى الشرق من سوق المسعى، وكانت تعرف بسوق العطارين، كما كان يوجد سوق آخر بجدة المنازل من جبل المروة، وهو سوق

---

[١] ابن جبير: الرحلة، ص١٤٣، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦١، وأنظر أيضاً جميل حرب: محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٨.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص١٤٣.

[٣] ابن جبير: الرحلة، ص١٤٣، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٣، ص٤١١، الزيلعى، نفس المرجع السابق، ص١٦٤-١٦٥، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٨، شارل مورتيل: نفس المرجع السابق، ص١٧٣.

صغير به عشرون دكاناً متقابلة، كان يشغلها حجامون لحلق شعر الرأس. وكان هناك سوق آخر يعمر فى أيام الموسم، وبالأخص فى أيام التشريق، تعمر فى الموسم وتخلو بقية السنة[١].

أضف إلى ذلك أن منى كانت أثناء الإقامة بها تعتبر سوقاً كبيرة يشترى الحجاج ما يحتاجون إليه، ويبيعون على بعضهم بعض السلع التى أحضروها معهم من بلادهم[٢].

وكانت سوق مكة مزدهرة طوال أيام السنة، لأنها لا تخلو من عدد كبير من المجاورين وطلاب العلم والمعتمرين وسكان القرى الزراعية المحيطة بمكة. غير إن سوق مكة كان يزداد إزدهاراً فى مواسم الحج والعمرة، لأن مكة كانت تستقبل فى هذين الموسمين عشرات الآلاف من الحجاج والتجار، الذين يفدون إليها لقضاء فريضة الحج إلى جانب المنافع التجارية[٣].

وتجدر الإشارة إلى أنه يمكن إدراج السلع التى كانت تباع فى سوق مكة فى ايام الموسم إلى مجموعتين: المواد الغذائية والسلع الكمالية. فأما المواد الغذائية فكان سوق مكة يغص بالفواكه والخضروات كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والبطيخ والقثاء والخيار والباذنجان والسلحم والجزر والكرنب. كما كان يباع بسوق مكة أنواع مختلفة من الزبيب الجيد ومن العسل وقصب السكر والتمور. أما المنتجات الحيوانية فكانت فى منتهى الوفرة، فهناك اللبن ومشتقاته كالسمن والزبدة والجبن. وكانت اللحوم متوفرة فى سوق مكة. وهى فى غاية الجودة ولاسيما لحم الضأن. أما الحلوى فكانت

---

[١] الزيلعى: المرجع السابق، ص١٦٥.

[٢] جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٩، أنظر أيضاً شارل مورتيل: المرجع السابق، ص١٧٣-١٧٤.

[٣] الزيلعى: المرجع السابق، ص١٦٤.

كثيرة، إذ كان يصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، يحاكون بها جميع الفواكه الرطبة واليابسة. كما كان يباع فى أسواق مكة الحنطة والشعير والذرة والدخن والسويق وغيرها[١].

وقامت كذلك أسواق فى جدة - ثغر مكة - أولها سوق الندار[٢]، وقد سمى بهذا الاسم لندرة ما يرد إليه، وسوق نظرب[٣]. وهو سوق مستطيل كان فى غاية اللطافة، وبه أماكن للتجار وغيرهم، ويزخر بالأطعمة والأقمشة، وهناك سوق الجامع، ويدخل إليه القادم من باب مكة إلى اليمن. ومن أسواق جدة سوق النبط، وهو سوق طريف كان يحضره صيادو السمك. وفيه يباع السمك الطرى والتمر اللطيف وبعض أنواع من السبح والنقل وغير ذلك[٤].

وكانت أسواق جدة يؤمها التجار من البلاد المجاورة لها، فيحمل تجار سواكن الجمال الكثيرة لبيعها فى أسواق جدة من شرق أفريقية عبر البحر الأحمر. وحين يصيب القحط جزيرة العرب يصدرون القمح والذرة إلى سوق جدة بطريق سواكن. ويشترى تجار سواكن من جدة كل ما تحتاجه أسواق شرق أفريقية من بضائع[٥].

أما عن أسواق المدينة المنورة فكان يوجد بها عدة أسواق ترجع فى أصولها إلى الجاهلية وصدر الإسلام، واستمرت عدة قرون والسوق عبارة عن فضاء واسع، لأبناء فيه، يضع فيه التجار بضائعهم، وأهم أسواق المدينة: سوق بنى قينقاع عند جسر وادى بطحان مجاور لمنازلهم، وكانت سوقاً عظيمة تكثر

---

[١] الزيلعى: المرجع السابق، ص١٦٥-١٦٦.

[٢] الخضراوى: الجواهر المعدة: ورقة ٢٤.

[٣] الخضراوى، نفس المصدر، ورقة ٢٥.

[٤] الخضراوى، نفس المصدر، ورقة ٢٦، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص٢٦٢.

[٥] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٥، ص٧، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص٢٦٢.

فيها الحركة، وتسمع منها ضجة البيع والشراء والتعامل[١]. وأهم ما كان يباع فيه الحلى. ثم هناك سوق زبالة وقد أتسعت هذه السوق وعظمت بعد الإسلام، كذلك يوجد سوق بالصفاصف[٢] وسوق ثالثة تقع فى نهاية الطريق إلى دور القياشين بالقرب من دور طلحة، وبقى هذا السوق على حاله إلى ما بعد العصر الفاطمى[٣].

كذلك كانت هناك أسواق أخرى بالمدينة، منها سوق خاصة بالإبل والخيل تقع بالقرب من البقيع، عرفت ببقيع الخيل[٤]. وكان بنو سليم يجلبون إليها الخيل والإبل والغنم والسمن[٥]. وكان الراكب ينزل بسوق المدينة، فيضع رحله ثم يطوف بالسوق، ورحله أمام ناظريه، لا يغيبه عنه شيء[٦]. وهناك سوق الحطابين بالجبانة فوق مسجد الراية وثنيه الوداع[٧].

ولقد تخصص بعض التجار فى نوع معين من المتاجر والسلع التى كانت متداولة فى هذه الأسواق، فنجد أن هناك من كان يتاجر بالبز، وكانت تجارة الملابس تعرف بالبزازة، التى كانت تجلب من بلاد الشام واليمن، ويجعلون منه

---

[١] السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٢، ص٧٤٧، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٦٥، نوره آل الشيخ: الحياة الإجتماعية، ص١٤٥.
[٢] السمهودى: المصدر السابق، جـ٢، ص٧٤٧، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٩، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣٥٢.
[٣] جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٩.
[٤] نوره آل الشيخ: المرجع السابق، ص١٤٦، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٢٦٦.
[٥] السمهودى: وفاء الوفاء، جـ٢، ص٧٥٤.
[٦] المصدر السابق، جـ٢، ص٧٤٩.
[٧] العياشى: المدينة بين الماضى والحاضر، ص١٣٠.

قلانسهم وعمائمهم وقمصانهم وسراويلهم وأرديتهم[١]. وكان للبزازين مكان خاص بهم فى سوق المدينة. وكان هناك من يتاجر بأنواع مختلفة من الطعام والعطر، وغيرها من المتاجر، وكانت تجارة الطعام تجارة رابحة، أما تجارة العطر فكانت تجارة عريقة، تدر على أهلها ربحاً كثيراً، وذلك لأن العطر كانت له أهمية كبرى، وكان يجلب من الهند واليمن عبر البحر الأحمر[٢]. وقد استمرت أسواق المدينة تمتلىء بالتجار، مما يجلب إليها من أنواع السلع والمتاجر المختلفة، وكان يباع فى هذه الأسواق كل ما تنتجه المدينة من تمر وشعير وطعام، حتى الحطب كان يباع فيها، حيث يجلب الحطابون من أشجار المدينة أو من البادية. كذلك كان يباع فى أسواق المدينة كل ما يجلب إليها من الخارج من منتجات البادية من صوف وشعر ووبر وسمن، وكذلك كانت الأشياء المصنوعة تباع فى أسواق المدينة سواق أكان ذلك صناعة المدينة نفسها، أو ما يجلب إليها من الخارج، وكان هناك عطارون يتاجرون فى أنواع العطارة والمسك والروائح العطرية[٣].

النقـود والمعاملات الماليـة:

ومع وجود هذا النشاط الزراعى والتجارى الملحوظ فى مكة والمدينة، وقدوم كثير من التجار عليها من جميع أنحاء الدول الإسلامية، كان لابد من وجود نظام مالى للتعامل، يتعامل به أولئك التجار[٤]. وقد كانت العملات النقدية السائدة فى مكة والمدينة قبل الإسلام، هى النقود التى ضربتها الأمم المجاورة كالدولة الساسانية والدولة البيزنطية. وكانت العملات المتداولة هى

---

[١] نوره آل الشيخ: الحياة الاقتصادية، ص١٤٦، والبز نوع من الثياب، أنظر ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص٣١١.

[٢] المرجع السابق، ص١٤٨.

[٣] أحمد الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، ص٣٦٦.

[٤] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦٤، نوره آل الشيخ: الحياة الاجتماعية، ص١٥٠.

الدينار الذهب والدرهم الفضة[١]. ومن المعروف أن مكة والمدينة لم يكن بهما دار لسك النقود، وهى ما تعرف باسم دار الضرب.

وكانت تجارة العرب مع الدولة الساسانية والدولة البيزنطية تدر عليهم كميات من الدراهم الفضية والدنانير الذهبية[٢]. غير إن العرب كانوا لا يتبايعون بها إلا على أنها تبر أو فضة[٣].

أما العملات النقدية المتبادلة فى الأسواق فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة فهى متنوعة، منها ما كان مضروباً منذ العصر الأموى كالدنانير الخالدية واليوسفية، ومنها المضروب فى العصر العباسي. وكانت العملات النقدية المتداولة هى: الدينار الذهب والدرهم الفضة، وأجزاؤها الدانق والقيراط. وتختلف مقاييس التبادل والصرف لهذه العملات باختلاف الوزن ونقاء المعدن[٤]. ولقد ذكر القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى أن المعاملات النقدية التى كانت تتم فى بلاد الحجاز خلال العصر الفاطمى، كانت كالمعاملات النقدية التى كانت متداولة فى الديار المصرية والديار الشامية، من حيث التعامل بالدنانير والدراهم النقرة[٥]. ومعنى هذا أن النقود المصرية كانت أكثر النقود المتداولة، بخلاف العملات الكثيرة التى كان يجلبها الحجاج والتجار إلى مكة والمدينة وجدة. لذا أصبح الحجاز سوقاً دولية تستعمل فيها جميع العملات النقدية[٦].

---

[١] حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص٣٣٠، محمد باقر الحسينى: تطور النقد العربية ص١٣-١٤.

[٢] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣١٢، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤-٣٧٥.

[٣] محمد باقر الحسينى: تطور النقود العربية، ص١٣-١٤، على محمد الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٤] نجلة الصباغ: بلاد الحجاز، ص٩٠.

[٥] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٥، عبد الرحمن فهمى: النقود العربية، ص٧٣، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٦، والنقرة هى الفضة الخالصة، أنظر ابن منظور، لسان العرب.

[٦] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦٦.

ويرى الأستاذ الدكتور أحمد عمر الزيلعى أن سوق مكة كان فى أيام الموسم بمثابة البورصة النقدية، التى تتضارب فيها العملات العباسية والفاطمية. فقد قصد الفاطميون إلى مقاطعة الدينار العباسى، ومنع التعامل به، الأمر الذى جعله لا يقوى على منافسة الدينار الفاطمى فى سوق مكة، بل لعل الدينار الفاطمى تجاوز حدود مكة منافساً الدينار العباسى فى بغداد نفسها[١].

يضاف إلى ذلك أنه كان لأهل مكة من النقود المحلية: المطوقة وهى العشرية ثلثاً المثقال [الدينار] ثم المحمدية التى ربما كانت نسبة إلى محمد بن سليمان، الذى ثار بمكة عام ٣٠١هـ/٩١٣م وسكت فى عهده، أو ضربت تيمنا باسمه فيما بعد. كما كان لأهل مكة أيضاً المزبقة: وهى دنانير صرفها أربعة وعشرون بدرهم. والعملة المزبقة هى عملة مزيفة باستعمال الزئبق والأنتيمون[٢]. كما شهدت مكة ضرب عملة باسم أمرائها من الأشراف العلويين منهم أبو الفتوح الحسن بن جعفر، الذى خرج على طاعة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وأشار عليه الوزير ابن المغربى بالاستيلاء على ما حوته خزانة الكعبة من أموال، وما عليها من أطواق الذهب والفضة، ففعل، وضرب دنانير ودراهم سميت الفتحية. وعندما فشل أبو الفتوح فى حركته، وعاد إلى مكة من الرملة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وصفح عنه الخليفة الحاكم، أراد أبو الفتوح استرضاء الخليفة فضرب عملة بمكة على غرار الدينار المصرى، وسك عليه اسم الحاكم بأمر الله الفاطمى[٣].

وتجدر الإشارة إلى أنه حدث فى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م أن مرت بمكة المكرمة ضائقة اقتصادية فى عهد أميرها الشريف محمد بن جعفر ابى هاشم لانقطاع ما كان يأتى إلى مكة من مصر لظروف الشدة المستنصرية. فأخذ

---

[١] الزيلعى، نفس المرجع، ص١٦١.
[٢] المرجع السابق، ص١٦١.
[٣] المرجع السابق، ص١٦١-١٦٢، وأنظر عن الحركة أبى الفتح مما سبق، ص٥١.

الشريف محمد بن جعفر قناديل الكعبة، وصفائح الباب والميزاب، وكذلك جميع موجوداتها وضربها دراهم ودنانير. ويذكر الأستاذ الدكتور الزيلعى أننا لا نعرف بالضبط هل كانت هذه العملة المكية التى ضربها أبو هاشم على غرار العملة العباسية أو الفاطمية، أم أنها كانت مستقلة فى قيمتها ووزنها. غير إن العملات النقدية المصرية ظلت سائدة فى مكة المكرمة طوال هذه الفترة، ولم تتغير إلا فيما بعد، فى عهد الملك المسعود يوسف بن محمد، حيث ضرب فى مكة نقوداً مستقلة فى قيمتها[١].

وقد عرفت الدولة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى وسيلة من وسائل المعاملات المالية، وهى السفاتج ومفردها سفتجهة، وهى كلمة فارسية، معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان[٢].

وكان البيع بالبيعة من أنواع التعامل الذى كان سائداً فى مكة، فكانت الأدم تباع بالبيعة، ولعل البيعة شبيهة بالكورجة، التى تباع بها الجلود فى الوقت الحاضر. وكان نظام المقايضة أيضاً سائداً بين تجار مكة وروادها من السرو[٣].

وتجدر الإشارة عند حديثنا عن المعاملات المالية إلى الموازين والمكاييل المستخدمة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة أثناء الفترة التاريخية موضوع الدراسة. فمن المعروف أن الكيل والميزان والمقياس معروف عند العرب منذ القدم غير أن أول من أتخذ الموازين من الحديد كان عبد الله

---

[١] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦٢.
[٢] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦٦.
[٣] أنظر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦٣-١٦٤.

ابن عامر أمير المدينة، من قبل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأول من عمل الأوزان الحجاج بن يوسف الثقفى، وأن الذى قام بعملها له سمير اليهودى. وذكر القلقشندى أن سميرا وضع الأوزان بوزن ألف، ووزن خمسمائة إلى وزن ربع قيراط، فجعلها حديداً، ونقشها، وأتى بها إلى الحجاج[١].

أما وزن البضائع فقد ذكر القلقشندى أيضاً أن أوزانها كانت تعتبر بالمن، الذى يزن مائتان وستين درهماً، وأواقيه عشرة، كل أوقية عشرة دراهم. أما من ناحية الكيل، فكانوا يكيلون بالفرارة، ويقيسون القماش بالذراع المصرى[٢].

ولابد من الإشارة إلى المكاييل والموازين التى كانت تستخدم فى المدينة فى تلك الفترة التاريخية. فالمعروف أن أغلب حاصلات المدينة حاصلات زراعية، لذلك فإن المكاييل كانت أكثر استعمالا فيها من الأوزان، ولهذا قالوا عنها: "إن المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة"[٣] وكانت المكاييل أنواعاً وحدتها المد[٤]. وهو أربع حفنات بحفنة الرجل الأوسط، والصاع مكيال قدره أربعة أمداد، وهوو خمسة أرطال، والفرق قدره سبعة عشر رطلا، وثلاثة أرباع الرطل. والوسق يساوى حمل بعير، ويساوى ستين صاعاً، أو ثلاثمائة وعشرين رطلا[٥]. أما بالنسبة للصاع فيعتبر من أهم

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص٤٢٥، أنظر أيضاً على بن الحسين: النشاط التجارى، ص٢٦٦-٢٦٧.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٦، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٣٩.

[٣] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤.

[٤] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢.

[٥] أحمد الشريف: مكة والمدينة،ص٣٧٤، نوره آل الشيخ:الحياة الإجتماعية،ص١٥١.

المكاييل، التى يستخدمها أهل المدينة، حيث يقومون بكيل الحبوب والتمور به، وغيرها من المحاصيل الزراعية أما قياس أقمشتهم فكان بالذراع الشامى، وأسعارها أحياناً تكون متقاربة من أسعار مكة، بل ربما تكون قليلا من مكة المكرمة، وذلك نتيجة لقرب مكة من ثغرها جدة، التى تقع على ساحل البحر الأحمر[١].

أما الأوزان التى كان يستعملها أهل المدينة فى المبيعات فأهمها: المن وهو ما تقدم ذكره فى مكة[٢] وكذلك الدرهم والمثقال والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والقراط نصف الدانق، ووزن الدرهم ستة دوانق، وكل عشرة دوانق، تساوى سبعة مثاقيل، والأوقية تساوى وزن نواة التمر، أو هى وزن معلوم عندهم، والقنطار مائة رطل[٣].

المكوس والموارد المالية الأخرى:

أما عن المكوس فهى الضرائب، والمكوس مفردها مكس ومعناه الجباية، كما يطلق على ما يأخذه اسم الماكس. وقد فرض الفاطميون هذه المكوس، وبالغوا فى فرضها على التجارة الصادرة والواردة، وأنواع الصناعات المختلفة حتى على الحجيج[٤]. وكان فقهاء المسلمين ومعظم المؤرخين لا ينظرون إلى هذه المكوس بعين الرضا، لأنها ليس لها سند شرعى. وقد كثرت المكوس فى الفترة التاريخية موضوع الدراسة وخاصة منذ أن تراخت قبضة العباسيين على الحجاز، وسيطر عليه الأشراف فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى. فقد رأى الأشراف أن لهم الحق المطلق فى فرض المكوس على الحجاج والتجار، الذين يدخلون مكة والمدينة حتى يستطيعوا الوفاء بما عليهم من التزامات مالية[٥]. يضاف إلى ذلك أنهم ظنوا أن المكوس المجباة سوف تحول دون خضوعهم لأى من العباسيين أو الفاطميين.

---

[١] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢، جميل حرب محمود حسين: الحجاز واليمن، ص١٤٠، أنظر أيضاً الزيلعى: نفس المرجع، ص١٦٢-١٦٣.

[٢] القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٠٢.

[٣] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤.

[٤] عطيه القوصى، تجارة مصر، ص٢٣٢-٢٣٣.

[٥] ابن جبير: الرحلة، ص٤٨-٤٩، أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص٣-٤، ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص٢١، البتنونى: الرحلة، ص٧٤، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص١٦٠-١٦١.

وكان أمير مكة يتقاضى المكس فى جدة من الحجاج كما ذكر ذلك ابن جبير فى رحلته[١]. وذكر ابن جبير أيضاً أن مقدار المكس الذى كان يجبى فى عيذاب من الحاج فى عهد الدولة الفاطمية سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية، وأن المكس إذا لم يدفعه الحاج فى عيذاب قام بأدائه فى جدة[٢]. أما من لم يؤده، فكان يمنع من الحج والتجارة، ويعذب بشتى أنواع العذاب[٣]. ومن المؤسف أن المصادر المتداولة لا تمدنا بمقدار المكس المقرر على أى سلعة من سلع التجار، الذين كانوا يعرفون بتجار الكارمية فى أى ميناء من موانىء البحر الأحمر بما فى ذلك ميناء جدة[٤].

أما عن الموارد المالية الأخرى فمن المعروف أن الحجاز يتصف بصفة عامة بالقحط والجدب، وأن الطبيعة ضنت عليه وقتذاك بالكثير من خيراتها لذلك كان يعوض ذلك بالأموال التى تجبى إليه من المكوس، إضافة إلى أنه كانت هناك بعض الموارد المالية أهمها: نفقات الحجاج فى مواسم الحج، والمساعدات والصدقات والتجارة. فمن المعروف أن الحجاج كانوا ولا يزالون ينفقون أموالا كثيرة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويشترون ما يريدون من أسواق مكة والمدينة. ولم يكن أهل مكة هم المستفيدون الوحيدون من الحجاج، فقد كان الحج مورداً طيباً لأمرائها من الأشراف.

---

[١] المقريزى: السلوك، جـ١، ص٥٧١، ٥٧٩، ابن جبير: الرحلة، ص٤٨-٤٩.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص٢٨-٢٩، أنظر أيضاً على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص١٦٠، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٠.

[٣] المقريزى: السلوك، جـ١، ص٦٤.

[٤] عطيه القوصى: تجارة مصر، ص٢٣٤-٢٣٥.

أما عن المساعدات والصدقات التى يرسلها الخلفاء لأهل مكة والمدينة، لاستمرار الخطبة لهم، فكانت من أهم الموارد المالية أيضاً. وكانت الصدقات ترسل إلى سكان الحرمين الشريفين. وكان الخلفاء العباسيون والفاطميون يتبعون هذه السياسة لاستمرار تبعية مكة والمدينة إليهم، ولذلك أمدوا المدينتين بالغلال والمساعدات المالية، التى بها يتم السيطرة على بلاد الحجاز كما سبق ذكره فى الفصول السابقة. وعلى سبيل المثال لا الحصر أرسل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م أموالا وأطعمة كثيرة إلى بلاد الحجاز وأرسل كذلك إلى أمير مكة مبلغاً كبيراً من المال يقدر بنحو ثلاثة آلاف دينار شهرياً، فضلا عن الخيول والخلع التى كانت ترسل إليه مرتين فى العام[١]. وفى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م أرسل الخليفة المعز لدين الله مع أمير الحج أموالا كثيرة، أمره بتوزيعها على حجاج بيت الله الحرام، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]. وفى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م خرجت قافلة الحج من مصر إلى مكة والمدينة محملة بالقمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب ومحراب من ذهب للكعبة[٣]. وفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م سارت قافلة الحج محملة بكسوة الكعبة وصلات الأشراف والطيب والشمع والزيت، فبلغ مصروف ذلك العام مائة ألف درهم[٤].

---

[١] ناصر خسرو: سفرنامة، ص١١٢.
[٢] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٠٦-٤٠٧.
[٣] المقريزى: إتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٤٦.
[٤] المقريزى: المصدر السابق، جـ١، ص٢٥٢.

وأستمر الخلفاء الفاطميون على سياسة الخليفة المعز لدين الله في إرسال الهبات والعطايا والمساعدات من الأموال والغلال والمؤن والخلع إلى أمراء وسكان مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما سبق ذكره بالتفصيل[١].

أما بالنسبة للتجارة فيذكر القلقشندي - عند حديثه عن مكة المكرمة - أن أكثر متحصلها كان مما يؤخذ من التجار الواردين إلى مكة من الهند واليمن وغيرهما[٢]. وكانت تؤخذ العشور على التجارة، وكانت هذه العشور تعتبر مورداً هاماً من موارد مكة.

موانيء مكـة و المدينـــة:

والحديث عن التجارة يجرنا إلى إلقاء بعض الضوء على الموانيء التي أعتمدت عليها مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة في نشاطهما التجاري فقد كان للثغور الحجازية على البحر الأحمر أثرها في نمو التجارة وكثرة نشاطها بالنسبة لمكة والمدينة. وكانت هذه الثغور على الساحل الشرقي للبحر الأحمر تستقبل السفن التجارية المحملة بالبضائع.

ويجدر بنا أن نوضح هنا أهمية بعض الموانيء التي كان لها أثرها في النشاط التجاري على بحر الحجاز أو البحر الأحمر في العصر الفاطمي، خاصة بعد أن أصبحت تجارة البحر الأحمر في أيدي التجار المسلمين دون سواهم[٤]. ومن أهم هذه الثغور: جدة والسرين والشعيبه وينبع والجار.

---

[١] أنظر ما سبق على سبيل المثال ص٣٠.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٧٦، علي بن الحسين: النشاط التجاري، ص ٢٧٢-٢٧٣.

[٣] حسنين ربيع: وثائق الجنيزة، ص١١.

أما ميناء جدة فقد جاء في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي: "أن جدة هي فرضة مكة على ساحل بحر القلزم"[١]. وهي ميناء عظيم إليها تأتي المراكب القادمة والمغادرة من مصر واليمن وغيرهما[٢]. وقد أعجب ناصر خسرو بمدينة جدة من ناحية جمالها وازدهارها التجاري والعمراني. ووصف أسواقها بأنها جميلة ومحصورة في داخل سورها الحصين، ولا يوجد بها أشجار وزروع، وذلك يرجع إلى ندرة الماء العذب بها، وذكر ناصر خسرو عدد سكان جدة أيام قدومه إليها بحراً: "أنهم بلغوا نحو من خمسة آلاف نسمة". ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة، والثانية غربية تؤدي إلى البحر[٣].

وبدأت جدة في الازدهار في العام السادس والعشرين من الهجرة، عندما اعتمر الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من المدينة المنورة، وأتى مكة المكرمة، فسأله أهلها أن ينتقل ساحل مكة القديم من الشعيبة إلى جدة لقربها من مكة[٤]. ونتيجة لذلك لعبت جدة دوراً هاماً في إزدهار تجارة مكة وبلاد الحجاز عموماً، لقربها من المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وبخاصة ميناء عدن وهي أقرب إلى الهند من الموانيء الشمالية في البحر الأحمر[٥]. يضاف إلى ذلك أن وفد إلى جدة آلاف الحجاج من الديار المصرية والمغربية القادمين بطريق البحر، فازدهرت أسواقها في مواسم الحج، واستفاد

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٨.

[٢] عبد القدوس الانصاري: موسوعة تاريخ جده، م١، ص١٣، أنظر أيضاً عن جده:
Al-Wohaibi, The Northern Hijaz, pp. 91-101

[٣] ناصر خسرو: سفرنامة، ص١٢٠.

[٤] البتنوني: الرحلة، ص٥.

[٥] علي بن الحسين: النشاط التجاري، ص١٠٩.

أهلها من ذلك استفادة كبيرة، وسرعان ما أصبحت جدة ميناء الحجاز كله، بالاضافة إلى أن هذا الميناء أخذ يزدحم بالحجاج القادمين من الهند واليمن[١]. ونشطت التجارة فى البحر الأحمر [بحر الحجاز] نشاطاً كبيراً، وأصبحت لموانئه - وبخاصة جدة - شهرة كبيرة فى عالم التجارة، بعد أن نجح الفاطميون فى القاهرة أثناء صراعهم مع العباسيين فى بغداد، فى السيطرة على تجارة البحر الأحمر، وتحويل التجارة الآتية من الشرق الأقصى من الخليج العربى إلى البحر الأحمر، سعياً وراء هدف واحد هو إضعاف الخلافة العباسية السنية فى بغداد من الناحية الإقتصادية[٢].

وأصبحت جدة، ميناء مكة وفرضتها على البحر الأحمر إحدى محطات المراكب، التى تنقل السلع الشرقية من ميناء عدن إلى مصر. منذ أن تحولت طرق التجارة الدولية البحرية من الخليج العربى إلى البحر الأحمر فى أواخر القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وأوائل القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى. وكان للتجارة بجدة موسم مشهور قبيل موسم الحج، تباع فيه البضائع المجلوبة والذخائر النفيسة. وبفضل اشتغالهم بالتجارة، استطاع كثير من أهل جدة تكوين ثروات ضخمة[٣]. ووصلت تجارة جدة مع موانىء البحر الأحمر - ولاسيما الموانىء المصرية - درجة طيبة من الازدهار والنشاط. فقد كانت البضائع تجلب من الموانىء الأوروبية المختلفة إلى الاسكندرية والفرما، ثم منها إلى الحجاز. وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانى البحر المتوسط والبحر الأحمر، ومحطة لتجارة أوروبا والشام [٤].

---

[١] حسنين ربيع: البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص٢٠، نعيم زكى: طرق التجارة الدولية، ص١٣٨-١٣٩، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٦٣-٦٤، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص١٥٦.

[٢] حسنين ربيع: بحر الحجاز فى العصور الووسطى، ص٤٠٢.

Lewis, The Fatimids and the route to India, pp.50-54.

[٣] شارل مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة، ص١٧٤-١٧٥.

[٤] أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٧٧.

يضاف إلى ذلك أن جدة نجحت فى جذب التجارة الأندلسية وتجارة شمال أفريقية. فقد جاء فى وثائق الجنيزة: أن التجار القادمين من المغرب والأندلس اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس، وغير ذلك من منتجات بلادهم فى المدن الشامية والمصرية. وإذا لم يصادف هؤلاء التجار سوقاً تجارية لبضائعهم، اتجهوا بمتاجرهم إلى ميناء جدة، حيث يجدون سوقاً رائجة لتجارتهم[١].

وكان لميناء جدة تجارة برية نشطة برية مع بعض المدن فى الجزيرة العربية وخارجها، فكانت المتاجر تسير منها إلى مكة المكرمة وإلى عمان واليمامة وعدن وصنعاء وذمشق والبصرة وبغداد والفسطاط والقلزم وعيذاب وغيرها[٢].

وزاد من أهمية ميناء جدة أنها كانت مركز جباية المكوس، التى كانت تجبى من الحجاج والتجار بعد وصول مراكبهم إليها[٣]. وكانت جدة تتبع أمير مكة، الذى كان يجبى فيها المكوس من الحجاج الواردين إليها عن طريق البحر. وكان العباسيون والفاطميون يعرفون ذلك، فيغضون النظر عن هذا التصرف. وعندما أصبح صلاح الدين الأيوبى سلطاناً على مصر والشام، أمر بإسقاط المكوس عن الحجاج وعوض أمير مكة عن ذلك، لإدراك السلطان الأيوبى أن دخل مكة المكرمة لا يفى بمصالح أهلها[٤].

---

[١] أحمد عمر الزيلعى: نفس المرجع، ص١٧٨، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٩٠، وعن وثائق الجنيزة أنظر حسنين ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لتجارة موانىء الحجاز واليمن فى العصور الوسطى، ص٢٤-٢٥.

[٢] أحمد عمر الزيلعى: نفس المرجع، ص١٥٦.

[٣] على بن الحسين: النشاط التجارى، ص١٥٦، آمنه جلال: علاقة سلاطين بنى رسول، ص١٥٩.

[٤] ابن جبير: الرحلة، ص٤٨-٤٩، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص١٩٣.

أما ميناء السرين فيمثل الواجهة البحرية الثانية لمكة المكرمة، وكانت تقع إلى الجنوب منها بمسافة خمس مراحل، وهى تابعة لأمير مكة المكرمة، والسرين غير معروفة فى الوقت الحاضر غير أن الأستاذ الدكتور أحمد عمر الزيلعى تمكن بواسطة مقارنة بعض النصوص، التى أوردها الجغرافيون والمؤرخون العرب من ترجيح مكان هذا الميناء شمال وادى دوقة فى مقابل قرية عسيلة من ناحية الغرب شمال حلى. وأضاف أن السرين كانت مدينة عظيمة وأنه كان فيها أسواقاً ومسجداً جامعاً، وأن لها سوراً فى البحر، وكانت فرضة السروات، وأسهمت كجدة فى تجارة مكة. فبالإضافة إلى خيرات السروات التى كانت تأتى عبر هذا الميناء إلى جدة ثم مكة، كانت تجلب إلى السرين مختلف الحبوب من مدن اليمن[٢].

أما ميناء الشعيبة فمن المعروف أنه كان موجوداً قبل ميناء جدة، استخدمه تجار مكة للإتصال بالحبشة والصومال ومصر. وظل ميناء الشعيبة مرفأ لمكة إلى أن قام الخليفة عثمان بن عفان - كما سبق ذكره - بنقل ميناء مكة المكرمة من الشعيبة إلى جدة، وهاجر أهل الشعيبة منها أفواجاً إلى جدة، وأهملت الشعيبة إهمالا تاماً، وأصبح دورها ثانوياً بسيطاً فى تجارة البحر الأحمر[٢].

وينبـــع: من الموانىء الهامة التى أسهمت فى تجارة البحر الأحمر فى تلك الفترة، وينبع أو الينبوع مدينة من مدن الحجاز، تبعد حوالى ١٠٨ ميلا عن المدينة المنورة، وتنقسم إلى قسمين هما: ينبع النخل، وينبع البحر، التى

---

[١] انظر لتفصيل ذلك أحمد عمر الزيلعى: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٧٠، ١٨٤-١٨٧.

[٢] عن ميناء الشعيبة أنظر ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٣٥٠-٣٥١، عبد القدوس الأنصارى: موسوعة تاريخ جدة، م١، ص٥٧-٦١.

صارت ميناء للمدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر، وكانت ينبع من الموانئ الكبيرة الكثيرة العمائر والأسواق، ترد إليها المراكب بالغلال في كل سنة بما قيمته ثلاثين ألف دينار[١].

ويقع ميناء الجار على ثلاث مراحل من المدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر الشرقي[٢]. وذكر اليعقوبي: أنه إلى الجار كانت ترسل مراكب التجار، والمراكب التي تحمل الطعام من مصر[٣].

وكان ميناء الجار معروفاً قبل الإسلام، إلا إنه لم يكتسب شهرته إلا بعد ظهور الإسلام، عندما أصبحت المدينة حاضرة ومركزاً للمسلمين. فأصبح الجار ثغراً للمدينة، لقربه من بلاد الحبشة ومصر وعدن والصين والهند وغيرها من البلاد، التي كان أهل المدينة على صلة تجارية بها. وقد وصف ياقوت الحموي الجار بقوله: "إنها فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند"[٤].

---

[١] أنظر ياقوت، معجم البلدان، جـ٥، ص٤٤٩-٤٥٠، نعيم زكي: طرق التجارة، ص١٤٠، حسنين ربيع: بحر الحجاز في العصور الوسطى، ص٤١٢، على بن الحسين: النشاط التجاري، ص١٠٥، شارل مورتيل: نفس المرجع، ص٢٤، حاشيه ٩٠، سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص٩١، أنظر أيضاً
Al-Whaibi, The Northern Hijaz, pp. 304-312.

[٢] أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٨٢، على بن الحسين: النشاط التجاري، ص١٠٧، أنظر أيضاً: Al-Wohaibi, op. cit., pp.84-90

[٣] اليعقوبي: تقويم البلدان، ص٣١٣.

[٤] ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٩٢-٩٣، أنظر أيضاً سليمان مالكي: بلاد الحجاز ص٩٠-٩١.

أخذ ميناء الجار ينمو ويزدهر، وازداد نشاطه التجارى، حتى أطلق على البحر الأحمر فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى اسم بحر الجار[١]. وظل ميناء الجار ثغراً عامرة بالمراكب الآتية إليها، والمقلعة منها، إلى أن عم الحجاز ما عمه من الفتن والمنازعات منذ القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى. فأخذت الأعراب وقطاع الطرق تداهم هذا الميناء، وسلبوا ونهبوا وقتلوا أهله. واستمر الوضع فى الجار على هذا الحال السئ من عدم الاستقرار، حتى أخذ الحجاج القادمين من الغرب ومصر عن طريق البحر طريقاً آخر، هو الطريق إلى ميناء جدة، فضعف بذلك أمر الجار[٢]. ومع هذا بقى الجار ميناء للمدينة لفترة أمتدت إلى سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م كما أورد بذلك ناصر خسرو[٣].

د- الحرف والصناعات فى مكة والمدينة:

قامت بعض الحرف والصناعات المحلية فى مكة والمدينة، وكانت معظم الصناعات البسيطة المتوارثة من قديم الزمان، تقوم على الخامات المحلية المتوفرة بكل مدينة رغم كره الحجازيين لمهنة الصناعة، واحتقارهم لمن يعمل بها على إعتبار أنها من الحرف الوضيعة. وقام أهل مكة المكرمة بصناعة بعض أنواع الأسلحة اللازمة للقتال، مثل صناعة السيوف والرماح والسكاكين والدروع والنبال والسهام. أضف إلى ذلك صناعة الفخار، وصناعة الأسرة والأرائك[٤]. ومن البديهى أن العمران يتطلب قيام صناعات، تتعلق بالبناء من نحت ونجارة وصناعة أبواب وما شابه ذلك[٥].

---

[١] ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢، ص٩٣، حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٤٨، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص١٠٧، عاتق البلادى: على طريق الهجرة، ص٢١٠.
[٢] حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص٤٩-٥٠، على بن الحسين: النشاط التجارى، ص١٠٨.
[٣] ناصر خسرو: سفرنامة، ص١١٠.
[٤] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣١٣.
[٥] سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١٠٣.

وعرف أهل مكة أيضاً بعض الصناعات المختلفة. مثل صناعة بعض أنواع اللبن، والسمن. فقد ذكر ابن جبير فى رحلته بعض أنواع الحلوى، التى تتم صناعتها فى مكة فى تلك الفترة، هذه الحلوى تصنع من العسل والسكر المعقود مضافين إلى جميع الفواكه من رطب ويابس[١]. وإلى جانب الصناعات السابقة كانت هناك صناعات أخرى، استمرت منذ العصور الإسلامية الأولى إلى ما بعد العصر الفاطمى وأهمها صناعة الحلى كالخواتم والخلاخيل والعقود. وقد استخدموا فى صناعتها الذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة[٢].

ومن أهم الصناعات التى اشتهرت بها مدينة الطائف صناعة الزبيب، وصناعة تجفيفه، حتى أنتجت أجود أنواع الزبيب ومن أشهر الصناعات فى الطائف أيضاً صناعة دبغ الجلود. فقد استفاد أهل الطائف من جلود الحيوانات التى ترعاها القبائل البدوية المجاورة لها، واستخدموا بعض الأعشاب التى تلزم فى عمليات الدبغ[٣]. ومن الجلود كانت تصنع النعال والخفاف[٤]. ويلاحظ أن أهل الطائف اختلفوا عن غيرهم من أهل الحجاز، فى ميلهم إلى الحرف اليدوية: مثل الدباغة والنجارة والحدادة وكانت هذه الحرف مستهجنة فى نظر البدوى، الذى يأنف من الاشتغال بها. كما اشتهرت بصناعة العطور، التى كانت تباع فى مكة المكرمة.

---

[١] ابن جبير: الرحلة، ص٨٦-٨٩، أنظر أيضاً سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١٠٤.
[٢] جميل حرب: الحجاز واليمن، ص١٢٦.
[٣] نادية حسنى صقر: الطائف، ص٤٤.
[٤] نجلة الصباغ: بلاد الحجاز، ص٨٣.

وكانت بساتين الطائف التى تزخر بالأزهار والورود، هى التى تمدهم بها لهذه الصناعة. كذلك اشتهر أهل الطائف بحرف الصيد، التى كانت تتم فى غاباتها القريبة منها، والتى تقع على سفوح جبالها. وقطع أهل الطائف من أشجار هذه الغابات الحطب، الذى يصنع منه الفحم. وهناك حرفة أخرى اشتهر بها أهل الطائف، وهى تربية النحل، وهى من الحرف الهامة التى اشتهرت بها منطقة الطائف، ويعتبر عسل النحل من أهم مصادر ثروتها[١].

وقامت فى المدينة المنورة عدة صناعات، اعتمدت معظمها على المهارة اليدوية، التى اكتسبها الصناع بالخبرة والمران. ومن أهم هذه الحرف المنتشرة فى المدينة المنورة صناعة الحلى. نظراً لتوفر خام الذهب بجوار المدينة. وقد تفنن الصناع فى أشكاله من العقود والأساور والخواتم والخلاخيل، التى تتزين بها النساء[٢].

وكان الصائغ يزين أيضاً مقابض السيوف بالذهب والفضة، وكانت لهم سوقاً خاصة بهم. وإلى جانب صناعة الحلى كانت تقوم حرفة النجارة، التى اقترنت بالمحاصيل الزراعية، هذه الحرفة تعتبر من أهم الصناعات التى كانت تصنع فى المدينة المنورة، ويباع إنتاج هذه الصناعة فى أسواق المدينة متمثلا فى صناعة الأبواب وغيرها. بالاضافة إلى صناعة الآلات الزراعية مثل الفؤوس والمحاريث والمساحى والمناجل وغيرها. وقد كان أهل المدينة يستخدمون جذوع الأشجار وفروعها فى النجارة. وكان شجر الطرفاء والأثل يكثر فى منطقة الغابة فى شمالى غربى المدينة، لهذا استفاد منه النجارون فى صناعتهم[٣]. كما استعان النجارون بأدوات من صنع الحدادين مثل الفأس والمنشار وغيرها[٤]. ولكثرة النخيل فى منطقة المدينة المنورة قامت صناعات

---

[١] السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب، جـ١، ص٣٢٥.

[٢] أحمد الشريف: مكة والمدينة المنورة، ص٣٧٧، نجلة الصباغ: بلاد الحجاز، ص٨٤، جميل حرب: الحجاز واليمن، ص١٢٦، نوره آل الشيخ: الحياة الإجتماعية، ص١٣٥.

[٣] نوره آل الشيخ: الحياة الإجتماعية، ص١٣٨، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٥، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١٠٣.

[٤] نوره آل الشيخ: المرجع السابق، ص١٣٧.

من خوص سعف النخيل، مثل الزنابيل والحبال والقفاف والمكاتل والحصير والسرر وغيرها. وقد ورد ذكر صناعة الحصير كثيراً فى وثائق الجنيزة، وكان الحصير يستخدم فى كل منزل. وفى كل مكان، وتحدثنا هذه الوثائق عن صناعة الحصير وصفاته وأسعاره[١].

وإلى جانب هذه الصناعات والحرف كانت تقوم فى المدينة المنورة حرفة الدباغة التى عمل بها الرجال والنساء. وقامت هذه الصناعة على إصلاح الجلد بإبعاد الصوف والشعر للإستفادة منه فى أغراض مختلفة نافعة، واستخدم الدباغون شجر القرظ التى تعينهم على إزالة الصوف والشعر بسهولة، وتحفظ الجلد من التلف وتدبغه، وقد صنع من الجلود عدة أشياء مثل النعال وأوعية الماء كالجراب. أما نساء المدينة فقد برعن فى حرفة الغزل التى إنتشرت بينهن. وتسمى الآلة التى استخدمت فى هذه الصناعة المغزل. وكن يغزلن وينسجن ثم يحكن بعض الملابس[٢].

كما كانت صناعة الأسلحة والدروع قائمة بالمدينة المنورة مثل السيوف والنبال[٣]. وكان من الصناع من يتخصص فى جلى الأسلحة وصقل السيوف. كما اهتم أهل المدينة بصناعة أدوات الصيد، التى يصنعونها من فخاخ وشباك وأشراك من الحديد وغير ذلك[٤].

ولاشك أن الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع الرسالة كان لها تأثيرها على الحياة الإجتماعية والعلمية والثقافية. كما سيتضح فى بقية فصول الرسالة.

---

[١] حسنين ربيع: وثائق الجنيزة، ص٢٤-٢٥، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٦، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٥.

[٢] نوره آل الشيخ: الحياة الإجتماعية، ص١٣٩.

[٣] عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٧٥.

[٤] أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٨.

الفصل الخامس :

الحياة الاجتماعية فى مكة والمدينة.

فئات المجتمع:

أ- الحكـــام

ب- السكان الأصليون

جـ- المجاورون

د- العلماء والفقهاء.

بعض مظاهر الحياة الإجتماعية:

* الأعياد والمواسم الدينية
* الاحتفالات العائلية
* الملابـــس
* الأطعمـــة

العناية بالمساجد والمنشآت الإجتماعية

الحياة الإجتماعية في مكة والمدينة:

بلاد الحجاز فريدة فى تركيبها الإجتماعى وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة. ويرجع هذا إلى مكانتيهما الدينية عند المسلمين، إذ إستقرت بهما بعض الجماعات الوافدة من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية سواء بعد مواسم الحج، أو وفدوا إليهما لأجل التجارة، حتى صار سكانها الأصليون قلة. وتبعاً لذلك كان بناء المجتمع المكى والمجتمع المدنى متبايناً. وقد برزت فيه عدة طبقات فى العصر الفاطمى منها:-

فئات المجتمع:

١- الحكـــام:

كانت الطبقة الحاكمة فى مكة المكرمة طيلة تاريخ الدلة الفاطمية من الأشراف الموسويين والسليمانيين والهواشم. وكان على امارة مكة المكرمة عند قيام الدولة الفاطمية حسن بن جعفر الموسوى، الذى استقل بأمارة مكة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م. وتولى من بعده أفراد من هذا البيت من الأشراف حتى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، عندما توفى شكر بن أبى الفتوح[١].

وقد تمكن محمد بن جعفر بن أبى هاشم من إنتزاع حكم مكة سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م. وأستمر حكم الأشراف من الهواشم فى أفراد أسرة محمد بن جعفر إلى ما بعد نهاية الدولة الفاطمية[٢].

أما فى المدينة المنورة فقد كان على أمارتها من الأشراف بنو مهنا، وعلى رأسهم طاهر بن مسلم، وكان حكم المدينة المنورة فى أسرته من بعده[٣].

---

[١] أنظر ما سبق، ص ٥٧ وما بعدها.
[٢] أنظر ما سبق، ص ٦٠ وما بعدها.
[٣] أنظر ما سبق، ص ٩٦ الفصل الثالث.

وتجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئاً عن الحياة الاجتماعية للطبقة الحاكمة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما تجدر الإشارة إلى أن الروح الأسرية التى سادت علاقات أفراد الطبقة الحاكمة من الأشراف، هى التى أبقت على أمارتهم طويلا. فقد اتصف الأشراف بحسن معاملة الأسر المقيمة فى مكة، كما كانوا يهتمون بسكان البوادى من القبائل. كما حرصوا دائماً على إكرام "ذوى البيوتات والالتفاف حولهم"، وكانوا يقومون بزيارة مرضاهم، والذهاب إلى جنائزهم لمشاركتهم فى أحزانهم، كما كانوا حذرين فى مسائل الخصومات يعملون، ما أمكن على تجنب الحكم بأحكام صارمة. وفضلوا حل المشاكل عن طريق الصلح بين المتنازعين، كما كان لهم أداب فى الطريق تلزمهم بالتواضع للصغير والكبير[١].

ب- السكان الأصليون:

كان سكان مكة المكرمة فى الأصل قلة من بطون قريش، التى بقيت بمكة بعد حركة الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام والعراق فى العصر الإسلامى الأول، ثم إستقرت بعض القبائل والعشائر البدوية بجوار قريش، وقد شكل المكيون الأصليون نسبة تتراوح بين الربع والثلث من مجموع القاطنين بمكة المكرمة فى العصر الفاطمى[٢]. يضاف إلى ذلك أن بعض العائلات القرشية سكنت بوادى مكة والطائف، حيث كانوا يشتغلون بالزراعة وبخاصة فى وادى الوهط فى الطائف[٣].

وعاشت بمكة المكرمة بعض العائلات العريقة التى برزت بعملها أكثر من بروزها بنفسها، معظم هذه العائلات ليست مكية الأصل، بل بدأت الاستقرار فى نهاية القرن الرابع الهجرى، وطيلة القرنين الخامس والسادس للهجرة. فقد برزت هذه العائلات التى تخصص بعض أفرادها فى طلب العلم، وورثة جيل عن جيل، كما توارثوا خطبة الجمعة والإمامة فى المسجد الحرام. ومن هذه

---

[١] على بن حسين السليمان، العلاقات الحجازية، ص ٢٠٨: سليمان المالكى، بلاد الحجاز، ص ١٠٩-١١٠

[٢] عائشه باقاسى : بلاد الحجاز، ص ٨٠ .

[٣] أنظر سليمان مالكى: نفس المرجع، ص ١١٠.

العائلات التى ظهرت فى القرن الهجرى السادس أى أواخر العهد الفاطمى بيت الطبرى وبيت النويريين. والطبريون ينتسبون إلى قريش، وقد هاجر أجدادهم فى غمرة من هاجر خارج الجزيرة العربية فى العهد العباسى، ثم مالبث الأحفاد أن عادوا إلى مكة سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. وأستقروا فيها لطلب العلم والتدريس[١].

أما النويريون فقد ظهر علماؤهم فى منتصف القرن الثانى الهجرى ولعبوا دوراً هاماً فى الحياة الثقافية والتعليمية فى مكة المكرمة لقرون طويلة[٢].

جـ- المجاورون:

نعنى بطبقة المجاورين هم أولئك الذين وفدوا من مختلف الأقطار الإسلامية، قبل العصر الفاطمى وأثنائه إلى مكة المكرمة، إحتماء بحرم الله، وإبتغاء لفضل الله ورضوانه، وقصداً لتجارة الدنيا الآخرة[٣]. إندمج هؤلاء المجاورون فى المجتمع المكى، حتى صاروا يشكلون جزءاً منه، سواء العلماء الذين جاءوا للدراسة والتدريس بجوار البيت العتيق، أو التجار الذين قدموا للتجارة والحج[٤]. وقد أمدتنا وثائق الجنيزة بأخبار كثيرة، عن دراسة الحياة الإجتماعية لسكان مدن الحجاز، وبخاصة المجاورين، فمن المعروف أن هذه المدن وقد إليها تجار مسلمون من بلاد ومدن بعيدة مثل: برقة وطرابلس والقيروان والمهدية والمغرب وتلمسان، واستقروا فى مكة المكرمة وغيرها. ولعبوا دوراً هاماً فى الحياة الإجتماعية والثقافية فى العصور الوسطى[٥].

---

[١] أحمدالسباعى:تاريخ مكة ،جـ١ ، ص٢١٧-٢١٨، على بن الحسين: العلاقات الحجازية ، ص٢٠٨.

[٢] على بن الحسين: العلاقات الحجازية ، ص ١٤٥.

[٣] إبراهيم رفعت: مرأة الحرمين، جـ٢، ص٢٠١، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٠، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١١١.

[٤] على بن الحسين: العلاقات الحجازية ، ص٢٠٩.

[٥] حسنين ربيع: وثائق الجنيزة، ص٢٥، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٠.

وكان للتزاوج بين المجاورين والمكيين أثر كبير، ترك بصماته على المجتمع المكي. وخلفت حياة المجاورة في مكة والاستيطان بها على مر السنين أسراً كبيرة، لم تلبث أن أصبحت جزءاً من المجتمع المكي، واكتسبت شهرة عظيمة في مجال القضاء والاستقلال بالعلم. وتحدثنا المصادر التاريخية عن الطبريين والنويريين والفاسيين وغيرهم، وجميعهم كانوا من البيوت التي لعبت دوراً كبيراً في حياة مكة الدينية والثقافية والعلمية[١].

وقد ألقى الدكتور أحمد عمر الزيلعي[٢] أضواء جديدة على طبقة المجاورين، وتوصل إلى الحقائق التاريخية التالية:

١- إن أغلب المجاورين بمكة كانوا من رعايا الدولة العباسية، ولاسيما من البلاد الواقعة شرقي العراق، ثم يلي ذلك الأندلسيون والمغاربة فالمصريون والشاميون، وقلما جاور أحد من اليمنيين بمكة المكرمة.

٢- إن أغلب المجاورين بمكة كانوا من الزهاد، أو من العلماء المتبحرين في فنونهم. وقد وجد من بين هؤلاء المجاورين من جاء إلى مكة المكرمة موفداً من قبل الخلافة العباسية لرعاية مصالح الحرم.

٣- إن مدة المجاورة بالحرم المكي كانت تطول وتقصر تبعاً لراحة المجاور والظروف المحيطة بها. ففي حين أنها لم تزد على أربع سنوات لدى بعض الأشخاص، نجد أنها تمتد بالبعض الآخر إلى خمسين سنة، بل إن معظم المجاورين فضلوا البقاء بمكة حتى وفاتهم.

٤- إن بعض العلماء من المجاورين وصلوا إلى وظائف دينية هامة، فتقلب بعضهم على إمامة الحرم المكي، وتولى البعض الآخر إقامة الأذان فيه، ومنهم من اشتغل بالتدريس والقضاء وتصدى للفتوى.

---

[١] الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥٠-١٥١.
[٢] المرجع السابق، ص١٣٨-١٣٩.

٥- إنه وجد من بين طبقات المثقفين من فضل المجاورة بالمدينة المنورة.

٦- إن معظم هؤلاء المجاورين لم يكونوا بمعزل عن الحياة العامة فى مكة المكرمة، بل تفاعلوا معها. وظهرت آثارهم واضحة فى النواحى الدينية، والثقافية والسياسية والاجتماعية.

وكان المجاورون موضع رعاية وعناية ممن يفد إلى مكة من أثرياء الحجاج، وأمراء وأميرات البيوت الإسلامية الحاكمة. ففى سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م - على سبيل المثال - حجت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان فسيرت أربعمائة محمل على لون واحد. ولم يعلم الناس فى أيها كانت. وكست المجاورين فى الحرمين، وأنفقت فيهما أموالا عظيمة، وضرب بحجها المثل، لما شاهدت الكعبة نثرت عليها عشرة آلاف دينار ضرب أبيها[١].

أما عن المجاورين الذين كانوا يعيشون فى مكة المكرمة، فقد عاشوا فى الأربطة التى كانت تبنى من قبل بعض الملوك والأغنياء، وأهم هذه الأربطة التى كانت موجودة فى تلك الفترة التاريخية موضوع الدراسة وهى:

- رباط السدرة: كان يقع بالجانب الشرقى من المسجد الحرام على يسار الداخل من باب بنى شيبة. ولا تذكر المصادر التاريخية اسم الشخص الذى أوقفه للمجاورين إبتغاء وجه الله، وولا تاريخ الووقف. غير أنه من الثابت أن رباط السدرة كان وقفاً سنة أربعمائة من الهجرة[٢].

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة٣٦٦هـ،الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ١١٧-١١٨، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ص٢٥٥-٢٥٦، ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٩٠، ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص ٨٤، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٢، ص٥٥، ابن حجة الحموى: المستطرف، ص١٨١-١٨٢: الجزيرى: درر الفوائد، ص٢٤٦-٢٤٧.

[٢] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٨٧-٨٨: العقد، جـ٣، ص٢٤٩، عن رباط السدره، أنظر أيضاً الزيلعى: نفس المرجع، ص١٥٠.

- رباط رامشت: هو رباط مشهور بمكة، كان يقع عند باب الحزوره من المسجد الحرام، يرجع تاريخ وقفه إلى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م. وكان وقفاً على جميع المجاورين من الرجال دون النساء من سائر مدن العراق، وكان ذلك منقوشاً على حجر عند باب الرباط[١].

- رباط السبتة: وهو رباط للمجاورين كان موجوداً في سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م كما يذكر الفاسي[٢].

- رباط الدمشقية: ذكر الفاسي أن هذا الرباط شيد سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م. وأنه كان وقفاً على العلماء والقراء والفقراء من أهل دمشق والعراقيين العرب والعجم[٣].

- رباط الدورى: وقفة الشيخ نجيب الدين أبو الحسن بن محمد ابن جبريل الزرندى على أهل ساوه وزرند القادمين إلى حج بيت الله الحرام. وذكر ابن فهد أنه له أزيد من ثلثمائة سنة. ومعنى ذلك أنه يرجع إلى العصر الفاطمى[٤].

- رباط الفقاعية: أوقفت هذا الرباط قهرمانة [مديرة قصر] الخليفة العباسى المقتدى على المنقطعات الأرامل[٥].

---

[١] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٨٨، العقد، جـ٤، ص ٣٨٥-٣٨٦، ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٥٠٤-٥٠٥.

[٢] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٩٠، شفاء الغرام، جـ١، ص٣٣٥.

[٣] الفاسى: شفاء الغرام، جـ١، ص ٣٣٥.

[٤] الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٩٠: وساوه مدينة بين الرى وهمذان، نسب إليها طائفة من أهل العلم، وخربها المغول سنة ٦١٧هـ، وزرند بليده بين أصبهان وساووه ينسب إليها أبو عبد الله محمد بن العباسى الزرندى الشيرازى النحوى، أنظر ياقوت الحموى: جـ٣، ص١٧٩-١٨٠.

[٥] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٩-٤٩٠، أنظر أيضاً الزيلعى، نفس المرجع، ص١٥٠.

- رباط أسد الدين شيركوه فى المدينة المنورة: فى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حج أسد الدين شيركوه بن شادى مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكى صاحب الرحبة، فتصدق وفعل كل خير، وأعتنى بأهل الحرمين، وأمر ببناء رباطه بمدينه النبى صلى الله عليه وسلم، وأوصى أنه إذا مات أن يحمل فيدفن فيه[١].

د- العلماء والفقهاء:

وفد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة جماعات من العلماء والفقهاء من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية لأداء فريضة الحج، ثم جاوروا الحرمين الشريفين، وانشغلوا بالدراسة والتدريس، وكونوا طبقة متميزة كان لها دورها الهام فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة. فقد كانت الغاية من المجاورة بمكة المكرمة، هى الإنقطاع للعبادة، والتبتل، وطلب العلم بجوار بيت الله الحرام. وهناك جماعة أخرى من المجاورين جمعوا بين العبادة والاشتغال بالعلم فتركوا أثاراً واضحة على المجتمع الثقافى بمكة المكرمة والمدينة المنورة[٢].

وأشارت المصادر التاريخية إلى أن بعض المشاهير العلماء والفقهاء الذين وفدوا وجاوروا خلال العصر الفاطمى منهم من انقطع للعبادة والتبتل، ومنهم من جمع بين العبادة وطلب العلم. وسوف نذكر نماذج مختصرة عن بعضهم:

- أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الذى توفى بمكة المكرمة سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م وكان من مشاهير الفقهاء[٣].

---

[١] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٢٢.
[٢] لتفصيل ذلك أنظر الزيلعى، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٣٩-١٤٦.
[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٦٠هـ.

- أبو عبد الله الوراق الحنبلي، كان من الفقهاء الذين جاوروا بيت الله الحرام بمكة، وكان مدرساً من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وفقيههم فى زمانه، توفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[١].

- صباح ابن الحسين أبو محمد الحطينى الشامى، كان فقيه الحرم ومفتى أهل مكة، توفى فى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م[٢].

- القاضى أبو الوليد الباجى، اسمه سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث النجيبى المالكى الأندلسى الباجى. أقام بمكة المكرمة، وحج فى سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م وقد حج بعدها أربع حجج ثم رحل إلى بغداد[٣].

- الجمال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فتوح بن محمد المكناسى المالكي. أصبح فى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م إمام مقام المالكية بالمسجد الحرام[٤].

- محمد بن عمر بن عبد العزيز بن طاهر أبو بكر الحنفى المقرىء الذى حدث بالحرمين الشريفين وغيرهما وتوفى فى سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م[٥].

- سعيد بن أحمد الأنصارى الحنفى إمام الحنفية بالمسجد الحرام، الذى شهد على رامشت لوقفه رباطه بمكة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م[٦].

---

[١] العينى: حوادث سنة ٤٠٣هـ.
[٢] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص ٣٢٦.
[٣] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٧٤.
[٤] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٧-٤٨٨.
[٥] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٢٥هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٠٢-٥٠٤.
[٦] الفاسى: العقد، جـ٤، ص٥٤٩.

- برهان الدين البلخى الزاهد الذى وفد إلى مكة، وجاور بها، وكان إمام الحنفية بالمسجد الحرام وتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[١].

وتجدر الإشارة إلى أنه من أشهر مجاورى المدينة المنورة فى العصر الفاطمى، زمرد خاتون بنت جاولى أخت الملك دقاق بن تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان السلجوقى لأمه، أقامت بدمشق، ثم حجت عن طريق العراق، ودخلت بغداد. وعادت فجاورت بمكة، ثم جاءت إلى المدينة المنورة فجاورت بها، حتى توفيت ودفنت بالبقيع سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م[٢].

بعض مظاهر الحياة الإجتماعية فى مكة المدينة:

دراسة الحياة الإجتماعية فى العالم الاسلامى فى العصور الإسلامية المتقدمة، تختلف إلى حد كبير عن دراسة الأحداث السياسية، وذلك لأن الأحداث السياسية تتصف بالتغيير والتبديل وعدم الاستقرار، فى حين تظل الحياة الإجتماعية على شىء من الثبات عدم التغيير السريع، أو بطئه الشديد. ولذلك أسهمت المصادر التاريخية فى ذكر المعلومات الخاصة بالأحداث السياسية وتاريخ الخلفاء والولاة والأمراء، بينما ضنت المصادر، وأوجزت إيجازاً شديداً عند ذكر بعض مظاهر الحياة الإجتماعية. فقد رأى المؤرخون المعاصرون أن هذه المظاهر من الأمور العادية المستقرة، التى عاشها الأجداد، وسوف يعيشها الأحفاد، وبالتالى ليست جديرة بالتسجيل - فى رأيهم - مثل الحوادث السياسية المتغيرة.

والباحث فى الحياة الإجتماعية فى مكة والمدينة - خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة - مثل غيره من الباحثين فى الحياة الإجتماعية فى

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٤٨هـ.
[٢] المصدر السابق: حوادث سنة ٥٥٧هـ.

بلاد إسلامية أخرى، يجد كثيراً من العادات والتقاليد الإجتماعية التى يعيشها هو ومعاصروه ترجع إلى أزمنة سالفة. ومازال أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة، يحتفلون إحتفالات عائلية، تشبه إلى حد كبير احتفالات أجدادهم وأسلافهم، كما يرددون كثيراً من الأمثال والتعبيرات التى رددها الأجداد أيضاً.

يضاف إلى ذلك أن الباحث فى التاريخ الإجتماعى يظطر أحياناً إلى اللجوء إلى بعض المصادر والمراجع المتقدمة قليلا، أو المتأخرة قليلا عن العصر الذى يبحث فيه، لاستكمال صورة ناقصةأو العثور على حلقة مفقودة، وإن كان ذلك يتطلب الحذر والحيطة. كما يتعذر على الباحث أيضاً أن يلم بجميع أطراف الحياة الإجتماعية فى مكة والمدينة فى العصر الفاطمى، وذلك لأن مجال الحياة الاجتماعية غير محدد، حتى يمكن الإلمام بجميع أطرافه، فالمقصود بالحياة الإجتماعية جميع نواحى النشاط الإنسانى فى ميادين العمل واللعب والأسرة والأعياد والأفراح، والمآتم والأحزان والأمراض الإجتماعية وغير ذلك.

أما عن الأعياد والمواسم الدينية والإحتفالات العائلية فى مكة المكرمة فى العصر الفاطمى، فقد كان لأهل مكة إحتفالات دينية متعددة فى مختلف المناسبات، فهم يحتفلون بأولادهم إحتفالا كبيراً لختمهم القرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم فى طرق مكة[١]. وكما كان أهل مكة يحتفلون بتاريخ مولد النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع الأول، ويحتفلون بتاريخ مولد السيدة ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فى منتصف شهر صفر عند مدفنها بالزاهر على طريق المدينة المنورة، فينصبون خيامهم فى تلك الصحراء، ويتفاخرن بكثرة الطعام الشراب. ويعبرون عن الإحتفال بكلمة الحول، فيقولون حول ميمونة، وحول النبى[٢]. وقد عمل البويهيون الشيعة الذين

---

[١] البتنونى: الرحلة الحجازية، ص٥١، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١٢، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٥.

[٢] البتنونى: الرحلة، ص٥١، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٥.

سيطروا على بغداد فى القرن الرابع الهجرى على إبراز هذه الإحتفالات ثم نشروها وثبتوها فى أذهان الفاطميين بمصر، حتى صارت تقليداً متبعاً فى العالم الإسلامى كله لفترة تاريخية ليست قصيرة[١].

وكان أهل مكة يحتفلون أيضاً باستهلال الشهور الهجرية، وعادتهم فى ذلك أن يأتى أمير مكة فى أول يوم من أيام الشهر، يحف به كبار رجاله، وهو يرتدى الملابس البيضاء، ويتقلد سيفه، وعليه السكينة والوقار، فيصلى عند مقام ابراهيم ركعتين، ثم يقبل الحجر الأسود، ويطوف حول الكعبة سبعة أشواط، وكلما أكمل الأمير شوطاً واحداً، كان يتجه لتقبيل الحجر الأسود. وعندها يرتفع صوت رئيس المؤذنين الذى يقف أعلى قبة زمزم بالدعاء للأمير، وتهنئته بدخول الشهر، رافعاً بذلك صوته بدعاء يستفتحه بقوله: "صبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة". ثم يتابع دعاءه بتهنئته بقدوم الشهر، بكلام مسجوع مطبوع حافل بالدعاء والثناء. ثم يختتم ذلك بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر فى مدحه ومدح سلفه الكريم. فإذا فرغ الأمير من الطواف ركع عند الملتزم ركعتين، ثم جاء وركع خلف المقام أيضاً، ثم ولى منصرفاً وجلبته تحف به. ولا يظهر فى الحرم إلا لمستهل هلال آخر[٢].

ويحتفل أهل مكة ببدء هلال شهر رجب إحتفالا يختلف عن بقية الشهور العربية، لأنهم يعتبرونه بدء موسم عظيم، حيث إن شهر رجب هو بدء الأشهر الحرم، ويتوسط العام الهجرى[٣]. وقد وصف لنا ابن جبير أهل مكة فى استهلالهم شهر رجب، وكان ذلك فى ليلة خميس، حيث يخرج أهل مكة فى تلك الليلة إلى التنعيم - ميقات المعتمرين - وكل يتأنق ويحتفل قدر استطاعته، وترى الهوادج منتشرة فى بطاح مكة وشعابها، وتحتها الإبل قد زينت بأبهى أنواع الزينة. ووبعد قضاء العمرة يذهب أهل مكة للسعى بين

---

[١] على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١٢-٢١٣.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص٦٧، ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٥٧، وأنظر أيضاً: سليمان المالكى، بلاد الحجاز، ص١١٨.

[٣] ابن جبير: الرحلة، ص٩٥، أنظر أيضا عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٢، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١١٨.

الصفا والمروة، فيزدحم المسعى بالساعيات على هوادجهن والساعين. وفى تلك الليلة يتلألأ المسجد الحرام بالأنوار. وعند ثبوت رؤية الهلال لدى الأمير، يأمر بضرب الطبول والدبادب والأبوام إشعاراً بأنها ليلة الموسم[١].

ويتابع ابن جبير فى وصف إحتفال مكة بصبيحة الليلة التى استهل بها شهر رجب، فيذكر أن أهل مكة يخرجون جميعهم حسب مراتبهم، قبيلة قبيلة وحارة حارة، حاملين الأسلحة فرساناً ورجالا، فالفرسان يلعبون بالأسلحة وهم فوق صهوات جيادهم، والراجلون يتواثبون ويتناورون بالأسلحة فى أيديهم حراباً وسيوفاً، وهم يظهرون فنوناً من التطاعن بالحراب، والتضارب بالسيوف، والمدافعة بالحجف التى يستجنون بها. وكانا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها تلقفها أيديهم، ولا يزالون فى هذا إلى أن يخرج الأمير إليهم، فيستمر الإحتفال بين يدى الأمير إلى أن يصل ركبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالكعبة. ثم يصلى بعد ذلك عند الملتزم، ثم يخرج من باب الصفا إلى السعى[٢].

وكانت العمرة تتصل فى هذا الشهر، تستمر معها إحتفالات أهل مكة بالعمرة فى الليل والنهار وعند الرجال والنساء، وكلها قريبة من احتفالهم بالليلة العظيمة، التى استهل بها شهر رجب، ليلة الموسم عند أهل مكة.

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب يحتفل أهل مكة منذ صبيحتها إحتفالا عظيماً، ويسمون العمرة فيها عمرة الأكمة، لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها. والأصل فى هذه العمرة أنهم يحتفلون بذكرى إتمام بناء البيت أيام عبد الله بن الزبير، وبقيت هذه العمرة عادة عند أهل مكة فى اليوم نفسه، وعلى تلك الأكمة بعينها[٣].

---

[١] ابن جبير: الرحلة، ص٩٥-٩٦، سليمان المالكى، نفس المرجع، ص١١٩.
[٢] ابن جبير: الرحلة، ص٩٥-٩٧، أنظر عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص ٨٢-٨٣.
[٣] ابن جبير: الرحلة، ص٢، سليمان المالكى: بلاد الحجاز، ص١٢٠.

وفى اليوم التاسع والعشرين من رجب يفتتح بيت الله الكريم للنساء خاصة، فتحتفل نساء مكة فى ذلك اليوم إحتفالا عظيماً، "فهن يرتقبن ارتقاب أشراف الأعياد، ويكثرن له من التأهب والاستعداد". وقد أضاف ابن جبير أيضاً أن أهل مكة المكرمة إعتادوا فى هذا الشهر زيارة المدينة المنورة[١]. وبالجملة فشهر رجب المبارك كله معموراً بأنواع العبادات من العمرة وسواها على حد قول الرحالة ابن جبير[٢].

أما الإحتفالات بليلة النصف من شهر شعبان، فقد تحدث عنها كل من ابن جبير وابن بطوطة وهذا ما يدل على أن هذا الإحتفال استمر لقرون طويلة، ولاشك إنه استمرار لما كان موجوداً فى العصر الفاطمى. فليلة النصف من شعبان من الليالى المعظمة عند أهل مكة المكرمة، فهم يبادرون فيها إلى أداء الشعائر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعات، ويجتمعون فى المسجد الحرام، فيقومون بقراءة القرآن الكريم، وقد بسطت الحصر، وأوقدت الشموع وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح[٣].

وإذا أهل هلال شهر رمضان كانت الطبول والدبادب تضرب عند أمير مكة. وهنا يبدأ الاستعداد للإحتفال فى المسجد الحرام. من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل وغير ذلك من الآلات، حتى يتلالأ الحرم نوراً ويسطع ضياء، ويتفرق الأئمة فرقاً لإقامة صلاة التراويح. ويتخذ إمام كل مذهب من المذاهب الأربعة ناحية من نواحى المسجد الحرام، فالشافعية تتخذ لها ناحية من المسجد بعد أن تنصب لها إماماً، وكذلك أصحاب المذاهب الأخرى كالحنابلة والأحناف والزيدية. أما المالكية فكانت تجتمع على ثلاثة قراء يتناوبون

---

[١] ابن جبير: الرحلة، ص١٠١.
[٢] ابن جبير: الرحلة، ص١٠١.
[٣] ابن جبير: الرحلة، ص١٠٦-١٠٧: ابن بطوطة: الرحلة، ص١٦١.

القراءة، ويوقدون الشمع. ولا يبقى فى الحرم ركن ولا ناحية إلا وفيها مقرئ أو إمام يصلى بجماعة فيرتج المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية[١].

أما ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان فتعتبر من أعظم الليالى عند أهل مكة فى ذلك الوقت، واحتفالهم بها أعظم من احتفالهم بسائر الليالى، إذ كان يختم فيها القرآن العظيم خلف المقام الكريم، وفيها يتقدم الإمام فيصلى فريضة العشاء الأخيرة، ثم يبدأ فى قراءة سورة القدر، وإليها يكون إنتهاء قراءة الأئمة فى الليلة التى قبلها. وفى تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام، ويحضرونها متبركين، فيختم الإمام فى تسليمتين، ثم يقوم خطيباً مستقبلا المقام. فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانفض الجمع، ثم يكون الختم ليلة التاسع والعشرين فى المقام المالكى فى هيئة مختصرة[٢]. وكان أهل مكة يكثرون العمرة فى هذا الشهر المبارك. فقد ذكر ابن جبير أن أهل مكة يعتبرون العمرة فى شهر رمضان تعادل وقوف عرفة، لذا كانوا يحتفلون بها إحتفالا لا مثيل له[٣].

ومن عادة أهل مكة المكرمة فى شهر شوال - وهو أول أشهر الحج المعلومات - أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجوا المصابيح والشموع، وتوقد السرج فى الصوامع [من الأربع جهات من الحرم]. ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح. والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء. فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف لأداء صلاة العيد[٤].

---

[١] ابن جبير: الرحلة، ص١٠٨-١١٠، ابن بطوطة، الرحلة، ص١٦١، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١٢١.

[٢] ابن جبير: الرحلة، ص١١٤-١١٧، ابن بطوطة، الرحلة، ص١٦٢-١٦٣، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص١٢٤.

[٣] ابن جبير: الرحلة، ص٩٥.

[٤] ابن جبير: الرحلة، ص١١٨-١٢٠، ابن بطوطة: الرحلة، ص١٦٣.

وكان أهل مكة في العصور الوسطى، يستعدون طوال شهر شوال لاستقبال الحجاج، ومحمل الكسوة في ذى القعدة وأوائل ذى الحجة[١]. وذكر القلقشندى في كتابه "صبح الأعشى" أنه في كل سنة يجهز إلى الحجاز المحمل من الديار المصرية لكسوة الكعبة المشرفة. وجرت العادة أن يأخذ سدنة الكعبة الكسوة القديمة التى كانت على البيت، فيوزعونها على الملوك وأشراف الناس[٢]. لذلك نجد أن الخلفاء الفاطميين إهتموا كثيراً بكسوة الكعبة المشرفة. ففى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م - على سبيل المثال - نصبت الستائر على الكعبة وعليها اسم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، ونصبت له المحاريب الذهب والفضة عليها اسمه[٣]. كان برفقة قافلة الحاج التى خرجت من الديار المصرية في ذى القعدة سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م محراب من ذهب الكعبة[٤]. وفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م سارت قافلة الحاج في البر ومعها كسوة الكعبة والطيب والصلات، فجلس الخليفة الفاطمى العزيز للنظر إليهم[٥]. وقد بالغ الفاطميون في الإنفاق على قوافل الحاج فنجد أنه في منتصف ذى القعدة سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، خرجت قافلة الحاج. ومعها كسوة الكعبة والصلات، فخرج حاج كبير، وخرج معهم ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل. وبلغت النفقة على الكسوة والصلات ثلاثمائة ألف دينار كما ذكر المقريزى[٦]. وهكذا استمر إرسال الكسوة للكعبة والصلات والنفقة على الرسم المعتاد على الأقل خلال السنوات ٣٨٦هـ-٣٩٧هـ/٩٩٦م-١٠٠٦م. ففى سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م أمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله أن تكون كسوة الكعبة من القباطى الأبيض، وأرسل مالا كثيراً لأهل الحرمين[٧]. وهكذا استمرت الكسوة تصل إلى بلاد الحجاز في موعدها من قبل الخلفاء الفاطميين حتى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م. وهى السنة التى كسا فيها الصليحى صاحب اليمن البيت العتيق بالحرير الأبيض الصينى ورد حلى البيت[٨].

---

[١] على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١٣، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٤

[٢] القلقشندى:صبح الأعشى،جـ٤،ص٢٧٦-٢٧٧،الخربوطلى:تاريخ الكعبة،ص١٧٧-١٧٨

[٣] المقريزى: إتعاظ الحنفا: جـ١، ص ٢٣٠-٢٣١.

[٤] المصدر السابق: جـ١، ص٢٤٦.

[٥] المصدر السابق: جـ١، ص٢٦٧.

[٦] المصدر السابق: جـ٢، ص٧، ١٥، ٢٤، ٢٥، ٥١.

[٧] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٧هـ.

[٨] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٢٣هـ، ٤٣٨هـ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٧٢، الجزيرى: درر الفوائد، ص ٢٥٤-٢٥٦، محمد طاهر الكردى: التاريخ القويم، جـ٤، ص١٩٨، سرور: سياسة الفاطميين، ص٢٧-٢٨.

أما شهر ذو القعدة فهو ثانى الأشهر الحرم وثانى أشهر الحج، ففى السابع والعشرين منه تشمر أستار الكعبة إلى نحو إرتفاع القامة ونصف من جهاتها الأربع صوناً لها من الأيدى أن تنتهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة، ولازالت هذه العادة مستمرة حتى اليوم[١].

وإذا كان أول يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات بكرة وعشية إشعاراً للموسم المبارك، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات. فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم، ويعلمهم بيوم الوقفة. فإذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود إلى منى، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة، فيمرون بوادى محسر[٢]. ثم إذا حان وقت النفر من عرفة أشار الإمام المالكى بيده، ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفرة. فإذا وصل الحجيج مزدلفة عند العشاء الأخيرة، صلوا بها المغرب والعشاء جمعاً بينهما، وبعد صلاة الصبح فى مزدلفة يذهبون إلى منى. وفى منى يبادر الحجيج لرمى الجمرات، وكثير من الحجاج يقيمون لليوم الثالث بعد يوم النحر[٣].

أما عن مظاهر الحياة الإجتماعية فى المدينة المنورة فالحقيقة أن المصادر التاريخية لا تمدنا بمعلومات وافية عنها خلال الفترة التاريخية موضوع الرسالة. ويشبه التكوين الطبقى بالمدينة المنورة نظيره فى مكة، من حيث الطبقة الحاكمة من بنى الحسين وبنى مهنا، بالإضافة إلى سكان المدينة الأصليين من بقايا الأوس والخزرج، ثم قلة من مهاجرى قريش، إلى جانب طبقة المجاورين الذين استوطنوا دار الهجرة وإندمجوا مع السكان الأصليين عن طريق

---

[١] ابن بطوطة : الرحلة، ص١٦٤.
[٢] ابن بطوطة، ص١٦٤.
[٣] ابن بطوطة، ص١٦٤-١٦٦.

النسب، وشكلوا أكبر نسبة فى عدد السكان. ومن أشهر هذه العائلات آل الرفاعى، وآل سفر. ومن هذه الأسر التجار والصناع وطلبة العلم والعلماء، الذين جاوروا فى المدينة المنورة[١]. غير إنه يمكن القل بأن نواحى النشاط الإنسانى فى ميادين الأسرة والأعياد والأفراح الاحتفالات والعادات ووالتقاليد لسكان مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، التى حدثنا عنها بعض الكتاب والرحالة المعاصرين ومنهم البتنونى وابراهيم رفعت وغيرهما، كانت - كما يبدو - لها أصول وجذور ترجع إلى ما قبل العصر الفاطمى وما بعده، بدليل أن كثيراً من هذه الإحتفالات والعادات إستمرت حتى اليوم[٢].

فمن عادة أهل المدينة المنورة فى شهر رمضان أن يتناولوا فطوراً خفيفاً فى المسجد النبوى بعد آذان صلاة المغرب، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم. ثم يصلون المغرب، ويذهبون إلى بيوتهم ليتناولوا الفطور الكامل، ثم يعودون إلى المسجد لصلاة العشاء، وبعدها تبتدىء صلاة التراويح[٣]. أما صلاة العيد فكان يصليها بالمسجد النبوى أئمة الشافعية والأحناف. وبعد الصلاة يتشرف الجمع بزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يعودون إلى منازلهم.

وكان عيد الفطر عند أهل المدينة أربعة ايام، يتزاورون فيها لكل حى من أحياء المدينة يوم مخصوص، يزور أهله فيه أهالى الأحياء الأخرى. ويقدم للزائرين الحلوى فيأكلون، وماء الورد فيتطيبون، والعود الهندى فيتبخرون[٤].

ومن عاداتهم القديمة المتوارثة أن كل واحد منهم يقدم كل سنة فى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة كمية من الحنطة على سبيل الهدية إلى الحجرة الشريفة. وبعد أن يغسلها وينظفها جيداً، يضعها فى كيس جديد من

---

[١] أنظر سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١١٢-١١٣.

[٢] أنظر عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص ٨٥.

[٣] البتنونى: الرحلة، ص٢٦١، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢٢١.

[٤] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص٢٤٤، البتنونى: الرحلة، ص٢٦١، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢٢١، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٥.

القماش الأبيض، حتى إذا وصل إلى الباب المؤدى إلى الروضة الشريفة، وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة. وهذه الأكياس يأخذها خدم الحجرة الشريفة، ويهدون منها إلى عظماء المسلمين تبركاً[١].

ومن عادة أهل المدينة فى الزواج، أنه إذا رغب فتى فى الإقتران بفتاة، أتفق مع أهلها، فتقام الولائم للرجال والنساء ليلة الزفاف، وليلتين قبلها وليلة بعدها[٢].

ومن عاداتهم لمواليدهم، عندما يمضى على ولادة الطفل أربعون يوماً، غسلوه ونظفوه وألبسوه ملابس بيضاء، وبعد أن يعطروه يأخذه أهله وهم فى أحسن زينة لهم إلى الحجرة الشريفة. وهناك يأخذه الخدم، ويضعونه فيها، ويغطونه بستارتها، ثم يدعون له بالخير، وبعدها يسلم الطفل إلى أمه فتأخذه فرحة. ومن عادتهم أيضاً عند الوفاة إنهم لا ينوحون إذا مات لهم ميت، ولا يبكون. ويخرجون كل خميس نساء ورجالا بعد صلاة العصر إلى البقيع، ويلقون على القبر شيئاً من الرياحين[٣].

وإعتاد أهل المدينة المنورة أيضاً التنزه فى البساتين خارج المدينة المنورة. فيخرجون إليها فى يومى الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات، ويعودون فى المساء. وقد يخرجون إلى البساتين التى تقع فى ضواحى المدينة من أول يوم، ومعهم غداؤهم، فيمضون نهارهم فى سرور وحبور، ويسمون هذه الفسحة مقيالا[٤].

---

[١] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص٤٤٣؛ البتنونى: الرحلة، ص٢٦٠، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٦.

[٢] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١ ص٤٤٣، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٥-٨٦.

[٣] ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص٤٤٣: البتنونى: الرحلة، ص٢٦٠-٢٦١، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص٨٦.

[٤] البتنونى: الرحلة، ص٢٥٩-٢٦٠، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص ٨٦.

أما بالنسبة لملابس أهالي مكة والمدينة، فقد تباينت وإختلفت حسب مكانة الشخص ومركزه الإجتماعي. فقد كان من عادة السكان التأنق فى اللباس، وكثرت فى لباسهم الألوان الزاهية خصوصاً الأخضر والأحمر والوردى والأزرق[١].

وعرف سكان مكة المكرمة والمدينة المنورة فى العصور الوسطى ثياباً جديدة مصنوعة من الحرير والكتان، وأنواعاً براقة تتلألأ إذا إنعكست عليها أشعة الشمس، كانت ترد إليها من مصر. كما عرف سكان المدينتين العمائم المزركشة بما يشبه القصب، وعرفوا لبس الجبة. ويبدو أن المؤثرات الفاطمية فى الملابس كانت واضحة فى حياة الناس الإجتماعية، فمن المعروف أن الفاطميين إعتادوا أن يخلعوا على الأمراء والوزراء خلعاً خاصة فى الأعياد والمناسبات. وكانت هذه الخلع توشى بخيوط الذهب والفضة. وكان لأمراء مكة والمدينة نصيب وافر من هذه الخلع، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين الفاطميين. وكانت تصل إلى مكة والمدينة فى مواسم الحج ومناسبات الأعياد أنواع مختلفة من هذه الخلع والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة. وشاع تقليد هذه الثياب الموشاة بالطرز الفاطمية بين أفراد الطبقات الراقية فى المدينتين، فتركت أثرها فى إقبال الأثرياء فى مكة والمدينة على إرتداء هذه الملابس. وقد نالها من التطور ما جعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون[٢]. كذلك احتفظ المكيون والمدنيون فى بيوتهم بكثير من أدوات الزينة والزخرف والرياش الثمينة كالبسط العجمية النادرة[٣].

---

[١] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، جـ١، ص٢٠٤، البتنونى: الرحلة، ص٤٩، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١١، عائشة باقاسى، بلاد الحجاز، ص٨٦-٨٧.

[٢] أنظر أحمد السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص ٢١٧، عائشة باقاسى، بلاد الحجاز، ص٨٧.

[٣] ابن بطوطة: الرحلة، ص١٤٣، البتنونى: الرحلة، ص٤٩، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١١.

ومن عادات أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة فى المأكل والمشرب أنهم يقيمون المآدب فى حفلة يسمونها "قيله"، ويتفاخرون بتقديم الكثير من أصناف الطعام المختلفة فى شكلها وطعمها. ويقعد المدعوون فى هذه الولائم على سماط يمد على الأرض، وتقدم لهم ألوان الطعام لوناً بعد الآخر. وبعد إنتهائهم من الطعام، يجلسون للسمر أو لسماع بعض الأغانى وآلات الطرب[١]. وذكر ابن بطوطه أن المكيين كانوا يتناولون طعامهم فى اليوم مرة واحدة بعد العصر، ويقصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل فى سائر النهار أكل التمر[٢].

أما العناية بالمساجد والمنشآت الإجتماعية كالأربطة وغيرها، وتقديم الخدمات الإجتماعية فى الحجاز فى العصر الفاطمى، فقد قام بها الخلفاء والسلاطين والأمراء والأثرياء فى بلاد الدولة الإسلامية من باب القربى إلى الله وعمل الخير.

وسبقت الإشارة إلى ما قام به الوزير الحسين بن سلامة المتوفى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م، وهو وزير الدولة الزيادية فى اليمن من إهتمام كبير بطريق الحج اليمنى، وما أنشأه من جوامع ومنارات، وما حفره من آبار ومصانع للمياة والجهود التى قام بها لإيصال الماء إلى جبل الرحمة وغير ذلك من الأعمال الجليلة[٣].

وأمدتنا المصادر التاريخية بمعلومات لا بأس بها تفيد بأن العباسيين والفاطميين قد إهتموا بإصلاح كثير من الخراب فى المسجد الحرام، وخاصة أن المنافسة كانت قائمة بين الخلافتين العباسية والفاطمية لتحقيق السيادة الأسمية بطريقة أو أخرى.

---

[١] البتنونى: الرحلة، ص٤٩، على بن الحسين: العلاقات الحجازية، ص٢١١.
[٢] ابن بطوطة : الرحلة، ص١٤٥.
[٣] ابن بطوطة : الرحلة، ص ١٤٥.

ففى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م - على سبيل المثال - قدم إلى مكة المكرمة الرئيس الأجل السيد فخر الرؤساء مغيث الحرم أبو النصر إبراهيم بن محمد بن على الاستربادى، حيث عمل بمكة بعض الأعمال الجليلة. فقد قام بتعمير مسجد السيدة عائشة رضى الله عنها بالتنعيم، وأسمه مكتوب بذلك على حجر بجوار المسجد الشامى[١]. كذلك صادف فى المسجد الحرام مواضع قد تهدمت، فأطلق ثلاثين ألف دينار أنفق بعضها فى تعميرها، وأخذ الباقى الأمير محمد بن أبى هاشم، وأجرى الماء من عرفات إلى مكة فى قناة كانت عملتها زبيدة زوجة هارون الرشيد، ووجد البيت عرياناً منذ سنتين فكساه ثياباً بيضاء من عمل الهند كانت معه. وفضض الميزاب، وقال: "لو علمت أنى إذا عملته ذهباً سلم لعملته". وتصدق فى الحرمين بالمال الجزيل، وأعطى فقراء مكة والمدينة جرايه مدة سنة[٢].

وفى سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أرسل محمد بن محمد بن جهير إلى مكة المكرمة من بغداد منبراً كبيراً منقوشاً عليه بالذهب لا إله إلا الله محمد رسول الله الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين، مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جهير[٣]. ومن أعمال الخير التى قام بها نظام الملك[٤] وزير

---

[١] النص المكتوب فى الحجر من البسملة: "أمر بعمارة مسجد عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها بأمر الرئيس الأجل السيد فخر الرؤساء مغيث الحرمين أبو النصر إبراهيم بن محمد بن على فى شهر رجب، منها عنه وعن أخيه ذى المحاسن ابى مسعود على بن محمد بن على تقبل الله عملهما، وبلغهما فى الدارين أملهما وشكر سعيهما، ولا قطع فى الحرمين أثرهما. أنظر الفاسى: العقد الفريد، جـ٣، ص٢٦١-٢٦٢. ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص ٤٧٥، ٤٧٦.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٦٦هـ، السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٧-٢٦٨

[٣] ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٧٨-٤٧٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٣١٩-٣٢٠، ابن خلدون: تاريخ، جـ٣، ص١٠٢.

[٤] نظام الملك: هو أبو على الحسن بن على بن إسحاق الطوسى المعروف بنظام الملك ولد فى طوس سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م. طلب أبو على الحسن العلم فى نيسابور، فتعلم العربية، وحفظ القرآن الكريم، ثم دخل فى خدمة السلاحقة. ولما آلت سلطنة السلاجقة إلى ألب أرسلان بعد موت طغر لبك سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م أصبح نظام الملك وزيراً =

السلطان السلجوقى ملكشاه بطريق مكة المكرمة أنه أنشأ فى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م مصانع أى صهاريج للماء. وقد قام رامشت فى تقديم الخدمات الإجتماعية للكعبة المشرفة فقام سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م بعمل ميازيب للكعبة. وفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م جدد الجواد الأصفهانى وزير عماد الدين زنكى صاحب الموصل سوراً محكماً حول المسجد النبوى[١]. وقد كان للوزير الزنكى الجواد الأصفهانى مآثرة الحسنة بالنسبة للحرم الشريف وغيره، فنجد أنه قد

= للسلطان ألب أرسلان. وصحب نظام الملك السلطان ألب أرسلان فى معظم غزواته، وقام وحده بأعمال حربية جعلت السلطان يعتمد عليه إعتماداً كبيراً. وعندما قتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م وخلفه ابنه ملكشاه وهو فى الثامنة عشرة من عمره أصبح نظام الملك الحاكم الفعلى لدولة السلاجقة فقام بإصلاحات كثيرة منها: شق الأنهار وتعمير القرى والنواحى وأقطع الإقطاعات لأمراء الجيش، وأصلح حال التجار، وقرب إلى مجلسه رجال الدين والعلماء. وحارب نظام الملك الباطنية حرباً لا هوادة فيها، وأنشأ مدرسة ببغداد سماها باسمه [المدرسة النظامية] ليتخرج منها رجالا يستطيعون أن يدافعوا عن المذهب السنى ويقارعوا الباطنية الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وسرعان ما إنتشرت المدارس النظامية فى أمهات المدن والأمصار. وكتب نظام الملك كتاب سياست نامه أى كتاب السياسة تلبية لرغبة السلطان ملكشاه لتنظيم أمور الدولة السلجوقية، التى وصلت إلى درجة كبيرة من الإزدهار والتوسع. وحين بلغ ملكشاه الخامسة والعشرين من عمره، أراد أن يثبت وجوده، فأخذ يخالف وزيره نظام الملك، ولا يعمل بنصحه، وتبدلت العلاقة بين السلطان ونظام الملك فى أواخر أيامه. وإنتهت حياة الوزير نظام الملك بمقتله فى العاشر من رمضان ٤٨٥هـ/١٤ أكتوبر ١٠٩٢م. وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى أسباب قتله. وتوفى السلطان ملكشاه بعد مقتل نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً، وإنتهى بموتهما العصر الذهبى للدولة السلجوقية، وبدأ عهد جديد من الضعف والإنقسام والنزاع بين أفراد البيت السلجوقى. أنظر: نظام الملك: سياست نامه، ترجمة وتعليق/ السيد محمد الغزاوى، القاهرة ١٩٧٦، ص ٦-٩، [مقدمة الترجمة]: محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول، ص١٤٥-١٥٩، ٢٥١-٢٥٤.

[١] إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ص ٤١٠، لم تذكر المصادر التاريخية المتداولة شيئاً عن شخصية رامشت، وفى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م أرسل الخليفة العباسى المقتفى ميزابا للكعبة بدلا من الميزاب السابق، إعتقاداً أنه أحق بهذا العمل. أنظر ابراهيم رفعت نفس المرجع والصفحة.

أرسل خمسة آلاف دينار عملت بها صفائح الذهب والفضة داخل الكعبة وأركانها[١]. كما قام بتجديد باب الكعبة وتحليته بالفضة وطلائه بالذهب، وكتب عليه اسم الخليفة المقتفى بأمر الله أبى عبد الله[٢]. وقام الوزير الأصفهانى أيضاً بعمارة منارة العمرة، وجلب الماء إلى عرفات، وأتفق مع القبائل العربية فى تلك الناحية بعدم نهب هذه المياة مقابل أموال أعطاها لهم حتى لا يعتدوا على المياة بعرفات[٣].

ولاشك أن هذه الخدمات الإجتماعية كانت بمثابة الفرج بعد الشدة لسكان مكة المكرمة والمدينة المنورة، وخففت معاناة جموع الحجاج وبخاصة فى أوقات المحن والفتن، التى حفل بها تاريخ هاتين المدينتين خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة.

---

[١] النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، ص ١٧٦، ١٧٧، الفاسى: تحفة الكرام، ورقة ٢٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٤-٥١٦، ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ص٢٧٨.

[٢] النويرى: نهاية الأرب/ج٢٧، ص ١٧٦-١٧٧، العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٥٠هـ، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٤-٥١٦، ذو النون المصرى: عمارة اليمنى، ص٤٦.

[٣] ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥١٨، النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٧، ص١٧٦-١٧٧.

الفصل السادس

الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة

* دور الحرمين الشريفين فى إزدهار الحياة العلمية والثقافية
* حلقات التدريس فى الحرمين الشريفين
* دور أئمة الحرم المكى
* دور القضاة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة.
* العلماء والفقهاء والمجاورين وأثرهم فى الحياة العلمية والثقافية
* أبرز علماء وأدباء مكة والمدينة ونشاطهم العلمى والثقافى

كانت المدينتان المقدستان مكة المكرمة والمدينة المنورة مركزين هامين من مراكز العلم والثقافة فى الدول الإسلامية. وبعد فتح مكة المكرمة عين الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ بن جبل ليعلم الناس دينهم الجديد، وأصبح بذلك المسجد الحرام يزدحم برجال الحديث والقراء[١]. وكلما مرت السنون إزداد الناس إقبالا على العلم فى المسجد الحرام، لذلك نجد أن كثيراً من العلماء وصلوا إلى مكة - خاصة فى عصر بنى أمية - لبعدها عن الفتن السياسية. واستمرت مكة المكرمة كما كانت فى عهد الأمويين مركزاً هاماً للعلم والثقافة فى أيام الخلافة العباسية، وظل العلماء يتلقون العلم طبقة عن طبقة، حتى حفل المسجد الحرام بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة. وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس، يلقى الدرس وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون.

وبحلول القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، بدأ ضعف النشاط العلمى بمكة واضحاً، نظراً لكثرة من رحل من علمائها إلى سائر الأقطار الإسلامية لنشر العلم ورواية الحديث. وإستمر هذا الضعف فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/ العاشر والثانى عشر الميلاديين[٢].

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً من أمراء مكة لقاء الدروس التى يقومون بتدريسها فى المسجد الحرام، وكذلك فإنهم كانوا لا يأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة، لأن تعليمهم كان لله وفى سبيل الله. يضاف إلى ذلك أنه لم تقتصر فائدة الدروس التى كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه الحلقات التى كانت تعقد داخل المسجد الحرام علماء من شتى أنحاء ديار المسلمين[٣]. وكانت هناك بيوت مشهورة فى مكة المكرمة تخصص

---

[١] عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ص٣٨.
[٢] أحمد السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢١٧.
[٣] عبد الرحمن عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ص٤١.

بعض أبنائها فى طلب العلم، وتوارثوا ذلك كما تتوارث خطب الجمعة والإمامة فى المسجد الحرام. ومن أشهر هذه البيوت فى أواخر العهد الفاطمى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى بيت الطبرى[١].

والطبريون ينسبوون إلى قريش، وقد هاجر أجدادهم فى غمرة من هاجر فى العصر العباسى، ثم ما لبث الأحفاد أن عادوا إلى مكة فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. وأول من قدم منهم فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى رضى الدين بن أبى بكر. ظل أحفاد هذا البيت يخدمون العلم فى مكة إلى أن أنقرضوا فى القرن الثانى عشر الهجرى، بعد ماظلوا رواد علم وعمالقة تعليم طيلة ستة قرون متتالية[٢].

وقد رأى ابن جبير حينما زار مكة المكرمة فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى حلقات المدرسين التى كانت تعقد فى الحرم المكى فى هذه الفترة وعبر عن كثرتها بقوله: "والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم ..."[٣].

ومن الثابت أنه كان يتخرج من الحرمين الشريفين الألوف فى كل عام ومنه: فى التفسير: والحديث، والفقه، والأصول واللغة، وعلم القراءات وعلوم اللغة، وشتى ألوان المعرفة والعلوم. وتجدر الإشارة إلى أن حلقات العلم فى الحرمين الشريفين لم تكن تقتصر على المدرس، بل كان يتم فيها مناظرة العلماء، من المجاورين والوافدين عليهم من شتى أقطار العالم الإسلامى وهكذا كانت تعقد فى الحرمين المكى والمدنى فى أوقات موسم الحج حلقات مختلفة من جميع العلوم الفقهية والعقلية ومختلف المعارف[٤].

[١] أحمد السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢١٧.

[٢] عبد الله مرداد أبو الخير: المختصر من كتاب نشر النور والزهر، جـ١، ص - ك - ل - م - ن

[٣] ابن جبير:الرحلة، ص٦٠، أنظر أيضاً: سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١٨٦-١٨٧
Abdullatif: Dohaish, History of Education, p. 33.

[٤] سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١٨٩.

وعرفت حصوات المسجد الحرام والمسجد النبوى حلقات العلم، حيث كانت تعقد فى الجزء المكشوف أو فى الأروقة. قد كان القرآن الكريم هو المنبع والمصدر الأساسى للنشاط العلمى والثقافى فى المجالات الأخرى، كما كان الحديث النبوى الشريف يقوم فى المقام الثانى بعد القرآن الكريم، حيث يعتبران مصدران هامان لما ظهر من العلوم[١] والفنون. وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة فى حلقات الحرم المكى والحرم النبوى الشريف لم تنهج منهجاً مقرراً أو محدداً، فالمدرس هو الذى يقرر ما يريد تدريسه لطلابه. وهو الذى يختار المنهج الملائم لهم. والدرس يعقد يومياً من قبل هذا الشيخ فى الحرم، وتضم الحلقات الجميع بلا تفرقة، جاعلا البساطة والتواضع الواجب الأساسى تجاه طلبته. وكان لكل مذهب من المذاهب ركن خاص به فى المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف[٢].

أما دور الكتاتيب فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة فى العصر الفاطمى، فمن المعروف أن الكتاب ظهر كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامى، لتقوم بتربية صغار المتعلمين، وسمى الكتاب بهذا الاسم نظراً لأن الطفل كان يتعلم فيه الكتابة، ثم أستخدم هذا الاسم بحيث أصبح يشمل كل مؤسسة تعليمية تعنى بتربية الصغار، حتى ولو لم تكن القراءة والكتابة مادتها الدراسية الوحيدة. وأطلق هذا الاسم على مؤسسات تعليمية كان همها الأول تعليم الطفل وتحفيظه القرآن الكريم[٣].

---

[١] أنظر: محمد حسين يوسف: رسالة المسجد فى العالم عبر التاريخ [بحوث مؤتمر رسالة المسجد، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م] ص ٤٦٦، منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين، ص٥٠-٥١.

[٢] أنظر سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص ١٨٧-١٨٨.

[٣] عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم، ص٤٩-٥٠، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص١٣٠، وأنظر أيضاً Abdullatif Dohaish, Op. Cit, pp. 19-20

ولقد وجد الكتاب جنباً إلى جنب مع المسجد، ليسهم فى نشر العلم والمعرفة. وكان الكتاب يتخذ من المسجد مقراً له فى بعض الأحيان، وينطبق هذا القول على الكتاتيب فى مكة المكرمة خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة، إذ أن بعض معلمى الأطفال كانوا يقومون بتأدية رسالاتهم العلمية فى المسجد الحرام[١]. قد كان منهج الكتاب يتركز فى تعليم مبادىء القراءة والكتابة والقرآن، ومع القراءة والكتابة كان التلاميذ يتعلمون قواعد اللغة العربية وقصص الأنبياء، وخاصة أحاديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم[٢].

وفى المسجد تعقد حلقات مختلفة من الدروس وكان المتعلم حراً فى أن يذهب إلى أى حلقة من الحلقات، وإلى أى شيخ من الشيوخ فإذا أتم علم شيخ، انتقل إلى علم شيخ آخر وهكذا، ويرجع سبب ذلك إلى أن التعليم كان حراً يعتمد على ما يمنحه الخلفاء والأمراء والأغنياء لمن اتصل بهم من العلماء، لم تكن هناك أيضاً درجات علمية يمنحها من أتم الدراسة بعد امتحان، إنما كان الامتحان امتحان الرأى المحيط به من علماء ومتعلمين، فمن آنس من نفسه القدرة على أن يجلس مجلس المعلم جلس وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم[٣].

أما عن المدارس فى مكة والمدينة فى العصر الفاطمى. فقد قامت المدارس - فى المجتمعات الإسلامية - إلى جانب المسجد والكتاب، تسهم فى تربية وتعليم المسلمين، ويربط المؤرخون بين الوزير السلجوقى نظام الملك وبين نشأة المدارس فى الإسلام، رغم أن بعض المدارس وجدت قبل نظام الملك.

---

[١] عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ص٥٢، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص١٠٣. وأنظر أيضاً: Abdullatif Dohaish: Op. Cit, p.20

[٢] أحمد شلبى: التربية الإسلامية، ص٤٦، عن دور الكتاتيب فى الحياة العلمية والثقافية فى بلاد الحجاز، أنظر سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١٩٨-١٩٩.

[٣] أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٣، ص٦٧-٦٨.

وقد عرفت هذه المدارس باسم المدارس النظامية. ولعل سبب شهرة نظام الملك ومدارسه، كونه أول من جعل التعليم مجانياً، وفرض الطلاب الأرزاق والأموال[١]. وإذا كانت المدارس فى العواصم والمدن الإسلامية قد بدأت فى التطور فى منتصف القرن الخامس الهجرى/منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، فإن ظهورها فى مكة المكرمة لم يبدأ إلا فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى[٢].

أما عن دور أئمة الحرم المكى والمدنى فى الحياة العلمية والثقافية فقد كان دوراً كبيراً. وأشتهر معظمهم بالعلم، وصنفوا مؤلفات وتصنيفات كثيرة. وتعلم على أيديهم آلاف من طلاب العلم، الذين لعبوا دوراً هاماً فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة خلال الفترة التاريخية موضوع الرسالة. ومن أهمهم:-

- إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى ولد سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م وتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. ويعتبر الجوينى إمام العلماء فى وقته، وكتب عدة مصنفات منها [نهاية المطلب فى دراسة المذهب]. سافر إلى بغداد، ثم عاد إلى الحجاز، وأقام بمكة المكرمة والمدينة المنورة أربع سنين يدرس ويفتى ويصنف، وأم بالناس فى الحرمين الشريفين فسمى بذلك إمام الحرمين، ثم رجع إلى نيسابور، وجعل إليه الخطابة ومجلس الذكر والتدريس وبقى على ذلك ثلاثين سنة[٣].

---

[١] عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ص ٥٩، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص ١٠٣، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص١٨٩-١٩٠. وعن نظام الملك، أنظر ما سبق، ص١٧٥، حاشية[٤].

[٢] عبد الرحمن صالح عبد الله: تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ص٥٩، عائشة باقاسى: بلاد الحجاز، ص ١٠٤.

[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص١٨، أبو الفدا: المختصر، جـ٢، ص١٩٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٢٨، الفاسى: العقد، جـ٥،ص٥٠٧-٥٠٨، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص ٣٥٨-٣٥٩.

- الجمال أبو عبد الله بن عبد الله بن الفتوح المكناسى المالكى ولى فى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م إمامة مقام المالكية بالمسجد الحرام. وأوقف الجمال المكناسى كتاب المغرب لابن أبى زمنين المالكى ستة مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة، وجعل مقره بخزانة المالكية بمكة[١].

- أبو بكر محمد بن عمر بن عثمان بن عبد العزيز بن طاهر البخارى الحنفى إمام الحنفية بالحرم الشريف. جاور بمكة سنين، وكان إماماً لأصحاب أبى حنيفة بالمسجد الحرام، وكان شيخاً فاضلا صالحاً متديناً مكثراً من الحديث توفى سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م[٢].

- أبو الحسن رزين بن معاوية بن عمار العبدرى الأندلسى السرقسطى إمام المالكية بالحرم. سمع بمكة من ابن مكتوم بن أبى ذر الهروى كتاب صحيح البخارى، ومن الحسين بن على الطبرى صحيح مسلم وحدث. كان إمام المالكية فى الحرم. وله مصنفات منها: كتاب جمع فيه ما فى الصحاح الخمسة والموطأ. ومنها: كتاب فى أخبار مكة، وتوفى سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م[٣].

- سعيد بن أحمد الأنصارى الحنفى إمام الحنفية بالمسجد الحرام. كان ممن شهد على رامشت لوقفه رباطه بمكة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م[٤].

- برهان الدين البلخى الزاهد الحنفى قدم دمشق سنة بضع عشر وخمسمائة

---

[١] ابن فهد: اتحاف الورى، جـ٢، ص٤٨٧-٤٨٨.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٢٥هـ. الفاسى: العقد، جـ٢، ص٢٢٦-٢٢٧.

[٣] الذهبى: تاريخ الإسلام، ورقة ٣٠، الفاسى: العقد، جـ٤، ص٣٩٨-٣٩٩، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢،ص٥٠٢-٥٠٤.

[٤] الفاسى: العقد، جـ٤، ص٥٤٩.

فنزل بالمدرسة الصادرية بباب البريد، ومدرسها يومئذ أبو على بن مكى الكاسانى. فعقد لهما مجلس مناظرة، وجلس برهان الحديث للوعظ، وكان عنده صدق، فوقع له القبول فى قلوب الناس، فحسده الكاسانى وتعصب عليه الحنابلة لأنه أظهر خلافهم، فعزل نفسه عن المقام بدمشق، ومضى إلى مكة وجاور بها. وفى مكة أصبح برهان الدين البلخى إمام الحنفية فى المسجد الحرام، وحاز على شهرة كبيرة. ثم ندم الكاسانى على خروج برهان الدين البلخى من دمشق فكاتبه بالعودة إليها. فخرج من مكة وجعل طريقه على بغداد، فلما وصل دمشق سلم إليه الكاسانى المدرسة الصادرية عن تراضى منه. وظل برهان الدين البلخى يدرس فى دمشق حتى وفاته سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م[١].

- أبو بكر بن أبى الحسن الطوسى إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة، شهد على رامشت بوقفه لرباطه بمكة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م. توفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[٢].

- أبو محمد مبارك بن على بن الحسن بن عبد الله بن محمد البغدادى المعروف بابن الطباخ الحنبلى إمام الحنابلة بالمسجد الحرام. سمع كتاب [دلائل النبوة للبيهقى]. كان يؤم الناس بحطيم الحنابلة. وتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٣].

ولعب القضاة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة دوراً هاماً لا يقل عن أهمية أئمة الحرمين الشريفين فى الحياة العلمية والثقافية فى الحجاز،

---

[١] العينى: حوادث سنة ٥٤٨هـ.

[٢] الفاسى: العقد، جـ٨، ص١٢ ولم تذكر المصادر المتداولة شيئاً عن شخصية رامشت.

[٣] المصدر السابق، جـ٧، ص١١٩-١٢٠.

ونظراً لأهمية مكة المكرمة والمدينة المنورة فكان للقاضي مكانة عظيمة في بلاد الحجاز، حيث كان بمثابة نائب أمير مكة المكرمة أو المدينة المنورة، فوظيفة القاضي الثانية بعد الأمير خلال الفترة التاريخية موضوع الدراسة[١].

والقضاة الذين تولوا القضاء بمكة المكرمة والمدينة المنورة منهم من أهل المدينتين الذين كان لهم دور هام في محيط القضاء والفتيا، ومنهم من قدم إلى مكة، نظراً لما عرفوا به من العلم والأدب والفقه. وتولى هؤلاء القضاة منصب القضاء لمدد محدودة، ثم عادوا إلى بلادهم، وهم المجاورون الذين وفدوا إلى بلاد الحجاز، واستقروا بها حيناً من الزمن ومن أشهر القضاة:

- أحمد بن أبي الحسين النيسابوري قاضي الحرمين، وشيخ الحنفية في عصره. ولي قضاء الحجاز مدة، ثم رحل نيسابور وتولى قضاءها سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م[٢].

- يحيى بن عبد الرحمن القرشي الزهري ولي قضاء مكة للمقتدر، وكان محموداً في ولايته، من أهل الحزم والنفاذ في الأمور كلها، وكانت له ضياع وتوفي سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م[٣].

- قاضي الحرمين أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد فوض له المعز لدين الله الفاطمي القضاء مستقلا سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م وكان في سجله القضاء بالديار المصرية والشامية والمغرب وجميع مملكة المعز، والخطابة

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٨٤.
[٢] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ورقة ٧-٨.
[٣] الفاسي: العقد، جـ٧، ص٤٣٨-٤٣٩.

والإمامة والعيار فى الذهب والفضة والموازين والمكاييل. ولم يزل مستمراً على أحكامه عند الخليفة العزيز بن المعز إلى أن توفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م[١].

- عبد الملك بن أبى مسلم بن أبى نصر النهاوندى قاضى مكة وإمام مقام ابراهيم، توفى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م[٢].

- أبو إسحاق إبراهيم بن على بن الحسين الشيبانى الطبرى المكى قاضى مكة المكرمة. وكان فقيهاً فاضلا عارفاً بالمذهب والفرائض، وله تصانيف فى ذلك وله دراية بعلم التفسير والحديث. ولى قضاء مكة سنين طويلة. وقد ولد سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م[٣].

- أبو المظفر طاهر بن محمد بن طاهر بن سعيد الفقيه قاضى مكة. تفقه عن الشيخ أبى إسحاق الشيرازى، ثم إنتقل إلى مكة وسكنها، وولى قضاءها أقام بها إلى حين وفاته سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م. وكان فاضلا عالماً بالحديث والأدب والنحو والشعر[٤].

- قاضى الحرمين أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن الحسين بن على بن الحسين الشيبانى الطبرى المكى. حدث بكتاب عن فضائل مكة. وقد توفى سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م[٥].

---

[١] الفاسى: العقد، جـ٧، ص٢٧٢-٢٧٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٤١٨.
[٢] الفاسى: العقد، جـ٥، ص٥١٦.
[٣] المصدر السابق، جـ٣، ص٢٣٣-٢٣٤، ابن فهد: إتحاف الورى، جـ٢، ص٥٠١.
[٤] الفاسى: العقد، جـ٥، ص٥٩-٦٠.
[٥] الفاسى: العقد، جـ٥، ص٣٩٢-٣٩٣.

- أحمد بن عبد الرحمن بن على بن الحسن الشيبانى الطبرى قاضى الحرمين توفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م[١].

- القاضى عز الدين أبو المعالى يحيى بن عبد الرحمن بن على بن الحسين الشيبانى الطبرى المكى قاضى مكة. ذكر الفاسى أنه لم يعرف له بدء ولاية القضاء ولا نهايتها، غير إنه يذكر أنه تولى قضاء مكة المكرمة فى آخر الدولة الفاطمية وبداية العصر الأيوبى[٢].

ولعب العلماء والفقهاء والمجاورون دوراً هاماً فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة، فقد كان لهم نشاطهم الملحوظ فى هذه الفترة التاريخية، فمنهم من كان يجمع بين العلوم جميعها، ومنهم من كان يجمع بين علم الحديث والأدب إلى غير ذلك. حتى إن ابن النجار ذكر فى كتابه الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، أن لأهل المدينة المنورة "أخبار مستحسنة من الكتب وأشعار رائقة"[٣] ومن أبرز علماء مكة والمدينة:

- أبو الفضل جعفر بن يحيى بن ابراهيم التميمى المعروف بابن الحكاك، كان موصوفاً بالمعرفة والحفظ والإتقان، وكانت مهمته بين أمير مكة المكرمة والفاطميين قبض الأموال وحمل كسوة الكعبة المشرفة. توفى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٤].

---

[١] الفاسى: العقد، جـ٣، ص٧٧، اتحاف الورى، جـ٢، ص٥٢٥-٥٢٦.
[٢] الفاسى: العقد، جـ٧، ص٤٣٨-٤٣٩.
[٣] أنظر: ابن النجار: الدرة الثمينة، ص٣٣٩.
[٤] الفاسى: العقد، جـ٣، ص٤٣٣.

- أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الحنفى المعروف بالزمخشرى الملقب جار الله لطول إقامته بمكة المكرمة، وكان إمام عصره. وهو من أشهر علماء التفسير، وصاحب كتاب تفسير الكشاف وغير ذلك من المؤلفات فى أصول العلم الدالة على وقور فضله، وقام بتدريس كتابه فى التفسير فى مكة، وكان يعتز بآراء قاضى مكة أبى المعالى يحيى بن عبد الرحمن الشيبانى. توجه إلى الحجاز سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م. فأقام هناك مدة مجاوراً بمكة، يفيد ويستفيد، توفى ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م[١].

أما عن الفقهاء فقد كان معظمهم من المجاورين الذين وفدوا إلى بلاد الحجاز، وأستقروا فى إحدى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد برع كثير منهم فى علوم الفقه، والبعض الآخر جمع بين الفقه والحديث ومن أشهرهم:

- أبو عبد الله الوراق الحنبلى، كان مدرس الحنابلة وفقيههم فى زمانه، له المصنفات الكبار منها كتاب الجامع اشتمل على إختلاف الفقهاء، وله مصنفات فى أصول الدين والفقه. وكان ينسخ الكتب بأجر وينفق من ذلك، توفى فى مكة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م[٢].

- الإمام أبو الفتوح يحيى بن عيسى بن إسماعيل اليمنى الفقيه الشافعى ارتحل إلى مكة مجاوراً، وشرح كتاب مختصر المزنى. وذكر فى أوله: أنه شرحه بمكة المشرفة فى أربع سنين مقابلا للكعبة الشريفة، وكان من أعيان الفقهاء، وأكابر الفضلاء. توفى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م[٣].

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٥٣٨هـ، الفاسى: العقد: جـ٧، ص١٣٧-١٤٨، سليمان مالكى، بلاد الحجاز، ص٢٠٦.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٠٣هـ.

[٣] الفاسى: العقد، جـ٦، ص٢٤٤-٢٤٥.

- هياج بن الحسين أبو محمد الحطينى الشامى نسبة إلى حطين قرب بيسان بالأردن. سمع هياج الحديث من جماعة كثيرة وتفقه، وكان فقيه الحرم فى عصره ومفتى أهل مكة. وكان زاهداً ورعاً متنسكاً مجتهداً فى العبادة كثير الصوم والصلاة، وكان يذكر عدة دروس لأصحابه كل يوم. وكان إذا دخل الحرم لم يلبس نعلا، ويزور قبر الرسول عليه الصلاة والسلام مع أهل مكة كل سنة ماشياً حافياً، ولا يدخر شيئاً، ولا يلبس غير ثوب. وفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م. وقعت بين أهل السنة والشيعة فتنة، فاتفق أن بعض الروافض شكا إلى أمير مكة محمد بن أبى هاشم قائلا: "إن أهل السنة ينالون منا ويبغضوننا" فأخذ أمير مكة هياجاً فضربه ضرباً شديداً، فحمل إلى زاويته، فبقى أياماً ومات فى تلك السنة وقد نيف على الثمانين[١].

- سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب النجبى الأندلسى الباجى الفقيه المالكى أحد الحفاظ الكثيرين فى الفقه والحديث. سمع الحديث، ورحل فى طلبه إلى بلاد الشرق سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م فسمع هناك الكثير، واجتمع بأئمة ذلك الوقت كالقاضى ابن الطيب الطبرى، وأبى إسحاق الشيرازى وجاور بمكة ثلاث سنين مع الشيخ أبى ذر الهروى[٢].

- عبد الملك بن محمد بن ميسرة أبو الوليد اليافعى، كان فقيهاً عالماً ثبتا فى النقل، رحالا فى طلب العلم، عارفاً بطرق الحديث ورواته، لذلك كان يعرف بالشيخ الحافظ. حج سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م. فأدرك بمكة الشيخ العارف سعد الزنجانى، فأخذ عنه. ثم عاد إلى اليمن وتوفى سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م[٣].

---

[١] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٧٢هـ، الذهبى: تاريخ الإسلام، جـ٢، ص٥، ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص٣٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٢٠، ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٥، ص١٠٩، الفاسى: العقد، جـ٧، ص٣٨٠-٣٨١، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٣٤٢-٣٤٣.

[٢] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٤٧٤هـ، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٢٢.

[٣] الفاسى: العقد، جـ٥، ص ٥١٤-٥١٥.

ومن أشهر العلماء الذين برزوا فى علوم الحديث بالإضافة إلى نشاطهم فى علوم أخرى مثل الفقه وغيره. وكانت لهم أهمية كبيرة فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين العاشر والثانى عشر الميلاديين.

- أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشير العبدى الأعرابى البصرى، نزيل مكة وشيخها، حدث عن أبى داود السجستانى بكتاب السنن، وكان فى وقته شيخ الحرم. صنف أبو سعيد أحمد للقوم كتباً كثيرة، وصحب الجنيد وعمر المكى والنورى، وكان من جملة مشايخهم وعلمائهم. ومات بمكة سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م[١].

- المقرىء أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عيد اليقطينى. حدث عن محمد بن إسحاق الثقفى وجماعة، وكان ذا ثقة، توفى بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م[٢].

- أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله الزاهر المروزى الشافعى، حدث بالعراق ودمشق ومكة المكرمة. وكان من أشهر علماء الحديث وجاور فى مكة المكرمة سبع سنوات وتوفى سنة ٣٧١هـ/٩٨١م[٣].

- محمد بن يوسف بن محمد بن جنيد الجرجانى. انتقل إلى مكة المكرمة فحدث بها سنين إلى أن توفى بها سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م[٤].

---

[١] الفاسى: العقد، جـ٣، ص١٣٦-١٣٨.
[٢] المصدر السابق: جـ١، ص٣٨٠.
[٣] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٧٦.
[٤] العينى: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٠هـ، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣،ص١٣٤

- أبو أسامه المقرئ، محمد بن أحمد بن محمد بن القاسم الهروى. أقام بمكة يقرأ القرآن الكريم ويملي الحديث، توفى سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م[١].

- كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم أم الكرام المروزيه. جاورت بمكة، وروت الأحاديث الصحيحة، ووكانت تضبط كتابة الحديث، وتقابل بنسخها. اشتهرت بالفهم والنباهة وكانت من الحفاظ[٢].

أما العلماء الذين اشتهروا بالقرآن وعلومه فنذكر منهم على سبيل المثال:-

- ابن عمر بن القاسم أبو على الترس البزاز المعروف بابن عديسة، ولد سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. وكان صدوقاً من أهل القرآن والمعرفة بعلومه، أقام بمكة حيث توفى بها فى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م[٣].

- المقرئ، أبو محشر الطبرى عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى القطان. أقام بمكة، وكتب كتاب التلخيص وغيره. وكان يقوم بالقراءة فى مكة المكرمة حتى وفاته سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[٤].

ولعب المجاورون دوراً هاماً فى الحياة العلمية فى مكة والمدينة. قدموا من مختلف أمصار الدولة الإسلامية إلى مكة للمجاورة، أو لتقديم الصدقات للفقراء فى الحرمين الشريفين. وربما كان بعض هؤلاء المجاورين يأتون إلى مكة لقضاء فترة من عمرهم الزمنى للراحة والصفاء الروحى. وقضوا معظم أعمارهم فى مكة، حتى صاروا طبقة من طبقات المجتمع المكى والمدنى.

---

[١] الفاسى: العقد، جـ١، ص٢٨٢.
[٢] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٣١٤.
[٣] ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨، ص١٣٠.
[٤] ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٣، ص٣٥٨-٣٥٩.

وشجعهم على المجاورة كثرة الأربطة التى شيدت فى مكة والمدينة، كما إن كثرة المدارس النظامية ساعد على إستقرارهم. وتولوا المناصب العلمية فى هذه المدارس العلمية[١]. يضاف إلى ذلك أن الحياة العلمية تميزت فى المدينة المنورة أيضاً بالهدوء تبعاً للحياتين السياسية والاقتصادية. لذلك إقتصرت المدينة على بعض المجاورين الذين أقاموا طويلا، وعاشوا بها كما عاش المجاورون فى مكة المكرمة، وكذلك القضاة الذين تولوا قضاءها، ثم بعض العلماء الذين زاروها بعد زيارة مكة، فأفاد منهم أهل المدينة والطلاب فيها[٢].

ومن أشهر المجاورين الذين لعبوا دوراً هاماً فى الحياة العلمية والثقافية فى مكة المكرمة:-

- أبو ذر الهروى عبد الله بن أحمد بن محمد الحافظ المالكى. سمع الكثير، ورحل إلى الأقاليم، وأقام بمكة المكرمة، يسمع الناس أيام الموسم، وعنه أخذ المغاربة مذهب الإمام مالك. وتوفى سنة ٤٣٤هـ/١٠٤٢م[٣].

- أبو الحسن على بن يوسف بن عبد الله الجوينى المعروف بشيخ الحجاز. جاور مكة، وصنف كتاب السلوة. توفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م[٤].

- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن على النيسابورى من أهل نيسابور. صحب الشيخ عبد الملك الطبرى، ودرس مختصر أبى محمد الجوينى بمكة. توفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م[٥].

---

[١] سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٢٠٨، على بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٩-٢٣١.
[٢] على بن حسين السليمان: نفس المرجع، ص٢٤٠.
[٣] ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص٥٠.
[٤] الفاسى: العقد، جـ٧، ص٢٧٧.
[٥] الفاسى: العقد، جـ٥، ص٣٦٣-٣٦٤.

وحفلت مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين العاشر والثانى عشر الميلاديين بعدد كبير من الأدباء والشعراء، الذين لعبوا دوراً هاماً فى الحياة الثقافية. ومن أشهر الأدباء والشعراء:-

- القاضى البغدادى أبو طاهر الزهلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر، ولى قضاء واسط وبغداد ودمشق ثم الديار المصرية. كان مالكى المذهب فصيحاً مفوهاً شاعراً كبيراً كما ذكر ابن الأثير أنه حج، وجاور سنين ومات بمكة سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م[١].

- أمير مكة شكر بن أبى الفتوح العلوى الحسنى. كان من أشهر شعراء الحجاز فى القرن الخامس الهجرى، وله شعر حسن فى الشجاعة والمواقف الحاسمة والشعور بالكرامة ورفضه الضيم[٢].

- الشاعر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله الأسدى الحجازى من أهل مكة المكرمة ولد بها سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م. نشأ بالحجاز ثم خرج إلى اليمن، ثم توجه إلى العراق، واتصل بخدمة الوزير أبى القاسم المغربى، ثم عاد إلى الحجاز. كان شاعراً أديباً مشهوراً توفى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م[٣].

- أبو الحسن على بن عيسى بن حمزه بن وهاس بن أبى الطيب الشريف السليمانى الحسنى المعروف بابن وهاس. من أهل مكة المكرمة ومن أشرافها من بنى سليمان. وكان ذا فضل كبير غزير، وله تصانيف مفيدة، وقريحة فى النظم

---

[١] ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٩٤.

[٢] ومن شعره:

قوض خيامك عن أرض تضام بهــا ... وجانب الذل إن الذل مجتنــب

وأرحل إذا كان فى الأوطان منقصة ... فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

أنظر السنجارى : منائح الكرم جـ١، ورقة ٢٦٢-٢٦٣، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٨١، سليمان مالكى: بلاد الحجاز، ص٢٢٨.

[٣] ومن شعره:

قلت ثقلت إذا أتيت مــراراً ... قال ثقل كاهلى بالأيدى

قلت: طولت قال: لابل تطولت ... وأبرمت، قال: حبل الودادى

أنظر ابن الجوزى: المنتظم، جـ٩، ص١٥٣، الفاسى: العقد، جـ١، ص٣٩٨.

والنثر مجيدة. قرأ على الزمخشرى حين كان بمكة المكرمة، توفى فى أول ولاية الأمير عيسى بن فليته أمير مكة سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م. وكان الناس يقولون: "ما جمع الله بين ولاية عيسى وبقاء على بن عيسى"[١].

ومن شعره:

أهلا بها من بنات فكرى ... إلى أبى عذرهن جاد

وله رثاء فى الأمير قاسم جد الأمير عيسى بن فليته، منها قوله:

وسائلة عنى: أهل هو كالذى ... عهدنا صروم الحبل ممن يجاذبه

أم ارتجفت منه الليالى وربما ... تقلل من حد اليمانى مضاربة

فقلت لها: إنى لتارك منزل ... إلى حبيب حين يزور جانبه

- أمير مكة قاسم بن محمد بن جعفر[٢]. الذى استمر أميراً عليها إلى أن توفى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م. وكان القاسم هذا أديباً شاعراً، ومن شعره قوله:

قومى إذا خاضوا العجاج حسبتهم ... ليلا ووخلت وجوههم أقمارا

لا يبخلون بزادهم عن جارهم ... عدل الزمان عليهم أو جارا

وإذا الصريخ دعاهم لملمة ... بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

وإذا زناد الحرب أذكت نارها ... قدحوا بأطراف الأسنة نارا[٣]

- عطيه بن على بن عطيه القرشى القيروانى المعروف بابن الأذنان. جاور بمكة سنين مع والده، وكان أديباً شاعراً توفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م[٤].

---

[١] أنظر الفاسى: العقد، جـ٧، ص٢١٧-٢٢١.

[٢] أنظر ما سبق، ص ٧٨.

[٣] السنجارى: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٩-٢٧٠؛ ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص١٩، السباعى: تاريخ مكة، جـ١، ص٢٠٦-٢٠٧.

[٤] الفاسى: العقد، جـ٧، ص١٠٩.

- جار الله الزمخشري، جاور بمكة حتى توفي سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م. وهو من أشهر شعراء الحجاز في القرن السادس الهجري ومن شعره:

خليلي من أعلى تهامة أنجدا أخاً كان غوري الهوى ثم انجدا
أخا لكما أن تسعدا بينا كما أخا لكما حينا تفوز أو تسعدا
أخا زخره كادت سوى ضلوعه إذا استوكنت عينيه أطلالا همدا[١]

هذه لمحة عن الحياة العلمية الثقافية في مكة المدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/العاشر والثاني عشر الميلاديين.

---

[١] السنجاري: منائح الكرم، جـ١، ورقة ٢٦٥-٢٦٦.

الخاتمـــــــــــة

بحمد الله ووتوفيقه انتهى موضوع البحث الذى كان حول دراسة شاملة لأوضاع مكة والمدينة فى الفترة التاريخية الواقعة بين سنتى ٣٥٨هـ/٩٦٨م إلى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. وقد أوضحت الدراسة الكثير من الحقائق أهمها أن أمراء مكة كانوا قبل قيام الدولة الفاطمية فى مصر، يمسكون زمام الحكم فى أيديهم، وكانت سلطة العباسيين عليهم اسمية، ولم يكن للإخشيديين فى مصر والشام نفوذ فعلى على مكة المدينة، اللهم إلا ذكر اسم كافور الإخشيدى من على منابر مكة شأنه فى ذلك شأن العباسيين. وكان أمراء مكة هم أصحاب السيادة الفعلية على مكة المكرمة. ولكن الظروف لم تستقر على حالة احدة، فقد ابتلى المسلمون قبل قيام الدلة الفاطمية بالقرامطة، الذين هاجموا مكة، واستولوا على الحجر الأسود، ولم تستطع الدلة العباسية وقتذاك الوقوف أمامهم ولضعفها وإختلال الأمور - أو استرداد الحجر الأسود رغم المال الذى عرضته عليهم. فى حين أن الدولة الفاطمية تمكنت من التأثير عليهم وإعادته، وكان ذلك سبباً من أسباب تقرب الفاطميين من أمراء مكة والمدينة والفاطميين فى المغرب، حين تدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى الصلح بين بنى الحسن وبنى الحسين. وأتبع هذا اتصال أمير مكة المكرمة بجوهر الصقلى قائد جيش المعز لدين الله الفاطمى بمصر بعد فتحها. وأوضحت الدراسة أن أمراء مكة كانوا يميلون إلى الخلافة الفاطمية أكثر من ميلهم إلى الخلافة العباسية، لأسباب متعددة أهمها: العلاقة المذهبية بين الفاطميين الذين ينتسبون إلى السيدة فاطمة الزهراء، ويحرصون على الأخذ بطابع الحب لآل بيت رسول الله صلى الله عليه سلم، وبين أشراف مكة الذين ينتسبون إلى الحسن السبط بن على بن والمؤن إلى مكة والمدينة، وهو ما لم يكن يقوم به العباسيون.

وألقت الرسالة أضواء جديدة على إنتقال الحكم فى مكة المكرمة من الموسويين والسليمانيين إلى الهواشم الذين استمر حكمهم إلى ما بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م. أما عن المدينة المنورة فقد أوضحت الرسالة كيفية استقلال طاهر بن محمد الحسنى بولاية المدينة المنورة، واستمرار حكمها فى عقبة من بعده، هو ما يبرهن على مدى نجاح سياسة طاهر بن محمد الحسنى فى ولايته للمدينة المنورة.

وبينت الدراسة أن المدينة المنورة لم تتعرض للتقلبات الكثيرة التى تعرضت لها مكة المكرمة فى ذلك الوقت.

أما عن الناحية الاقتصادية فقد أوضحت الرسالة العوامل التى أثرت فى الأحوال الإقتصادية فى مكة والمدينة فى ذلك الوقت.

وبرهنت الدراسة على أن العوامل المناخية والفتن المنازعات وكثرة أو قلة أعداد الحجاج، ومساعدات الفاطميين والعباسيين كان لها أثرها فى الأحوال الاقتصادية فى مكة والمدينة فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/ العاشر والثانى عشر الميلاديين.

وتلهفت الخلافتان العباسية والفاطمية على أن تكون لهما السيادة ولو أسمياً - على مكة المكرمة، لما يعلمونه من أهمية مكانتها الدينية المرموقة فى قلوب المسلمين. وارتباطها بالرسالة الآلهية، لهذا تنافست الخلافتان فى إرسال العطايا والهبات والأموال إلى مكة والمدينة لتحقيق هذا الغرض.

ومن الناحية الإجتماعية ألقت الرسالة أضواء جديدة على طبقة المجاورين الذين وفدوا إلى مكة المكرمة، استقروا فيها رغم المحن والفتن التى كانت تظهر بين الحين الآخر.

ولعب المجاورون دوراً هاماً فى المجتمع المكى، رغم ما عانوه من قلة الزاد وشظف العيش، وذلك لأنهم كانوا يعشقون مجاورة البيت العتيق. وأوضحت الدراسة أن أهل مكة والمدينة لم يتأثروا بالفاطميين من الناحية المذهبية، فقد ظل المكيون والمدنيون على الحنفية الصحيحة والعقيدة الراسخة. وتدلنا هذه الحقيقة على أهمية الدور الكبير الذى قام به فقهاء السنة فى بلاد الحجاز، وأثرهم على عامة الناس، مما جعل آراءهم الفقهية ذات جذور عميقة فى حياة الناس. الأمر الذى لم يكن من السهل على دعاة الدولة الفاطمية بذر بذور الدعوة الشيعية بين أهالى مكة والمدينة، وجعلهم يكتفون

بالدعوة إلى تأييد الدولة الفاطمية من الناحية السياسية فقط، دون الخوض في جدل عقائدي أو مذهبي.

وألقت الدراسة أضواء جديدة على النشاط العمراني، والخدمات الإجتماعية في مكة المدينة. ففي ذلك العصر أقيمت المصانع، والبرك، وتم حفر الآبار، واستغلال عيون المياة. كما أشارت المصادر التاريخية إلى ظهور الأربطة سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م حيث أنشئت في مكة المكرمة والمدينة المنورة، لتأمين السكن والاستقرار لكثير من طلاب العلم. وقد أوقفت على هذه الأربطة أوقاف كثيرة، لضمان تزويد هذه الأربطة بما يحتاجه طلاب العلم وغيرهم.

وألقت الرسالة أيضاً الكثير من الضوء على الحياة العلمية والثقافية في مكة والمدينة في ذلك الوقت، حيث تتبعت الدراسة مراكز التعليم في المدينتين، ابتداء من الحرمين الشريفين إلى الكتاتيب. كذلك أوضحت الدراسة الدور التعليمي والثقافي للقضاة والعلماء، الذين وفدوا على مكة، وقاموا بالتدريس، ونشر العلم رغم الظروف القاسية التي مرت بها بلاد الحجاز في ذلك الوقت.

ملاحق الرسالة

ملاحق الرســـالة

تجدر الإشارة إلى أن معظم ملاحق الرسالة [الملاحق ١-٤] منتقاه من السجلات المستنصريه، والملحق الخامس من كتاب الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة فى العصر المملوكى تأليف ريتشارد مورتيل. وتفسر كلها بعض المعلومات الواردة فى بعض صفحات الرسالة:

المحلق رقم "١":
يلقى الضوء على استقامة أحوال الحرم الشريف فى مكة المكرمة فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، ورغبة الخليفة فى مزيد من العون من على بن محمد الصليحى لضمان الأمن والعمارة فى ذلك المقام الشريف.

الملحق رقم "٢":
وتاريخه ربيع الآخر سنة ٤٥٥هـ هو كتاب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى بشأن عدم الإخلال بشعائر الحرم الشريف.

الملحق رقم "٣":
وتاريخه جمادى الأول سنة ٤٥٦هـ هو كتاب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى يلقى بعض الأضواء على أحوال مكة المكرمة فى تلك السنة.

الملحق رقم "٤":
يحتوى على كتاب الخليفة المستنصر بالله إلى السيدة الحرة فيما يتعلق بشئون الحرمين الشريفين، وحثها على إرسال نفقة عشرة آلاف دينار لتنفق على الحرمين الشريفين.

الملحق رقم "٥":
يحتوى على نسب أشراف مكة المكرمة وبخاصة خلال الفترة التاريخية لموضوع الرسالة.

ملحق رقم [١]

كتاب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى بشأن استقامة أحوال الحرم الشريف فى مكة المكرمة

- بخط اليد الشريفة النبوية:

بسم الله الرحمن الرحيم ... الحمد لله رب العالمين

من عبد الله ووليه: معد أبى تميم، الامام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، ابن الظاهر لا عزازدين الله، أمير المؤمنين، إلى الأمير، الأجل، أمير الأمراء، شرف المعالى، تاج الدولة، سيف الامام، المظفر فى الدين، نظام المؤمنين، على بن محمد الصليحى، نصره الله وأظفره.

سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله «الذى» لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على جده محمد، خاتم النبيين وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليماً.

أما بعد: فالحمد لله الذى من ابداعه كل اسم ومسمى، المرفوعه سماء كبريائه عن أن يكون للأوهام إليها مسمى، الناظم لأمير المؤمنين فى مسلك أهل الذكر من أبنائه الطاهرين - عليهم السلام - نظماً، وهو الذكر الذى قال فيه، سبغت منه سبحانه على عباده النعمى: «من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامه أعمى».

يحمده أمير المؤمنين على متوالى آلائه حمداً حماً، ويسأله أن يصلى على محمد جده خير من أوتى رسالة وعزماً، وأولى جلاله وحكماً وعلى أبيه على بن أبى طالب، الفاصم عرى الكفر ببأسه فصماً، القاصم ظهره بحسامه قصماً،

المرسل من كنانة الله سبحانه على أعدائه سهماً، المحارب لرسول الله من كان له حرباً، والمسالم من كان له سلماً، وعلى الأئمة من ذريته من ختم الله تعالى به النبيين ختماً، وحتم فرض مودته على الأنام حتماً، وجعل بين المقتبسين لأنوار هدايتهم وبين ظلم الظلال ردماً.

وأنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الوارد على أيدى رسلك - أسعد ابن عبد الله، وعبد الله بن على، ومحمد بن عصيه، ومنصور بن حميد، وموسى ابن أبى حذيفه، وابراهيم بن أبى سلمه - دالا على مقامات خدمتك، التى جرد الله فيها سيف نصره، وأسعدك فى جميعها سعادة من وفقه بطاعة ولى دهره، وأمده بدعاء امام عصره، ومتضمناً الشكر لإمامك على عنايته التى جعلت شمس ميامنك من سمائها بازغة وحجة ظهورك على أعدائك بالغة، ووقف عليه أمير المؤمنين وقوف العارف بكونك فى نهار خدمته سارباً، ومن مشارب الإخلاص فى طاعته مشارباً، وبسيف الإنتماء إلى دولته ضارباً، والله تعالى يدرعك من حسن كفاءته درعاً حصيناً، ويفتح لأمير المؤمنين بك وعلى يديك فتحاً مبيناً، وأمير المؤمنين يرى لأمثالك ممن تميز بحسن اعتقاده، وجاهد حق جهاده، أن يقبل عليهم بوجه اكرامه، ويذلل لهم قطوف ثمر أنعامه، على كون جزيل ما يولى، بالنسبة إلى ما أعده الله تعالى لهم من ثواب الآخرة قليلا، يقول الله تعالى ومن أصدق منه قيلا: «والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» ومن أجل ذلك رأى - وبالله توفيقه - أن يستأنف تشريفك من خلعه، وخاص ملابسه، بما يخلع به الزمان عليك ثوب بهائه فتختط معه من المجد فى أفخر ردائه، ويزيد فى ألقابك وسماتك ما يلوح فجوه من صدر سجل أمير المؤمنين وعنوانه، ويبقى فخره على الدهر بتعاقب أزمانه، ويتوخى بتجدد التشريف والتلقيب أولادك، ويبلغك من التنويه بذكرهم مرادك، فزاد فى لقب أكبرهم، منتجب الدولة وصفوتها، ذا المجدين، وفى لقب الأوسط، منجب الدولة وغرسها، ذا السيفين، وفى لقب الأصغر، نجيب الدولة وصنيعتها، ذا الفضلين، فصار نجيب الدولة وصنيعتها، ذو الفضلين، نافلة فى الاحسان، وزيادة فى الفضل والامتنان، وما خفى على أمير المؤمنين حال عقيلتك، الحرة، التقية، كافلة المؤمنين، الساعيه فى مصالح الدين، أنصاباً فى شعب من كان لذكر الله

تعالى مماسياً ومصاحباً، وانتظاماً فى سلك من يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً، وإهتماماً بالصالحات التى تهتم بها مثلها من الصالحات فى جبر الكسير، ومعونة الفقير، والتحنن على الكبير من مؤمنين والصغير، وستلقى شجر آمالها بالجزاء عن حسن أعمالها مثمراً يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، فأشكر لله تعالى أنعمه فى وليك أن مد إليك بجميل الاصطناع يداً، واقامة وزراً من ورائك وسنداً، وأوجدك منه ولياً مرشداً، فجعلك جلال مجد لا يبلى أبداً، وعضدك بامام الهدى، خلاف من اتخذ المضلين عضداً، وأشدد أزرك بحسن قبوله وكفالته، واشرح صدرك بما ناجاك به لسان نصرته وايالته، وأعلم انك مادام أمير المؤمنين بصلاح شأنك كافلا، فانك تفوز بأنوار ملكك وجمعه عاجلا وتأكل من ثمره إذا أثمر وينعه أجلا، بمشيئة الله تعالى وعونه. فأما ما حملته من الطافك التى ساقها سائق الاخلاص، وقربات المؤمنين المتقرب بها طالبو الخلاص، فقد جعل أمير المؤمنين القبول لها ثمناً، وساق إليك وإليهم من صلواته وتزكيته ما يكون لهم سكناً، فأما ما وصفتهم به من خلوص الاعتقاد، وركوب متون خيل الجد فى طاعتك والاجتهاد، فقد رضى أمير المؤمنين عنهم بما أظهرته من أعلام رضاك، وحميد مساعيهم الذى يذكرهم له اقتضاك، ورغب إلى الله تعالى أن يزيد الباقى منهم فى ايمانه، ويتغمد الماضى بعفوه وغفرانه.

وورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة - حرسها الله - يذكر أنك شددت معه حيازيم الجد، بالتقوية من أمره والشد، وشهرت فى نصرته حساماً ماضى الحد، حتى عاد جموع مراكب مراده ذلولا وغرب من انتصب لعناده مغلولا، فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره وامتيار سحابه من بحرك، وأفاض فى ثناء جميل، وشكر جزيل، أعجب أمير المؤمنين بهما، فاهتز طرباً لهما، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر، ما يوفى على الذكر، ولقد فعلت فعل الموفقين فى المقال والفعال، وحللت بما أتيت عقدة الأشكال، وتعين عليك أن تكون أنت وأياه يداً واحدة ببذل المجهود، فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن المعهود، ويقضى على ما أوقد فيه على مر الأيام من نار الظلم بالخمود، فيعود إلى ما

قاله الله سبحانه: «وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» وعهد إلى صاحب مكة بأن يتخذك ردأ فى صلاح ما هو له ملابس، وعهد إليك بأن لا تنزع عنك لباس ايالته الذى أنت لابس، يندى تبعاً لكما - على البر والتقووى - عود من جرم الله سبحانه مائس، ويقتبس أنوار بركاته فى حمى الامنه من هولها قابس وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجعلكما من عمار حرمه، والمتعلقين من الهدى فى طاعة وليه بأقوى عصمه. ورسلك فقد بلا أمير المؤمنين أخبارهم فرض أثارهم، وبلغهم من التقرب ايثارهم، وردهم نحوك معمورة بالرضا أرجاء صدورهم، ملاقية وجوههم بشر نجاح السعى فى أمورهم، غير أنه قد استأثر الله من جملتهم محمد بن عصيه، والله تعالى يرحمه، فانه واسع المغفرة لمن أدركه دعاء أمير المؤمنين وترحمه، وما يعلمك أمير المؤمنين به أنه ندب لعمال دولته، ووزراء مملكته، أقدم أهلها فى الخبرة بصلاحها قدماً، وأطلقهم بالخطابة لساناً، وبالكتابة قلماً، والندب الذى هو جالينوس طبها، والحال محل الحبة من قلبها: الوزير، الأجل، ابا الفرج عبد الله بن محمد، أدام الله عزه وأسعده، وأحسن به الامتناع، وتولى عنه الدفاع وعضده، والله تعالى يبارك لأمير المؤمنين فى حسن إختياره، ويحسن المعونة لوزيره فى ايراده واصداره، فاجعله وجهتك التى توليها فى طلباتك، والغرض الذى ترميه بمخاطباتك ومكاتباتك باذن الله تعالى، وقد صدر إليك من مجلسه ثبت بما حمل على أيدى رسلك وجددت النعمة فيه عليك.

فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه، واعمل عليه وبحكمه ان شاء الله والسلام عليك.

الحمد لله، وصلواته على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى أبرار عترته الأئمة الطاهرين، وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ملحق رقم [٢]

كتاب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى بشأن عدم الاخلال بشعائر الحرم الشريف [ربيع الاخر سنة ٤٥٥هـ]

ومن سجل قد تمزق أوله:

وألبسك من الاختصاص أفخر لبسه، ودعا الله سبحانه باشادة نبأ سعدك، وملاقاة النجاح لمواقع سعيك وقصدك، وهو فاعل ذلك برحمته، فأما ما ذكرته من حال الرجل الذى كان «قد» عصفت به إلى مستقرك من اليمن عاصفة القرار، خوفاً من «أن» تملكه بيد الإقتدار والاقتسار، ومصادفتك منه كفالا يشدها ساعد، ونفساً لا يصحبها من التوفيق مساعد، فحين شددت بإيالتك عزمه، وسددت لمرامى غرضه سهمه، فصدر عزيزاً بعد أن كان ورد ذليلا، وأب صحيحاً عقب أن وفد عليلا، سدد إليك بالرماية ساعداً بك للرماية أشتدت، ومد نحوك باعاً للمناضلة لولا إنك مددتها ما أمتدت، وأنك بعد فراغك من قضاء فرض الحج أهبت به إلى أن تصلح بينه وبين بنى عمه، وتسوق الجماعة إلى الأذعان له والنزول تحت حكمه، وعلى أن تلتزم فى خالص مالك الديات عن الدماء التى سفكها، والمغارم الثقيلة عن الحرمات التى هتكها، لتنام عين الطوائل بينه وبين أربابها، وأنك أشرت عليه بالمصالحة داخلا فيها له من جميع أبوابها، مكاتبة أولى، ومراسله على ألسن الثقات أخرى، فلم تزد نار لجاجه إلا إضطراماً، من حيث اردتها برداً وسلاماً، وكان قصارى جوابه لك التخيير بين النكوص على العقب، أو المقام لمصابحة القنا والقضب، وأنك بقيت مترجحاً بين أن تبطش بحول الله وقوته باليد الطولى أو تعتمد بقلده البغى، والفيئة إلى بلادك، ما هو أجدر وأولى، اتباعاً لأمثلة أمير المؤمنين السابقة، كانت إليك ألا تخل شعائر الحرم، ولا تلقى الله سبحانه بأن تريق فوق أرضه

محجمة دم، لاسيما لمن جمعه - وإمامك - جامع الرحم، فاستقر فى نفسك أحسنهما عند الله تعالى وعند أمير المؤمنين موقعاً، وأجملها من مطلع العقل والبصر مطلعاً، وهو الرجوع الذى به حقن الدماء، وسكون الدهماء، من جهتك فى العاجل، وأن كان يقع بأسهم بينهم فى الآجل وانك لما شددت الرحال للارتحال، وقد ملكت الأفئدة بالاحسان والافضال، وقعت فى الناس صيحة المخاوف والأوجال، فالحفوا بأن تقيم بين ظهرانيهم بالسؤال، فأبيت الإجابة لضيق المجال، فأتبعك من استطاع السبيل إلى اتباعك ليبلغ مأمناً، والذين ألمت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، فقد عرف أمير المؤمنين جميع ذلك، مسدداً لأقووالك وأفعالك، مستدلا بغررها وأوضاحها على ما يقضى الله سبحانه به من دوام اقبالك، فخفض عن نفسك أن ثنيت عنهم عنانك، بعد خطابهم لك بلسان الأبراق والأرعاد، ولا تشفق من أن يظن ظان أن رجوعك عن عجز أو نخب فى الفؤاد، فلا يخفى على ذى لب أن أمير المؤمنين هو الذى ثنا عنانك، فلا وصمة عليك أن قبضت دونهم بنانك، وأما قوولك أن الفئتين المختلفتين بعد خروجك يلتقيان فيحمى فيهما وطيس الحرب، ويكثر اختلاف الطعن بينهما والضرب، وأنه يخشى من اختلافهما أن تدخل على الحرم يد غريبة، فتبعد مسافة المراد فى تدارك حالة وهى اليوم القريبة، وذلك أنك إذا أمرت بالكرة عليهم فيما يصلح الفساد، ويقوم المنآد، ركبت فيها خيل العجل، وأقدمت أقدام الشجاع البطل، مستعيناً بالله سبحانه ومتوكلا عليه، ومفوضاً لأمرك إليه، فان كل هذا من وجه الرأى فتعجيله أحرى، أولا فلا محيص عن تدبير أمر الحرم كان فى جهتك أو فى جهة أخرى، فالذى أنت عليه حق، والذى نطقت به صدق، ولكن لو كان للقوم آذان تعى لوعت، أو قلوب سليمة لاستسلمت للناصح لها وأتبعت غير أن مركب البغى جمح بهم لدماء تراق، وشدة يلتف فيها الساق بالساق، وعزيز على أمير المؤمنين أن تهتك لحرم الله ستوره، وتنعكس أموره، والله تعالى مأمول بحسن الكفاية برحمته. ولولا تخوف أمير المؤمنين من أن يكون له فى فتنة الحرم نسب، أو يصلى بحره مثلك من هو إلى خدمته منتسب، لأوجدك فى الكره عليه الرخصة، وأباحك أن تغتنم الفرصة وهو يقدر أنه الآن قد التقت الفئتان، وقضى الأمر الذى فيه تستفتيان وإذا وصل الخبر كيف كانت الطامة؟ وعما إذا انقشعت تلك

الغمامة؟ ألقى إليك الأمر فيما تفعله، ومثل ذلك إليك مما تمتثله، وهو يقول لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً: «سيجعل الله بعد عسر يسرا»: ومما يرى تعجيله فى الوقت، مكاتبة بنى الحسن - عليه السلام - معنفا له على اعتياضهم حربك عن الصلح، وانقباضهم عن قبول ما محضته لهم من النصح، ومقابلتهم جميلا بالقبح، والأمر لهم بالاجماع على أحق المتنازعين فى أمر الولاية بالأمر، لينفذ إليه من التقليد ما يؤذن بشد الأزر، ثم إليك يساق الحديث فيما يتقرر، ومن تطوى به صحف الولاية وتنشر، بإذن الله سبحانه، وأما ما شكوته من قيام الشريف الأمير زعيم الدولة - حسين بن أحمد - عليك مؤلباً، ولجمرات حمية الحرب فى حرمك ملهباً، من غير معرفتك لفعله سبباً، فقد قضى أمير المؤمنين مما سولت نفسه من ذلك عجباً، وسيكاتبه بما يكون يتنزله مؤدباً: وأما مصادقتك عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الحسينى شعث الحال، وحلك عنه عقلة ديونه الثقال، وأخذك له فى الصحبة عند الإرتحال، فأنت من الموفقين بحمد الله فى المقال والفعال، وأما سؤالك فى الأنعام عليه بالمؤجر له من بيت المال، فقد وقعت الإجابة به إلى السؤال.

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه، وتوقع كتابه بما تمتثله وتعمل بحكمه، ان شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب فى العشرة الأولى من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وأربعمائة. والحمد لله وحده، وصلى الله على جدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين، وسلم تسليماً، «و» حسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولى، ونعم المصير.

ملحق رقم [٣]

كتاب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله إلى على بن محمد الصليحى بشأن أحوال مكة المكرمة [جماد الأولى ٤٥٦هـ]

بخط اليد الشريفة النبوية:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

من عبد الله ووليه: معد أبى تميم، الامام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، إلى الأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، تاج الدولة، سيف الامام، المظفر فى الدين، نظام المؤمنين، على بن محمد الصليحى نصره الله وأظفره.

سلم عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على جده خاتم النبيين وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليماً.

أما بعد: فالحمد لله فاتح المغالق، وناصر أهل الحقائق، ذى الطول السابق، والوعد الصادق، والمحل بأسه وسطوته بكل منابذ لأوليائه مفارق، وباغ عليهم منافق، الذى يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، مديل الطاغين، ومزيل العاصين، وولى المؤمنين، وجاعل العاقبة للمتقين، القاضى للأئمة من عترة رسوله - عليه السلام - بخير ما قضى به لأحد من أهل بيت النبيين، وعترة المرسلين، ومختصهم من نعمه بما يعجز عن وصفه الواصفون، القائل وقوله الحق: « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ».

يحمده أمير المؤمنين حمد من أجزل لديه صنيعته، وحفظ فى آبائه الطاهرين وديعته، وأعلى حزبه وشيعته، ويسأله أن يصلى على جده محمد خير رسول نزع من السمات البهيمية، وركبهم فى الصور الروحانية، ونفعهم بالاسماع والابصار، وأنقذهم وكانوا على شفا حفرة من النار، صلى الله عليه وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين على بن ابى طالب ترجمان تنزيله، وباب حكمته وتأويله، الكاشف لحقائق الايمان، والقاطع لدابر أهل البغى والعدوان، وعلى الأئمة من آلهما أعلام الدين والشهداء على العالمين وسلم تسليماً. وانه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابان وردا منك: أحدهما صدر عنك من صنعاء، بتاريخ شعبان من سنة خمس وخمسين وأربعمائه، والآخر من مدينة الهجر، بتاريخ شوال من هذه السنة، يتضمن الأول منهما ذكر ما انتهى إليك عند قفولك من مكة - حرسها الله - من حال الخارجى الذى استغواه شيطانه، ودعاه إلى مصرعه حينه وخذلانه، وقيامه فى قبائل مذحج والنخع وعبس فانطلق لسان الغى، ودعا دعوة الافك والبغى، واستعصم بحصون تلك القبائل، وانسى ان الله فوق المعاقل، وما كان من دلوفك إليه فى حزب الله المفلحين، وأنصار دينه المخلصين، فاستبحت حماه، وأبدت غضراه، وجعلته عظة للظالمين، وعبرة للمعتبرين، مستصحباً من عزم امامك ما يذلل لك الحزون، ويقود اليك العصى الحرون، ثم انكفأت إلى الجبال التى اقتصصت انباءها، فدوخت قللها، وملكت معاقلها، وحسمت غوائلها، واجتمع الكافة قبلك على سواء فى النصيحة والاعلان بشعار الدعوة الهادية، وانك فى اثناء ذلك حتى ورد رسلك بما حبيت به من حضرة الامامة، وخصصت بسنائه من التشريف والكرامة، وتلقيك ذلك بالاعظام، وقيامك فى شكر النعمة أحمد مقام، وتصف استشراف متولى مكة - حرسها الله - إلى حلى لما لك من الأمتعة والأقوات فانك تستخير الله تعالى وتتوخى له مقدماً للأعذار واللين فى المقال أن نجح أو أثر، والا حاكمته إلى الله وهو خير الحاكمين، ثم تسأل فيما يتعلق بعبد الله بن ابراهيم الحسينى قاضى مكة بنقل خدمته إلى ولد ولده لما ذكرته من صيانته، ووصفته من أمانته.

والثانى يشتمل على خبر إصدارك الكتاب الأول، وما كان من اقتصاصك حال المعروف بابن عراف وكفره النعمة، وقطعه العصمة واستبداله السيئة بالحسنة، وما انتهت اليه حالة شيئاً شيئاً، حتى مر شريداً طريداً، قد سد الله فى وجهه كل مسلك وطريق، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، فانك تقفو أثره صامداً لاستئصاله، حاسماً لأسباب غيه وضلاله، وما أنبأت به من وفاة اسعد بن عبد الله - رحمه الله - على خير ما درج عليه شمل بحقائق الدين، معتصم بمناصحة أمير المؤمنين وسألته من الاسترحام «له» ولجماعة من أمثاله من السابقين الأولين، ووقف على جميع ما قصصته وأحاط العلم بما اقتصصته، وأكثر أمير المؤمنين من حمد الله جلت آلاؤه، على ما لا يزال يعليه من حدود الدين أولياؤه، ويخفضه من مناكب أعدائه، ويقضى به لأنصاره من الأعزاز والنصر، وللناكبين عن طاعته بالذل والقهر، وألقاك أمير المؤمنين فى كل ما تصرفت فيه من المقال، وأخبرت به من تصاريف الأحوال، موفقاً فى رأيك مسدداً فى مقاصدك وأنحائك، سالكاً مناهج أوليائه الذين شرح الله بالهدى صدورهم، ويسر للحسنى أمورهم، عاملا بطاعة مولاك فى مقاماتك، مستمداً من زكاة الاخلاص فى ولائه ما يحفظ عليك أسباب سعاداتك، فلازلت برعايته محفوظاً فى الدين والنفس والحال، آيلا من جميل صنع الله فى أولاك وأخراك إلى خير مآل، فأما الخارجى الذى حصده سيف الحق بجهله وأبسله الله بكسبه ولؤم فعله، فتلك عادة الله سبحانه عند أولياء دينه، وما يمدهم به من نصره وتمكينه، وكفى به عظة لو كانت تنفع العظات، أو يتصدع بالاستبصار أغشية قلوب ذوى الجهالات، وما برح من آثار مساعيك أرج تتعطر به المحافل، ويتلوه فى الانديه الأفاضل، والله تعالى يمدك عن خدمة مولاك وامامك بعونه، ويكلؤك فى متقلبك ومثواك بعينه، واما ابن عراف الذى طبع على قلبه، وأخذ عن رشده، وختم له بشر خواتم الأعمال، واستبدل بأضواء الهدى ظلم الضلال، صار من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً، فقد اتصل بحضرة الامامة نبؤه، وقد ورد ولده مكة - حرسها الله - واجتماعه بالشريف الأمير فخر المعالى ذى المجدين - سلمه الله - وما أظهره من الأعراض عنه، والحذر منه، وكوتب عن أمير المؤمنين باخماد ما انتحاه، واستئناف ما قصده وأتاه

والآن فقد أمره أمير المؤمنين بأن يقد ولد عراف اليك قود الجنيب، أو يحمله إلى الحضرة فيكون لها فيه الرأى المصيب، وأما عبد الله بن ابراهيم فقد وقع ما وصفته به أجمل مواقعه، وأجيب إلى ما التمسته فى ولد ولده، وقد أجابك أمير المؤمنين إلى ما طلبته من الترحم على أسعد وقدم ذلك عند ذكره، فطوبى له وحسن مآب اذ جعله الله ممن توفاه على نهج الأولياء المخلصين، الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، فالله تعالى يصلح أحوال المؤمنين قبلك ويختصهم بخير ما أعده الله لذوى البصائر فى الدين، والمجتهدين فى ولاء أئمتهم المجاهدين وينبغى أن تتحقق أن مكانك من حضرة أمير المؤمنين مكين، وموقعك من اثرته موقع القوى الأمين، الذى أخلص لله ولوليه باطنه وظاهره، وأحصد على التمسك بعصم آدابه مرائره، فقد كشف بالارشاد غطاء قلبه، وبين له نهج الهدى فهو على بينه من ربه، وتواصل انهاء ما يتوكف من أنبائك لتشملك بركات أدعية إمامك، وتكنفك الميامن من خلفك وأمامك، وقد خوطب رسلك بما يذكرونه لك مما يقوى نفسك، ويشرح صدرك، ويشد أزرك، وزاد أمير المؤمنين فى نعوتك: عمدة الخلافة، لاعتماده عليك، وسكونه اليك، وشرف كريمتك بالخطاب: بالفاضلة، لما ظهر من فضلها، وتميزها بالدين والخصائص على أبناء جنسها، ولكما مزيد من احسان أمير المؤمنين وادنائه النافع فى الدارين.

فأعلم ما خاطبك به أمير المؤمنين متشرفاً بخطابه، ومتجملا بكريم جوابه، واجر على وتيرتك المرضية فى خدمته، وسنتك المحمودة فى مناصحته، ان شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

وكتب لتسع خلون من جمادى الأولى من سنة ست وخمسين وأربعمائه.

والحمد لله، وصلى الله على جدنا محمد رسوله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، الأئمة الهادين، ذرية النبوة، وسلم تسليماً، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ملحق رقم [٤]

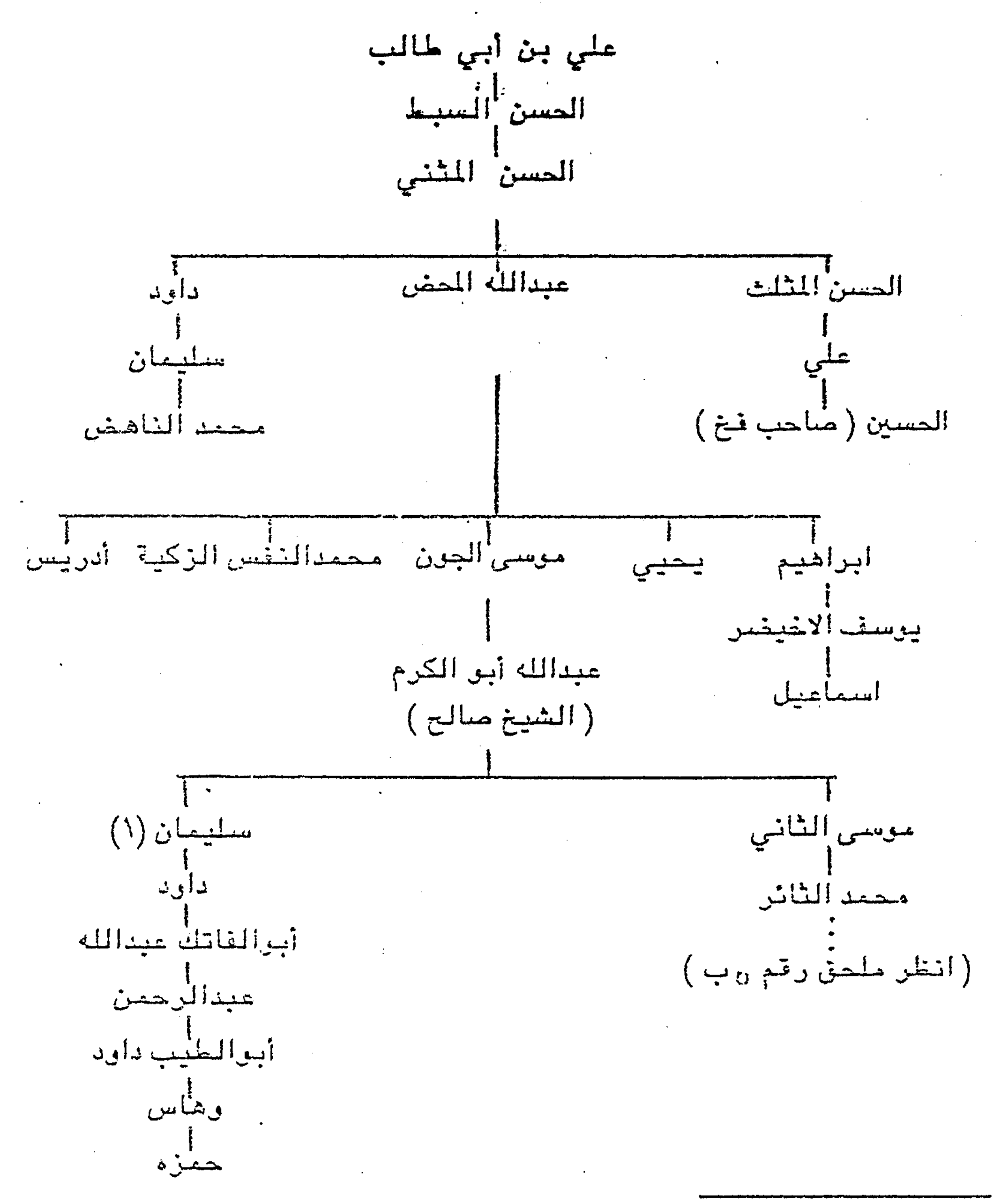
كتاب الخليفة المستنصر بالله إلى السيدة الحرة
فيما يتعلق بالحرمين الشريفين

كان قد نفذ اليك من حضرة أمير المؤمنين سجل مفرد فيما يتعلق بالحرمين المحروسين، واعلامك أن الحوادث الشاغلة للصدور، القاضية باختلاف كلمة الجمهور، صدت عن سوق رسومها ورسوم أرباب الرسوم بها اليهم، وأن تأخرها أضر بهم وكبر عليهم، ورسم أمير المؤمنين لك أن تلمظهم بنفقة من عندك يتمزنون بها إلى حين وقوع الامكان من حمل رسومهم اليهم، وقد جدد أمير المؤمنين الاذكار لك فى سجله هذا بحمل عشرة آلاف دينار اليهم، لتنفق على الحرمين المحروسين، وارباب الرسوم لكل على قدره، واشعارهم يكون ذلك محمولا بأمر أمير المؤمنين لك فيه، وصدر رأيه فى تقديمه بإذن الله، وقد عززنا بثالث من حضرتنا وهو: الأمير، الأجل، الموفق، سديد الملك، أبو الفضل طاهر بن على بن حباسة - سلمه الله ووفقه وأعانه - الذى تعرف مكانه منا فى الاختصاص، ومن الماضى - رضى الله عنه - فى المحبة له والإخلاص، وانه بعد ذلك من ناشئه الدولة، وأرباب الوجاهة والنباهة، ومن حاز بحدى السيف والقلم مرتبة الاصطناع والتقدم، وأصبحناه لبس لبسناها وصلينا فيها فى آخر جمعة من شهر رمضان، زيادة فى احتبائك، وحرصاً فى رفعك واعلائك، فأكرم مثوى هذا المذكور، وأجره فى الاحفاء بك على رسمك المشكور.

الحمد لله وحده، وصلواته على جدنا محمد، خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليماً، وحسبنا الله، ونعم الوكيل.

ملحق رقم [٥- أ] *

نسب أشراف مكة

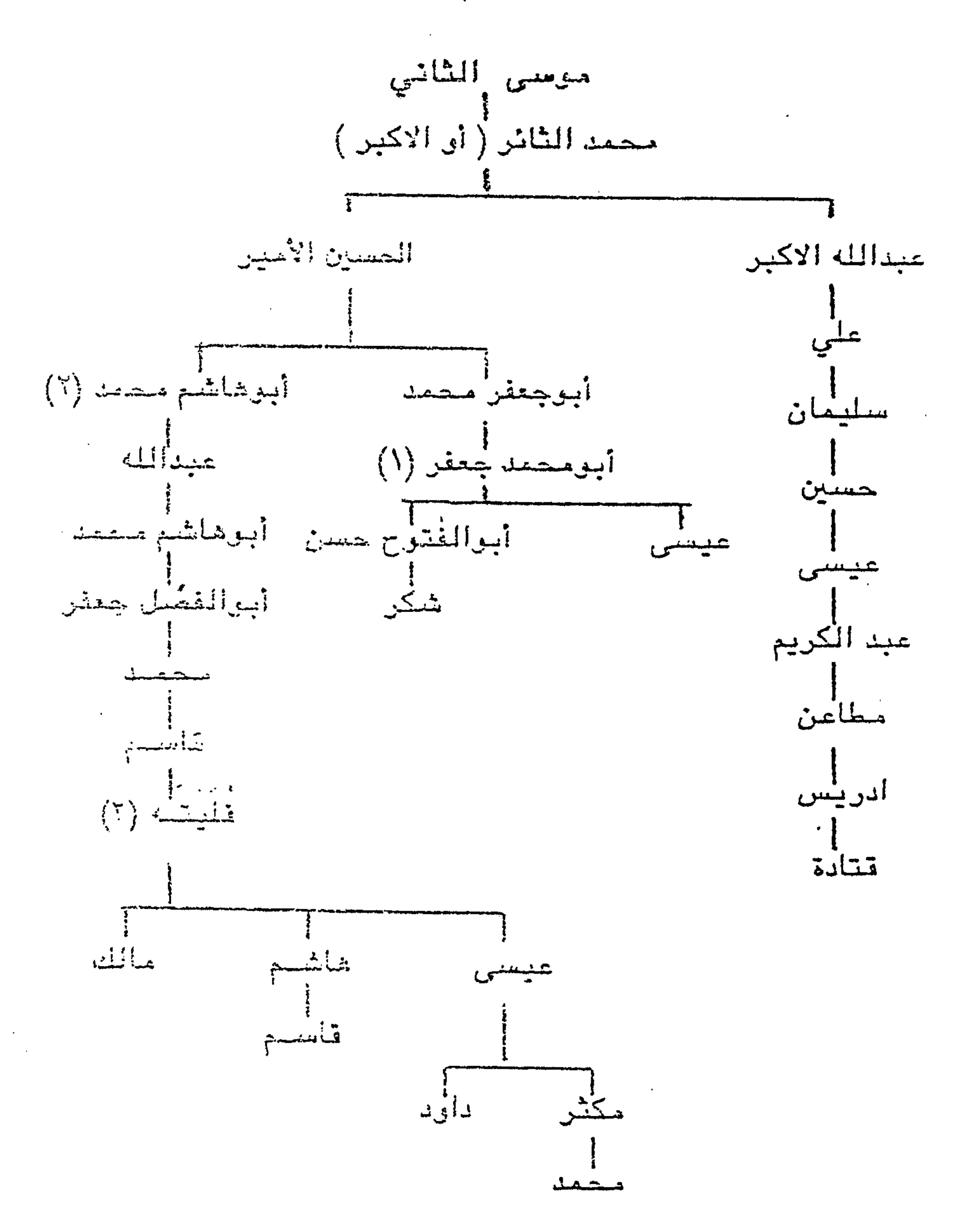


---

* أنظر ريتشارد مورتيل : الاحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ط . الرياض ١٩٨٥م ، ص ٢٣٩

(١) يعرف ولده بالسليمانيين نسبة إليه .

ملحق رقم [٥-ب] *



* انظر ريتشارد مورتيل : الاحوال السياسية والاقتصادية بمكة ، ص ٢٤٠ .

(١) يعرف ولده بالجعافرة وهم أول من حكموا مكة من بني الحسن .

(٢) يعرف ولده بالهواشم .

(٣) يعرف أولاده ببني فُلَيْتَه .

المصـــادر والمراجـــع

المصـــادر والمراجـــع[*]

أولا: المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة:

- القرآن الكريم:

- الأبشيهي: [شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي المحلي]/ المستطرف في كل فن مستظرف، ط. مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- ابن الأثير [عز الدين أبو الحسن علي الجزري. ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٢م]
  * أسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ١، ط. طهران ١٣٧٧هـ.
  * الكامل في التاريخ، جـ٧، ٨، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- ابن إياس [أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م]
  * بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، القسم الأول، تحقيق/ محمد مصطفى، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٢م.

- ابن بطوطة [محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي، ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م]
  * تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
  * تحقيق/ محمد عبد المنعم العريان، الطبعة الأولى، بيروت،١٤٠٧هـ/١٩٨٣م.

- ابن تغري بردي [جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م]
  * النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ ٥، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، د.ت

- ابن جبير [أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، ت٦١٤هـ/١٢١٧م]:
  * رحلة ابن جبير، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- ابن الجوزي [أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م]:
  * المنتظم في تاريخ الملوح والأمم، الأجزاء ٦-١٠، حيدر أباد ١٣٥٧هـ.
  * القرامطة، تحقيق/ محمد الصباغ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م].

---

[*] تم ترتيب المصادر والمراجع التي وردت في هوامش الرسالة تبعاً لترتيب أحرف الهجاء لأسماء المؤلفين.

- ابن حزم الأندلسى [أبو محمد على بن أحمد بن سعيد، ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م]:
* جمهرة أنساب العرب، تحقيق/عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، القاهرة، د.ت

- ابن خلدون [عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربى، ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م]
* تاريخ ابن خلدن المعروف باسم: العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

- ابن خلكان [أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابى بكر، ت٦٨١هـ/١٢٨٢م]
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جزءان، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٢م.

- ابن زينى دحلان [السيد أحمد]:
* خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام، جزءان، ١٣٩٧هـ/١٩٨٧م.
* تاريخ الدولة الاسلامية بالجداول المرضية، مخطوط برقم ٢٣٣٢، مكتبة فاتح باستانبول، ومطبوع فى القاهرة سنة ١٣٠٦هـ.

- ابن الصيرفى [على بن منجب، ت٥٤٢هـ/١١٤٧م]:
* قانون ديوان الرسائل، تحقيق/أحمد بهجت، القاهرة ١٩٠٥م.
* الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق/عبدالله مخلص، القاهرة ١٩٢٤م.

- ابن ظهيرة [جمال الدين محمد]:
* الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها، وبناء البيت الشريف. الطبعة الثانية، مكة المكرمة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

- ابن العماد الحتيلى [أبو الفلاح عبد الحى، ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م]:
* شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، القاهرة ١٩٣١-١٩٣٣م.

- ابن فهد [عمر بن فهد محمد بن محمد، ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م]:
* اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق/ فهيم شلتوت، الجزءان الأول الثانى، ط. القاهرة ١٩٨٣م.

- ابن القلانسى [أبو يعلى حمزة، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م]:
* تاريخ أبى يعلى المعروف بذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م.

- ابن كثير [إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م]:
* البداية والنهاية، جـ١١، ١٢، بيروت، ١٩٧٧م.

- ابن المجاور: جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد، ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م].
* صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر، ليدن ١٩٥١م.

- ابن مسكوية [أبو على أحمد بن محمد]:
* تجارب الأمم، الأجزاء ١-٣، القاهرة ١٩١٤م.

- ابن منظور [محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصارى، ت٧١١هـ/١٣١١م]:
* لسان العرب، ٢٠ جزءاً، القاهرة ١٨٨٢-١٨٩١م.

- ابن النجار [الحافظ الشيخ محمد بن محمد، ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م]:
* الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة، ملحق بكتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقى الدين الفاسى، جـ٢، ط، القاهرة، سنة ١٩٥٦م.

- أبو شامة [عبد الرحمن بن اسماعيل، ت ٦٦٥هـ/١٢٦٨م]:
* كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جزءان، القاهرة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.

- أبو الفدا [إسماعيل بن الملك الأفضل، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م]:
* المختصر فى أخبار البشر، ٤ أجزاء، استانبول، ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م.
* تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.

- بامخرمه [عبد الله الطيب بن عبد الله، ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠-١٥٤١م]:
* تاريخ ثغر عدن، مع نخب من تواريخ ابن المجاور، ليدن ١٩٣٦م.

- الجرموزى [علم الدين القسم بن الحسن]:
* أخبار ملوك اليمن، مخطوط تحت رقم ٩٦ تاريخ بمكتبة الفاتح، استانبول.

- الجزيرى [عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصارى]:
* درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة،١٣٨٤هـ

- الخضراوى [أحمد محمد، ت ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م]:
* الجواهر المعدة فى فضائل جدة .
* مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٣٤٧٠ .

- الذهبى [محمد بن أحمد، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م]:
* تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم ٤٢ تاريخ.

- الرشيدى [أحمد]:
* كتاب الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٢١٥ تاريخ.

- سبط ابن الجوزى [شمس الدين بن المظفر يوسف، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م]:
* مرأة الزمان فى تاريخ الأعيان، جـ٨، حيدر أباد ١٩٥١م.

- السخاوى [محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م]:
* التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، ٣ أجزاء، القاهرة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- السمهودى [نور الدين على بن أحمد، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م]:
* وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، جزءان، القاهرة، ١٩٥٥م.

- السنجارى [على بن تاج الدين بن تقى الدين، ت ١١٢٥هـ/١٧١٣م]:
* منائح الكرم فى أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٣٥٣٨.

- السيوطى [الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م]:
* تاريخ الخلفاء، تحقيق/ محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٢م

- الصيرفى [أنظر ابن الصيرفى]:

- العصامى [عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، ت ١١١١هـ/١٦٩٩م]:
* سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠-١٩٦١م.

- عماد الدين الأصفهاني [محمد بن محمد بن حامد: ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م]:
* تاريخ دولة آل سلجوق، بيروت ١٩٧٨م.

- عمارة اليمني [نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي المكي]:
* كتاب في النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، ط. مدينة شالون١٨٩٧م

- العيني [بدر الدين محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م]:
* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ.

- الفاسي [أبو الطيب محمد بن أحمد، ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م]:
* تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم١٦٤٦ تاريخ.
* العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الأجزاء ١-٧، القاهرة، ١٩٥٨-١٩٦٦م
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جزءان، بيروت، د.ت.

- القلقشندي [أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م]:
* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزءاً، القاهرة، ١٩١٩-١٩٢٢م.

- محمد المطاع [أحمد بن أحمد]:
* تاريخ اليمن الإسلامي من سنة ٢٠٤هـ إلى سنة ١٠٠٦، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م-١٤٠٧هـ

- المراغي [أمين الدين أبي بكر بن الحسين المدني الشافعي]، ت ٨١٦هـ/١٤١٣م
* تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة، رقم ٢٢١١ تاريخ تيمور.

- المسبحي [الأمير عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد، ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م]:
* أخبار مصر، جـ٤٠، تحقيق/أيمن فؤاد سيد وجارسيان،ط،المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة.

- المطري [الفاضل، ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م]:
* التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تحقيق/ محمد بن عبد المحسن الخيال، نشره/أسعد درا بزوني الحسيني، سنة ١٩٥٥م.

- المقريزى [تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م]:
* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، القاهرة، ١٢٧٠ه/١٨٥٣م.
* إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، جـ١، تحقيق/جمال الدين الشيال،القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، جـ٢، تحقيق/محمد حلمى أحمد،القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.
* كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزءان الأول والثانى، تحقيق/ محمد مصطفى زيادة، ط، القاهرة ١٩٣٤-١٩٥٨م.
* كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق/محمد مصطفى زيادة، وجمال الدين الشيال، ط. القاهرة ١٩٤٠م.

- ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة/يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥م.
* نظام الملك: سياسة نامة، ترجمة وتعليق/ السيد محمد العزاوى، القاهرة ١٩٧٦م.

- النويرى [شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م]:
* نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢٥، ٢٦، القاهرة ١٩٨٤-١٩٨٥م.

- ياقوت الحموى الرومى [شهاب الدين أبى عبد الله، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م]:
* معجم البلدان، ٦ أجزاء، ليبزخ ١٨٦٦م.
* معجم الأدباء، ٢٠ جزءأ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

- يحى بن الحسين [بن محمد بن القاسم، ت ١١٠٠هـ/١٦٨٩م]:
* غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، قسمان، تحقيق/ سعيد عبد الفتاح عاشور، ط. القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- اليعقوبى [أحمد بن ابى يعقوب ت٢٨٤هـ/٨٩٧م]:
* كتاب البلدان، ط. ليدن ١٨٩١م.

- اليمانى [عبد الواسع بن يحى]:
* تاريخ اليمن المسمى فرحة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن،الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

ثانياً: المراجع العربية والمترجمة:

- إبراهيم رفعت باشا:
* مرآة الحرمين، الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، القاهرة،١٩٢٥م.

- إبراهيم الشريقى:
* التاريخ الاسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوى حتى العصر الحاضر، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

- إبراهيم على العياشي:
* المدينة بين الماضي والحاضر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

- أحمد إبراهيم الشريف:
* تاريخ الحجاز فى القرنين الأول والثانى للخجرة [رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين شمس، سنة ١٩٦٧م].
* دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة ط٢، ١٩٧٧م.
* مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، ط٢، القاهرة، ١٩٦٥.

- أحمد أمين:
* ضحى الإسلام، ٣ أجزاء، القاهرة ١٣٤٣هـ/١٩٣٥م.

- أحمد دراج:
* إيضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر، مقال بالمجلة التاريخية، رقم المجلد ١٤، السنة ١٩٦٨م.

- أحمد السباعي:
* تاريخ مكة، دراسات فى السياسة والعلم والاجتماع والعمران، جزءان، ط٤، مكة المكرمة، ١٩٧٩م.

- أحمد شلبى:
* التربية الاسلامية، نظمها، فلسفتها، تاريخها، ط٧، القاهرة، سنة ١٩٨٢م.

- أحمد عمر الزيلعي:
* مكة علاقاتها الخارجية [٣٠١-٤٨٧هـ] الطبعة الأولى،الرياض،١٤٠١هـ/١٩٨١م

- أحمد مختار العبادى:
* تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، بيروت، ١٩٧٢م.

- أدم متـــز:
* الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة/د.عبد الهادى أبو ريدة ط٢، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

- آمنة حسين محمد علي جلال:
* علاقة سلاطين بنى رسول بالحجاز ٦٣٠-٨٥٥ هـ [رسالة ماجستير فى التاريخ الإسلامى قدمت لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٠هـ].

- أمينة بيطار :
* موقف أمراء العرب من الفاطميين بالشام والعراق حتى أواخر القرن الخامس الهجرى. دمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٠م.

- بدر عبد الرحمن محمد:
* الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الاسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاحقة، ط. القاهرة ١٩٨٩م.

- جميل حرب محمود حسين:
* الحجاز واليمن فى العصر الأيوبى، جدة ١٩٨٥م.

- حسن ابراهيم حسن:
* تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٥٨م.
* المعز لدين الله، ط٢، القاهرة ١٩٦٢م.
* تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، ٣ أجزاء، ط٧القاهرة ١٩٧٤م.

- حسن سليمان محمود:
* الصليحيون فى اليمن وعلاقتهم بالفاطميين فى مصر [رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٥١م].

- حسنين محمد ربيع:
* بحر الحجاز فى العصور الوسطى، فصل من مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
* البحر الأحمر فى العصر الأيوبى من كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٠٥-١٢٣.
* وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانىء الحجاز واليمن فى العصور الوسطى.
* الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية - جامعة الرياض - كلية الآداب - قسم التاريخ.

- حسين محمد سليمان:
* الدولة الإسلامية فى العصر العباسى والعلاقات السياسية مع الفاطميين.القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- حمـد جاســر:
* رسائل فى تاريخ المدينة، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
* بلاد ينبع، لمحات جغرافية وانطباعات خاصة، الرياض.

- حياة عبد القادر مرسى:
* دور السيدة الحرة أروى بنت أحمد الصليحى فى اليمن، رسالة ماجستير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التاريخ - جامعة أم القرى بمكة ٩٩-١٤٠٠هـ/٧٩-١٩٨٠م [غير منشورة].

- خاشع بن عيادة المعاضيدى:
* الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ٣٥٩-٥٦٧هـ. [رسالة دكتوراه - كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٧٣م].

- خير الدين الزركلى:
* الأعلام، ١٠ أجزاء، القاهرة ١٣٧٣-١٣٧٨هـ/١٩٥٤-١٩٥٩م.

- ذو النون المصرى:
* عمارة اليمنى، ١٩٦٦م.

- ريتشارد مورتيل:
* الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة فى العصر المملوكى، ط الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- زامبـــاور:
* معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، جزءان، القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢.

- سعد الراشد:
* درب زبيدة، مجلة الدارة السعودية،العددالأول، السنة الرابعة،ربيع الثاني سنة ١٣٩٨هـ.

- سليمان عبد الغني مالكي:
* مرافق الحج والخدمات في الأراضي الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية. [رسالة ماجستير، كلية الآداب-جامعة القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م].
* بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد [من منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري]، ط. الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٥م.

- السيد عبد العزيز سالم:
* دراسات في تاريخ العرب، تاريخ العرب قبل الاسلام، جـ١،الاسكندرية،د.ت

- سيد عبد المجيد بكر:
* الملامح الجغرافية لدروب الحجاج، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٦٩م.

- صالح أحمد العلي:
* محاضرات في تاريخ العرب، جـ١، ط٤، بغداد ١٩٦٨م.

- صبحي لبيب:
* التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ٤، العدد الثاني، مايو ١٩٥٢م.

- عائشة بنت عبد الله باقاسي:
* بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م، الطبعة الأولى، مكة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- عاتق بن غيث البلادى:
* معجم قبائل الحجاز، ٣ أجزاء، مكة المكرمة ١٣٩٩هـ.
* على طريق الهجرة، الطبعة الأولى، مكة المكرمة ١٣٩٩هـ.

- عبد الحميد يونس:
* الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى، القاهرة ١٩٥٦م.

- عبد الرحمن الجزيرى:
* كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، قسم العبادات، المجلد الأول، د.ت.

- عبد الرحمن الرافعى، وسعيد عبد الفتاح عاشور:
* مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٠م.

- عبد الرحمن زكى:
* السلاح فى الإسلام، القاهرة، ١٩٥١م.

- عبد الرحمن صالح عبد الله:
* تاريخ التعليم فى مكة المكرمة، ط١، بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م.

- عبد الرحمن فهمى:
* النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة ١٩٦٤م.

- عبد القدوس الأنصارى:
* موسوعة تاريخ مدينة جدة، المجلد الأول، ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- عبد الله محمد السيف:
* الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- عبد الله مراد أبو الخير:
* المختصر من كتاب نشر النور والزهر فى تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، جزءان، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

- عبد المنعم ماجـــــد :
* الامام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة ١٩٦١م.
* السجلات المستنصرية، القاهرة، ١٩٥٤م.
* ظهور الخلافة وسقوطها في مصر/التاريخ السياسي، ط٢/الاسكندرية،١٩٧٦م

- عطيــة القوصــي:
* تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية القاهرة، ١٩٧٦م.

- علي حسن الخربوطلي:
* تاريخ الكعبة، القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- علي بن حسين السليمان:
* علاقة مصر بالحجاز زمن السلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م نشرت تحت عنوان: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، ط، القاهرة ١٩٧٣م.
* النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠-١٥١٧م، القاهرة، ط القاهرة، طذ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- علي محمد علي الغامدي:
* بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي، ٤٦٣-٤٩١هـ/١٠٧٠-١٠٩٨م، ط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- عمر رضا كحالــة :
* معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٥ أجزاء، ط دمشق،١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

- عمر الفاروق السيد رجب:
* المدينة المنورة - اقتصاديات السكان، ط جدة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- فايزة محمد صالح أمين سجيني:
* غزوة بني هلال وبني سليم للمغرب[رسالة ماجستير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى ١٤٠٠-١٤٠١هـ/١٩٨٠-١٩٨١م.

- محمد باقر الحسيني:
* تطور النقود العربية الإسلامية، ط١، بغداد ١٩٦٩م.

- محمد جمال الدين سرور:
* مصر في عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٣م.
* النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ط٣، القاهرة ١٩٦٤م.
* النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط٤، القاهرة، ١٩٦٤م.
* سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
* قيام الدولة العربية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ط.القاهرة د.ت

- محمد حسين يوسف:
* رسالة المسجد في العالم عبر التاريخ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد،١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- محمد حمدى المناوى:
* الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٧٠م.

- محمد سالم بن شديد العوفي:
* العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية من العصر السلجوقي ٤٤٧-٥٦٧هـ/١٠٥٥-١١٧١م، الطبعة الأولى، الرياض،١٤٠٢هـ/١٩٦٢م.

- محمد طاهر الكردى المكي:
* التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام،٤ أجزاء،الطبعة الأولى، مكة المكرمة ١٣٨٥هـ.

- محمد عبد الله عنان:
* الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط٢، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

- محمد قنديل البقلي:
* التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ط. القاهرة، ١٩٨٤م.

- محمد لبيب البتنوني:
* الرحلة الحجازية، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

- محمد محمود إدريس:
* تاريخ العراق والشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول،ط.القاهرة ١٩٨٥م

- محمود طه أبو العلا:
* جغرافية شبه الجزيرة العربية، ٣ أجزاء، الطبعة الثالثة،١٩٧٥م.

- ملك محمد محمد الخياط:
* السيدة زبيدة ودورها السياسي والعمراني [رسالة ماجستير كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى، ١٤٠١-١٤٠٢هـ/١٩٨١-١٩٨٢م [غير منشورة].

- منير الدين أحمد:
* تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨١م.

- نادية حسني صقر:
* الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- نجاة قاسم الصباغ:
* بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٦٩م.

- نعيم زكي فهمي:
* طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

- نورة بنت عبد الله بن ابراهيم آل الشيخ:
* الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الاسلام، الطبعة الأولى، جدة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
* الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في المدينة المنورة في العصر الأموي ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م، رسالة دكتوراه لم تطبع، قدمت إلى كلية التربية للبنات بجدة.

ثالث: المراجع الأجنبية:

1- Al-Wahaibi, Abdullah,
The Northern Hijiaz in the Writtings of the Arab Geographers, 800-1150, Beirut,1973.

2- Dohaish, Abdullatif Abdulla,
History of Education in the Hijaz up to 1925, Cairo, 1978.

3- Dozy, R., Supplement aux dictionnaires Arabes, 2 Vols, Leiden, 1927.

4- Lewis, B
"The Fatimids and the route to India" Revue de la Faculte des Sciences economiques, Univ. Istanbul, Vol xi [1949-1950], pp. 50-54.

5- The Cambridge History of Islam, 2 Vol.,London 1970.